آثار الإمام
عبد الحميد بن باديس

رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

رجال السلف ونساؤه
تراجم أعلام - القصص - الفتاوى

الجزء الثالث



صدر هذا الكتاب عن وزارة الثقافة بمناسبة
الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007
يُهدى ويُوضع في المكتبات ولا يباع

صدر هذا الكتاب عن وزارة الثقافة بمناسبة
الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007
يُهدى ويُوضع في المكتبات ولا يباع





الإمام المصلح الشيخ عبد الحميد بن باديس



..."إنما ينفع المجتمع الإنساني ويؤثر في سيره من كان من الشعوب قد شعر بنفسه فنظر إلى ماضيه وحاله ومستقبله؛ فأخذ الأصول الثابتة من الماضي، وأصلح شأنه في الحال، ومدّ يده لبناء المستقبل، يتناول من زمنه وأمم عصره ما يصلح لبنائه مُعرضا عمّا لا حاجة له به أو ما لا يناسب شكل بنائه الذي وضعه على مقتضى ذوقه ومصلحته..."

عبد الحميد بن باديس

"الشهاب" الجزء 3 المجلد 12

ربيع الاول 1355هـ.. جوان 1936 م



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

بقلم السيد .
عبد الرحمن شيبان
وزير الشؤون الدينية

من الاهداف التى تسعى وزارة الشؤون الدينية إلى تحقيقها، بعون الله وتوفيقه ، نشر تراثنا الإسلامى ، والتعريف به ؛ إحياء لتاريخ الجزائر العلمي العريق وإسهامها فى إثراء الفكر الإسلامي مساهمة كبيرة وأصيلة .

وفى هذا الإطار ، نشرت الوزارة ، منذ سنتين خلتا ، الجزء الأول من آثار الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس الخاص بتفسير القرآن الكريم ، بمناسبة الذكرى العشرين لاسترداد حقنا المسلوب ، واستعادة استقلالنا المغصوب ؛ ولم يحُل الحولُ حتى كان الجزء الثاني الخاص بالحديث النبوي الشريف بين أيدي القراء . وها هى الوزارة تفي بعهدها الذى أعلنته ، وتعزز الجزأين المذكورين بهذا الجزء الثالث الذى تنشره بمناسبة احتفال شعبنا بالذكرى الثلاثين لاندلاع ثورته التى هى من « أيام الله » التى أمر بالتذكير بها ؛ وستوالي الوزارة ـ إن شاء الله ـ نشر بقية تراث الإمام ، وغيره من علمائنا الأعلام .

يضم هذا الجزء مجموعة من مقالات الامام عبد الحميد ابن باديس ، رأينا أن نقسمها إلى أقسام أربعة هى :

1) رجال السلف ونساؤه .

2) التراجم والأعلام .

3) القصص الديني .

4) الفتاوى والمسائل الفقهية .

وقد يخيل لبعضهم أن ليست هناك وحدة بين هذه المحاور الأربعة ، وأنها تفتقر إلى عنصر الترابط والانسجام ؛ ولكننا نعتقد ، بتصورنا الشامل لجهاد الإمام، وإدراكنا الكامل لأعماله، أن المتمعن فى هذه المحاور لا يعزب عنه الخيط الذى ينتظمها ، والسلك الذى يجمع بينها ؛ فهى حلقات يأخذ بعضها ببعض ، لتكون سلسلة حاصر بها ابن باديس جيوشَ الباطل وجحافلَ الضلال ؛ ورسخ بها مقوماتِ أمة كانت فى طريقها إلى الزوال ، ووضح بها الكريمَ من الخصال ، ودعا بها إلى الجاد من الفعال .

ونزيد الأمر توضيحا للمستزيد ، فنقول :

إذا كانت المعركة العسكرية لا تخاض بسلاح واحد ، فكذلك المعركة الفكرية ؛ فإنها تتطلب ، لضمان النصر فيها ، ذكاء حادا ، وبصيرة نفاذة ، وأساليب علمية متنوعة ، وقدرة على ضبط المراحل ، وإعداد ما يناسبها من مختلف الوسائل .

لقد حدد ابن باديس هدفه بدقة ، واختار منهاجه بعناية ، بعد أن درس الميدان ، وقدر جميع أبعاده ، فأدرك أن الأمر « فصل وما هو بالهزل » ، وأن المعركة ستكون شرسة ، وأن الخصم لن يتساهل ، بعد أن كاد يصل إلى أهدافه ، بما وضع من مخططات ، وسخر من طاقات لتشويه الدين ، وترهيب النفوس،

وتفريق السبل ، وتشتيت الصفوف ، لولا بقية مما ترك الآباء من بأس شديد ، واستعصاء على كل دخيل ؛ فبدأ ابن باديس يحيي ما مات أو شُوه من مبادىء ، ويقوي ما وهَن من أسس ، لا تكون الأمة أمة إلا بها ، ويصحح العقيدة ، ويثبت الأفئدة ، ويوحد السبل ، ويوجه الطاقات وجهة سليمة ؛ وقد استعمل من أجل ذلك كل نوع من القول ، وكل ضرب من الكتابة : مقال ـ خطبة ـ فتوى ـ قصة ـ نشيد ...

فالفتاوى مثلا ، وقد يحسبها بعضهم شيئا هينا ، كانت أحَدَ أسلحة ابن باديس في هذه المعركة الضارية ؛ فبالإضافة إلى بعدها الديني ، كانت وسيلة وجه بها ابن باديس الجزائريين إلى القرآن الكريم ، ووصلهم عن طريقها بالسنة النبوية الشريفة ، وصرفهم بها عن البدع التى أدخلت على الدين ، والمنكرات التى ارتكبت باسمه ؛ ومن أجل ذلك لم يتردد فى معارضة أستاذ له يقدره كل التقدير ، وينزله من نفسه المكان الذى هو به جدير . وقد آزره فى تلك المعارضة رفيقه فى الإصلاح الشيخ محمد البشير الابراهيمى .

غير أن تلك المعارضة العلمية ، ما كانت لتشكك فى قيمة أستاذنا الإمام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ، وهو ما عبر عنه الشيخ الإبراهيمى ، نفسه ، بعد سنوات فى مقال عنوانه : « الرجال أعمال » (2) .

كما واجه ابن باديس وصحبه ـ بهذه الفتاوى ـ خطة استعمارية ماكرة ، وهى قضية التجنيس التى استهدفت نسخ الاصول ، ومسخ العقول ؛ ففشلت الخطة ، وحاق المكر السيِّء بأهله ؛ فتجرع الاستعمار ، ومن ألقى إليه بالمودة ، مرارة الخيبة ، وقوى فى نفس ابن باديس الأمل ، فضاعف العمل .

---

(2) عيون البصائر ، ص 619 .

ونود أن ننبه القارىء إلى أننا أدرجنا فى « قسم الفتاوى » مقالات قد لا ينطبق عليها المعنى الفقهي للفتوى ، منها :

1) رد على مقال للكاتب (سلامة موسى) .

2) حـول الحـج .

3) عن جمعية الحرمين الشريفين .

وقد ألجأنا إلى ذلك أمران :

1 ـ انها لا تدخل فيما نشر إلى الآن من تراث ابن باديس ، ولا فيما سننشره من موضوعات .

2 ـ اننا توسعنا فى فهم الفتوى ، اعتمادا على ما أدركناه من مرامي ابن باديس .

وهناك ضرب آخر من الكتابة اختار له ابن باديس عنوانا هو : « رجال السلف ونساؤه » ، قصد به تثبيت أفئدة الجزائريين ليصبروا على المحنة ، كما صبر أولو العزم من السلف ، وليتمسكوا بما يريد العدو سلبه منهم ؛ وكانت النتيجة أن حييت المبادىء السامية فى النفوس ، وقويت العزائم فى القلوب ، وصلبت الإرادات فى الصدور .

وفى مجال القصص ، كان ابن باديس يرمي إلى إنهاض الهمم ، وإيقاظ النائمين ، وتذكير الساهين ، وتشجيع المترددين ؛ فكان يختار لها عناوين تؤدي الغرض ، وتحقق الغاية :

« لا أثر للعبودية مع الأحرار » ، « السر كل السر فى الأرواح » ، « أباة الضيم » ، « من خان قوما فليس منهم » ، « الخنساء وبنوها » ...

وقد سلك فى سردها أسلوبا مشوقا ومؤثرا ، يشد القارىء إليها شدا ؛ فلا يتركها إلا بعد الإتيان عليها . فإذا وصل إلى نهاية القصة ، ثارت مشاعره سخطا على الظلم والظالمين ، وتأججت عزيمته لتحرير الوطن من كل معتد أثيم .

لقد آتت أعمال ابن باديس أكلَها بإذن ربها ؛ فما أن أتى أمر الله ، واندلعت الثورة التحريرية العظمى ، حتى اندفع هذا الشعب ؛ يركب الأخطار ، ويقتحم الأهوال ، ويتحمل المَشاق ، ويبذل المهج رخيصة فى سبيل دينه ووطنه ؛ مؤمنا بحقه فى الحياة ، معتمدا فى الوصول إليه على الله ؛ فكان ، بحق وصدق مثلما وصفه ابن باديس ، سنة 1937 م :

« ... يزمجر زمجرة العزيز المهان ، ويطالب مطالبة من يعرف له حقا ، لابد أن يُعطاه أو يأخُذَه » .

ولقد انتزع حقه فعلا ؛ وحقق النصر المبين الذى وعد الله به عباده المؤمنين الصادقين .

وها هى الجزائر العربية المسلمة ، قد أقامت اليوم ، والحمد لله ، دولة قوية ، أصلها ثابت وفرعها فى السماء ؛ تتحكم فى سياستها الداخلية والخارجية ، وتستغل خيرات أرضها لصالح شعبها ، الذى يزداد مع الأيام ، اعتزازا بثورته الماجدة ، وثقة بقيادته السياسية ، وتفاؤلا بمستقبل أفضل وأسعد ؛ مستمدا هذه الثقة مما تحققه مسيرتنا الإنمائية الشاملة من منجزات ، فى جميع الميادين : المادية والروحية والفكرية ؛ من ذلك هذه المصانع التى تبنى ، والمستشفيات التى تنشأ ، والمعاهد التى تشاد ، والسدود التى تقام ، والطرق التى تشق ، والمزارع التى تستصلح ؛ إلى جانب ما تقيم من مساجد ومدارس قرآنية ، ومعاهد لتكوين الإطارات الدينية ، ومراكز للثقافة الإسلامية .

وغير ذلك من المنجزات الضخمة ، التى توجها ، بروعة وجلال ، ذلكم الإنجاز الحضارى الأعظم ، الذى حققته ثورتنا فى عهد الاستقلال : ألا وهو جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، التى دشنها السيد الرئيس الشاذلي بن جديد ، رئيس الجمهورية الأمين العام لحزب جبهة التحرير الوطنى ، فى قسنطينة ـ مبعث النهضة العلمية الجزائرية الحديثة ـ يوم الأحد 19 محرم 1405 هـ (14 أكتوبر 1984 م) ؛ ذلك اليوم التاريخى المشهود ، الذى صادف يوم الأحد نفسه 13 ربيع الثانى 1357 هـ (12 جوان 1938 م) ؛ يوم احتفلت الجزائر كلها ، فى قسنطينة نفسها ، بوفود مثلت كل جهات القطر ، بمناسبة ختم ابن باديس تفسير القرآن الكريم تدريسا ... ولله فى أيامه أسرار وأسرار ...

☆ ☆ ☆

حقا ، إننا لسعداء أن نقدم هذا الجزء الثالث ، من مجموعة آثار الإمام ابن باديس ، التى تعبر ، أصدق تعبير ، عن جهاده الثابت ؛ وتقدم للناشئة الجزائرية والإسلامية الأسوة الصالحة من رجل « ... أحيا أمة تعاقبت عليها الأحداث والغير ، ودينا لابسته المحدثات والبدع ، ولسانا أكلته الرطانات الأجنبية ، وتاريخا غطى عليه النسيان ، ومجدا اضاعه ورثة السوء ، وفضائل قتلتها رذائل الغرب » (1) كما شهد بذلك ، نائبه فى عهده وخليفته ، فى رئاسة جمعية العلماء ، من بعده الشيخ محمد البشير الإبراهيمى وغيره من قادة الفكر الإسلامى والإصلاح الدينى فى المشرق وفى المغرب .

وستواصل الوزارة ، بإذن الله ، نشر بقية آثار ابن باديس، وآثار من آزروه فى جهاده المبارك ، من إخوانه العلماء الذين قال فى شأنهم : « لم تقم فى أمة إسلامية هيئة علمية منظمة تعلن

---

(1) عيون البصائر ، ص 619 .

الدعوة إعلانا عاما ، وتصمد للمقاومة ، غير مبالية بما يؤيد البدع والضلالات ، من سلطان ديني وسلطان دنيوي ، غير الأمة الجزائرية ؛ فكان من علمائها الأحرار المستقلين ، الذين لا يعيشون على الوظيفة ، أولئك الذين نهضوا بالدعوة الإصلاحية منذ بضع عشرة سنة ، وجاهدوا فيها لله وصابروا وأسسوا لها مؤسسة دينية : جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، حتى أصبحت الدعوة الإصلاحية ، والفضل والحمد لله ، ثابتة الأركان، مشيدة البنيان، باسقة الأفنان ، دانية الثمار ، وارفة الظلال — لا على الجزائر وحدها ؛ بل على الشمال الافريقى كله » (2) .

☆ ☆ ☆

هذا ، والله نسأل أن يوفقنا إلى نشر آثار جميع أسلافنا الميامين ، لصالح الوطن والدين .

فرحمة الله تعالى وبركاته على علمائنا العاملين ، وجعل مقامهم مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

عبد الرحمن شيبان

---

(2) الشهاب : ج 12 ، م 11 ، مارس 1936 .



القسم الأوّل

رِجَالُ السَّلَفِ وَنِسَاؤُه



« خير القرون قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » (حديث شريف) .

☆ ☆ ☆

وكل خير في اتباع من سلف
وكل شر في ابتداع من خلف

(من جوهر التوحيد)



رجال الإسلام ونساؤه (*)

ش: «هذا باب جديد فتحناه في «الشهاب» أردنا منه أن يطلع القراء على تراجم بعض رجالنا ونسائنا من سلفنا الصالح وما لهم من صفات أكسبهموها الإسلام؛ وما كان منهم من أعمال في سبيله؛ ففي ذلك ما يثبت القلوب ويعين على التهذب، ويبعث على القدوة، وينفخ روح الحياة، وما حيي خلفٌ إلا بحياة سلف وما حياة السلف إلا بحياة تاريخهم ودوام ذكرهم، ولسنا هنا لتتبع الأخبار واستيعاب الحوادث، وانما نقتصر على ما يحصل أصل القصد، ويفي لأكثر القراء بالغرض ويبعث همم الطلاب إلى التوسع في هذا العلم، ويبعث رغباتهم إلى الازدياد منه، وليس هذا الباب مقصوراً على قلم تحرير المجلة فلكل كاتب أن يعرض فيه ما عنده من حديث عن رجل أو امرأة من أبناء أو بنات الاسلام. واليوم لما جاء ذكر عبادة بن الصامت وزوجه أم حرام في صدر هذا الجزء فانا رأينا لهذه المناسبة افتتاح هذا الباب بذكرهما. رضي الله عنهما.

(*) بدأ الامام ينشر تحت هذا العنوان ثم عدل عنه الى «رجال السلف ونساؤه»



ام حرام بنت ملحان

النجارية الانصارية خالة أنس بن مالك وأخت أم سليم وزوجة عبادة بن الصامت

كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يكرمها ويزورها في بيتها وما كان ذلك إلا لكمال في دينها وصلاحها وقد ظهر أثر هذا الدين والصلاح في مبادرتها لطلب الدعاء من النبي ﷺ أن تكون من الغزاة في البحر لما ذكر لها ما عرض عليه في نومه من أناس أمته كالملوك على الاسرة غزاة في البحر وعودها إلى الطلب لما ذكر لها مثلهم في المرة الثانية حتى قال لها أنت من الأولين.

امرأة تسمع بالغزو وفي البحر فلا يهولها الغزو وما فيه من مشقة وما وراءه من القتل، ولا البحر وأهواله وهي امرأة لم تعتد ركوبه ولا تعرف عنه الا أنه خلق عظيم ذو هول كبير وخطر شديد قريب، لا يقف أمامها لا هذا ولا ذاك وانما يقف أمامها ويستولي على نفسها ويحيط برغبتها منزلة الشهادة وما فيها من الأجر والمثوبة وما وراءها من الخير والكرامة فتحرص ذلك الحرص وتؤكد الطلب وتعود إليه مرة بعد أخرى، هذا ـ والله ـ الإيمان حقاً، والرغبة في العمل الصالح صدقاً وبذل أعز ما عند الإنسان لخالقه في طلب مرضاته.

صدقت أم حرام قولها بفعلها فلما خرج زوجها مع معاوية لغزو جزيرة قبرص خرجت معه وماتت في تلك المغزاة لما خرجت من البحر ونزلت أرض الجزيرة ودفنت بها وذكر هشام بن عمار الخطيب المقرني الثقة أنه رأى قبرها بقبرص ووقف عليه. فرحمة الله عليها من امرأة صالحة ومومنة صادقة في نساء المسلمين[1].

---

(1) ش: ج 1، م 10، غرة رمضان 1352 هـ جانفي 1934 م.

عبادة بن الصامت

انصاري خزرجي من السابقين الأولين، بايع ليلة العقبة وعينه النبي صلى الله عليه وآله وسلم بها نقيبا، شهد بدرا وجميع المشاهد بعدها.

ممن جمع القرءان في عهد النبي ﷺ وروى عنه ﷺ كثيراً فكان بما حفظ من كتاب الله وروي من حديث رسول الله ﷺ فقيهاً في دين الله ـ ولا والله ما فقه الاسلام ممن لم يفقه الكتاب والسنة وما كان فقه الصحابة والتابعين وأيمة الدين إلا بالفقه فيهما ـ ولفقهه بعثه عمر (ض) ومعاذا وأبا الدرداء إلى أهل الشام يعلمونهم القرءان ويفقهونهم ـ وهكذا كانوا يبعثون الفقهاء لتعليم الناس أمر دينهم وتفقيههم فيه، وهو ما أخذت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين على نفسها القيام به، وهو ما قامت النواحي التي تستغل جهل المسلمين تقاومها من أجله ـ فأقام عبادة بحمص ثم بفلسطين وبها مات سنة أربع وثلاثين وهو ابن اثنين وسبعين سنة.

كان عبادة قوياً في دين الله لا تأخذه في الحق لومة لائم فكان له مع معاوية ـ وهو أمير على الشام ـ مواقف في الإنكار عليه وكان معاوية يعترف له بالتقدم عليه بالفقه ثم تبرم منه فشكاه إلى عمر (ض) وارتحل إلى المدينة فرده عمر إلى الشام وقال له: قبح الله أرضاً لست فيها وأمثالك وكتب إلى معاوية ان لا إمرة لك على عبادة.

كان صلباً في دينه يوالي في الله ويعادي فيه: كان يهود بني قينقاع حلفاءه فلما رأى عداوتهم للاسلام وتربصهم بأهله جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال له ان لي موالي من اليهود كثيرا عددهم وأني أبرأ إلى الله ورسوله من ولايتهم وأتولى الله ورسوله. وكان لعبد الله بن أبي رأس المنافقين من الولاية فيهم مثل ما لعبادة فبقي على

ولايتهم واعتذر من بقائهم على ولائهم بأنه يخاف الدوائر. وفيها نزل قوله تعالى «**يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين**» ـ اقرأ مع هذه الآية قوله تعالى «**لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين. إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون**» فكان عبادة بن الصامت أول من سن سنة رفض ولاية مواليه لما رأى منهم الشر وتولى الله ورسوله. ومن سن سنة حسنة في الإسلام كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة. فرحمه الله رحمة الهادين المهتدين(1).

(1) ش : ج 1 ، م 10 ـ رمضان 1352 هـ ـ جانفي 1934 .

سعد بن الربيع

رضي الله عنه

انصاري خزرجي شهد بيعة العقبة الأولى والثانية أحد النقباء الاثني عشر شهد بدرا واستشهد يوم أحد.

كرم أخوته ومراعاته لحقوقها: لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة آخى بين أصحابه من المهاجرين والأنصار لتقوية الرابطة العامة بالرابطة الخاصة فآخى بين سعد بن الربيع وعبد الرحمن بن عوف . وكان سعد من أكثر الأنصار مالاً وكان متزوجاً امرأتين فرأى من حق هذه الأخوة بينه وبين أخيه المهاجري أن يشاطره ما عنده فقال لعبد الرحمن «اني أكثر الأنصار مالاً فأقسم لك نصف مالي وانظر أيَّ زوجتي هويت نزلت لك عنها فإذا حلت تزوجتها»، فقال له عبد الرحمن «بارك الله لك في أهلك ومالك دلُّوني على السوق»[1] فلم يكتف سعد بالنزول لأخيه عن شطر ماله حتى أراد النزول له عن إحدى زوجتيه لأنه يعلم أن الأخوة ليست وصفاً يكفي أن يثبت بالألسنة بل هي رابطة وعقيدة لا تحققها إلا الأفعال وهذه هي حقيقة الأخوة خاصة كانت أو عامة فالمسلم الذي يشعر بأخوة الإسلام شعوراً صحيحاً ويعتقدها اعتقاداً صادقاً هو الذي يشاطر المسلمين في سرائهم وضرائهم ويشركهم معه فيما عنده من خير بقدر ما استطاع فاما من لم يهتم بأمورهم وقبض يده عن مواساتهم وشح بالفرض والمستحب من الصدقة عليهم فهو كاذب في أُخُوته جاهل بحقيقة الأخوة وقد قال الله تعالى: «**فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم**

---

(1) البخاري.

في الدين» وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ويكره له ما يكره لها».

صدق ما عاهد الله عليه، كان يوم أحُد يوم َبلاء وتمحيص وكان هذا الصحابي من أبطال ذلك اليوم وممن أبلوا فيه البلاء الحسن وجاهد حتى سقط مطعوناً باثنتي عشرة طعنة، وتفقده رسول الله ﷺ ولم يره في الناس فقال من يأتني بخبر سعد بن الربيع فقال رجل ـ هو ابي ابن كعب ـ أنا، فجعل يطوف بين القتلى، فقال له سعد بن الربيع ما شأنك فقال الرجل بعثني رسول الله لآتيه بخبرك، قال «اذهب إليه فاقرأه مني السلام وأخبره انني طعنت اثنتي عشرة طعنة واني أنقذت مقاتلي، وأخبر قومك انهم لا عذر لهم عند الله إنْ قتل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وواحد منهم حي[1].

فالنبي ﷺ لم ينسه ما هو فيه من مصاب عظيم في ذلك اليوم ما عليه من تفقد أصحابه وهذا السيد الجليل لم ينسه ما فيه من ألم الجراح وحالة الاحتضار من إبلاغ سلامه للنبي ﷺ ومن النصح لقومه بما عليهم من حفظ رسول الله ﷺ إلى آخر واحد منهم وفاء بما عاهدوه عليه ليلة العقبة.

فالمسلم لا ينسيه ألم يصيبه في سبيل الله ما بقي عليه من الواجبات لدينه ولا يترك النصح حتى في أشد الأحوال ويبذل في سبيل الوفاء على ما عاهد الله عليه نفسه راضياً مغتبطاً.

هكذا كان الصحابة يبذلون في حفظ النبي ﷺ أرواحهم والتابعون لهم من المسلمين هم الذين يبذلون في حفظ دينه من بعده كل عزيز فحياته ﷺ بين أصحابه ببقائه فيهم سالماً وحياته ﷺ في أمته ببقاء دينه فيهم قائماً.

والحمد لله انه لا تزال طائفة قائمة على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون[2].

---

(1) الموطأ.

(2) ش: ج 2، م 10، غرة شوال 1352 هـ جانفي 1934 م.

الحجاج بن علاط

رضي الله عنه

نسبه: الحجاج بن علاط (ككتاب) السلمي.

اسلامه ووفاته: أسلم عام خيبر وتوفي في أول خلافة عمر (ض).

مسكنه وإقامته: أقام بالمدينة ثم نزل الشام فسكن حمص.

حاله في الجاهلية: كان تاجراً كثير المال وكان يستخرج الذهب من معادن بني سليم.

حاله في الإسلام: هو أول من بعث إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بصدقة من معدن بني سليم فما دخل الإسلام قلبه حتى خرج منه ذلك الشح الذي يلازم في الغالب أرباب الأموال فبادر بإرسال صدقة معدنه طائعاً طيبة بها نفسه وهكذا يفعل الإيمان عندما تخالط بشاشته القلوب.

كتب عمر بن الخطاب (ض) إلى أمراء الآفاق أن يبعثوا إليه من كل عمل رجلاً من صالحيها فبعثوا إليه أربعة من البصرة والكوفة والشام ومصر. فاتفق أن الأربعة من بني سليم وهم الحجاج بن علاط، وزيد بن الأخنس، ومجاشع بن مسعود، وأبو الأعور.

فكان الحجاج أحد هؤلاء الأربعة المشهود لهم من عموم أهل أقطارهم بالصلاح.

خدعه لقريش حتى نجا منهم بماله: لما فتحت خيبر وكان هو قد أسلم خشي أن تسمع قريش بإسلامه فتستولى على ماله الذى كان متفرقاً عند تجارها وغيرهم

فاستأذن رسول الله ﷺ أن يذهب إلى مكة كاتماً إسلامه ليعمل على تخليص ماله ونجاته به من قريش فأذن له النبي ﷺ ورأى أنه لا بد أن يحتاج في خداع قريش إلى شيء من التقول بخلاف الواقع فقال للنبي ﷺ: «انه لا بد لي - يا رسول الله - من أن أقول» قال: «قل».

فخرج حتى أتى قريشاً فسألوه عن النبي ﷺ وأصحابه فقال لهم هزم شر هزيمة وقتل أصحابه شر قتل وأخذ أسيراً وقال أهل خيبر لا نقتله حتى نبعثه إلى أهل مكة فيقتلوه بما قتل من رجالهم فصدقته قريش فقال لهم انه يريد أن يعجل إلى خيبر قبل أن يسبقه التجار إليها فأعانوه على جمع ماله حتى نجا به وانطلت عليهم حيلته.

وكان قبل أن يفارق جاءه العباس يسأله عما جاء به من الخبر فأخبره بالحقيقة على وجهها واستكتمه حتى يمضي على خروجه من مكة ثلاثة أيام فلما مضت الثلاثة الأيام لبس العباس حلته وجاء فطاف بالكعبة فلما رأته قريش على تلك الحالة الطيبة قالوا له هذا والله التجلد على المصيبة يعنون ما جاءهم به الحجاج من الخبر عن النبي ﷺ فأخبرهم العباس بجلية الأمر وان النبي ﷺ افتتح خيبر وتزوج ببنت ملكهم وان الحجاج أخذ أمواله ليلحق به فاشتد عليهم ذلك وبلغ منهم المبلغ العظيم من الأسف والحنق.

وحديث الحجاج هذا قال الإمام ابن عبد البر: «صحيح من رواية ثابت البناني وغيره عن أنس» ورواه من الائمة أحمد وغيره.

الأسوة: (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة):

أذن له النبي ﷺ في التقول والإخبار بخلاف الواقع والقول عنه ﷺ ما لا يجوز أن يقال عليه من الهزيمة والأسر. لأن ذلك كله من خدع الحرب. لأجل التوصل إلى افتكاك مال الحجاج منهم حتى لا يتقووا به. وإدخال الغيظ عليهم وإحداث الوَهَن في قلوبهم.

فكان ذلك منه ﷺ شرعا عاما وحكما باقيا في مثل تلك الحال مقدرا بذلك المقدار(1).

(1) ش: ج 3، م 10، غرة ذي القعدة 1352 هـ فيفري 1934 م.

أبو ذرٍ الغِفَاري

رضي الله عنه

(1)

كيف كان اسلامه

من السابقين الأولين وقصة اسلامه كما جاءت في صحيح البخاري ـ مع الشرح ـ في مواضع هكذا:

«بلغ أبا ذر مبعث النبي ﷺ فقال لأخيه أنيس اركب إلى هذا الوادي ـ يعني مكة ـ فاعلم لي عِلْمَ هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي يأتيه الخبر من السماء فانطلق حتى قدم مكة وسمع من قول النبي ﷺ ثم رجع إلى أبي ذر فقال له رأيته يأمر بمكارم الأخلاق وسمعت منه كلاماً ما هو بالشعر فقال أبو ذر ما شفيتني مما أردت فتزود وحمل شنَّة من ماء وجراباً من طعام وعصا وسار حتى قدم مكة فأتى المسجد فالتمس النبي ﷺ وهو لا يعرفه وكره أن يسأل عنه حتى إذا أدركه بعض الليل فاضطجع فرآه علي بن أبي طالب (ض) فعرف أنه غريب فقال له كان الرجل غريب فقال نعم فقال له علي فانطلق معي إلى المنزل فانطلق معه لا يسأل أحدهما صاحبه عن شيء فبات عنده فلما أصبح عاد إلى المسجد فقضى اليوم الثاني كالأول ورآه علي واستصحبه إلى منزله فلما أصبح عاد إلى المسجد ومضي عليه اليوم كسابقيه واستصحبه علي معه كالسابق وسأله ألا تحدثني ما الذي أقدمك قال أبو ذر ان أعطيتني عهدا وميثاقا لترشدني فعلت فأعطاه علي العهد والميثاق فأخبره بالذي أقدمه قال علي فانه حق وهو رسول الله ﷺ فإذا أصبحت فاتبعني فاني ان رأيت شيئاً

أخاف منه عليك قمت كأنني أريق الماء فان مضيت فاتبعني حتى تدخل مدخلي فانطلق أبو ذر يقفو أثر علي حتى دخل علي على النبي ﷺ فدخل أبو ذر فسمع من قوله ﷺ وأسلم مكانه فقال النبي ﷺ اكتم هذا الأمر وارجع إلى قومك فاخبرهم فإذا بلغك ظهورنا فأقبلْ فقال ابو ذر والذي نفسي بيده لأصرخن بها بين ظهرانيهم فخرج حتى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فقامت إليه قريش فضربوه ضرب الموت حتي اضجعوه على الأرض وأتى العباس فأكبَّ عليه وقال لقريش ويلكم ألستم تعلمون انه من غفار وان طريق تجارتكم إلى الشام عليهم فأنقذه منهم ثم عاد أبو ذر من الغد إلى مثلها فثاروا عليه وضربوه فأكب عليه العباس وأنقذه منهم كالأول فرجع أبو ذر إلى قومه».

كانت المرحلة الأولى من مراحل الدعوة فردية سرية وما اعلنت الدعوة للعموم إلا بعد نزول قوله تعالى: **فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ** وكان ذلك في السنة الثالثة ولكنها مع خفيتها كان الخبر يتسرب خارج مكة حتى بلغ ابا ذر فارسل أخاه ولم يكفه الخبر عن العيان فقدم بنفسه وأبى أن يسأل عن النبي ﷺ أحداً من قريش لأنهم كانوا يصدون الناس عنه بالكذب عليه والتزهيد فيه وبالاذاية لمن يرون منه تصديقه وكان من صنع الله له ـ ومن تاقت نفسه لمعرفة الحق أُعِينَ عليه ـ ان ساق إليه علياً فاستضافه على عادة العرب في استضافة الغريب فكان علي دليله إلى النبي ﷺ وحارسه في طريق الوصول إليه من أن تصيبه قريش بأذى كما كان ابو ذر متستراً خوفاً على نفسه. فلما دخل على النبي ﷺ وشاهد وسمع منه ما حصل له به اليقين انه رسول الله بادر بالاسلام وأمره النبي ﷺ بكتمان أمره حتى لا تؤذيه قريش وبالرجوع إلى قومه ليخبرهم لعلهم يهتدون. وفي هذا دليل على أن من كان في مثل تلك الحال من خوف وعدم القدرة على العدو يجوز له أن يتكتم ودليل على أنَّ من هداه الله كان حقاً عليه أن يسعى في هداية قومه.

لكن أبا ذر الذي كان متكتماً خائفاً من يوم قدومه إلى مكة إلى ساعة إسلامه أبى بعد إسلامه أن يبقى متكتماً وأصبح لا يخاف قريشاً ولا يبالي بما يلحقه منها من أذى وأقسم أن يعلن إسلامه وسط مجامع قريش وأقره النبي ﷺ على ذلك وفيه دليل على من أراد أن يتحمل الأذى ويعرض نفسه للهلاك في سبيل إعلان

كلمة الحق وإظهار قوة الايمان وإدخال الرعب والغيظ على قلب العدو كان ذلك حسنا من فعله. وبر أبو ذر في قسمه فقصد إلى المسجد حيث نوادي قريش ومجتمع الملأ منهم وصاح بكلمتي الشهادة. صِبْغَةَ ٱللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللهِ صِبْغَة في لحظة تبدل ابو ذر من الخائف المتكتم إلى المعلن الذي لا يبالي بالموت، ولقد كادت قريش تقتله لولا أن أنقذه منها العباس بما خوفها به على أموالها من قبيلة غفار ولكن أبا ذر القوي الايمان الصادق الإسلام أراد أن يعود إلى ارغامهم وإغاظتهم بعد ما ذاق وتحقق من إذايتهم ليعلمهم أنه أقدم على ما كان أقدم عليه عالماً بإذايتهم غير مبال بها فعاد إلى الإعلان وعادوا إلى ضربه وعاد العباس إلى إنقاذه فرجع بعدئذ إلى قومه ـ وقد استنار قلبه بالإيمان واشتفى من قريش ـ خير قافل بخير هدية فدعاهم إلى الإسلام فأسلم على يده أخوه وأمه وكثير من قومه[1].

(1) ش: ج 1. م 11. غرة محرم 1354 هـ ابريل 1935 م.

(2)

علمه :

العلم ثمرة النظر الصحيح والفهم الثاقب ودوام التحصيل. وقد كان حظ أبي ذرّ موفوراً من هذه كلها في الجاهلية قبل أن يلقى النبي ﷺ صلّى لله وتوجه إليه وحده روى مسلم في صحيحه[1] عن عبد الله بن الصامت عند قوله: «وقد صليت يا ابن أخي قبل أن ألقى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثلاث سنين قلت: لمن قال: لله قلت فأين تَوَجَّهُ؟قال: أتوجه حيث يوجهني ربي. أصلي عشاء حتى إذا كان من آخر الليل ألقيت (انطرحت) كأني خِفَاءٌ (الغطاء من كبساء أو غيره من الثياب) حتى تعلوني الشمس» فالنظر الصحيح والفهم الثاقب هما أدياه ـ باذن الله ـ إلى هذا الإيمان والتوحيد والعبادة في تلك الجاهلية الجهلاء، وساقاه إلى البحث عن النبي ﷺ وسرعة الإيمان به في السابقين الأولين. أما مداومته للتحصيل فانه صحب النبي ﷺ من يوم قدم المدينة ـ وكان قدومه بعد الخندق إلى وفاته ﷺ فكان[2] يوازي ابن مسعود في العلم[3] وقال فيه علي بن أبي طالب (رضي الله عنه): «أبو ذر وعاء مُلِيء علما ثم أوكئ (رُبِط فَمُ الوِعاء بالوِكاء وهو الرباط) عليه».

---

(1) كتاب الفضائل.

(2) الاصابة.

(3) الاصابة عن سيرة أبي داوود.

كان أبو ذر يأخذ نفسه بأعلى درجات الزهد والتقلل من الدنيا ويريد حمل الناس على ذلك بشدة في الحق وصراحة فيه فلم يستطع الناس ذلك وما كانوا ليستطيعوه فكانوا يبتعدون منه وكان هو يحب الانفراد عنهم فلم يتأت نشر علمه فيهم. وهذا هو الذي عناه علي (ض) بقوله: «ثم أوكئ عليه».

زهده وورعه

خرج من الدنيا ولم ينشب (يتعلق) منها بشيء وكان يتحرى عيشة النبي ﷺ فلا يمسك من المال ما يزيد على ما لا بد له منه لِقُوتِه وقوت عياله[1] شبهه النبي ﷺ بعيسى عليه السلام وقال فيه يمشي في الأرض بزهد عيسى بن مريم، وهذا يدل على أن المنزلة التي كان يلتزمها ليست مما يستطيعه جميع الناس ولا مما يكون تكليفاً لازماً عاماً لهم.

صدقه وصدعه بالحق

[2]قال، فيه النبي ﷺ «ما أظلّت الخضراء (السماء) ولا أقلّت (رَفَعَت) الغبراءَ (الأرض) من ذي لهجة (لسان) أصدق ولا أوفى من أبي ذر» فكان كما وصفه النبي ﷺ يقول الحق على الوفاء والتمام صراحة دون تورية ولا تعريض ولا مسامحة لشيء فيه مع أي أحد من الناس ولو استاءوا وغضبوا وقد كان هذا حاله من يوم إسلامه إلى آخر أيامه. وقد ذكرنا في الجزء الماضي إعلانه بإسلامه بين ظهراني المشركين وكانت مواقفه بعد ذلك مع معاوية (ض) وغيره في مسئلة المال كما سيأتي ان شاء الله مما لم يراع فيه خليفة ولا أميراً من الصحابة رضي الله عن جميعهم ورزقنا الاقتداء بهم[3].

(1) الترمذي في كتاب الفضائل.

(2) الترمذي.

(3) ش: ج 2، م 11، غرة صفر 1354 هـ مارس 1935 م.

(3)

تربيته

تثبت الصحبة بمطلق الاجتماع بالنبي ﷺ مع الايمان به والموت على ذلك ولكن خواص أصحابه هم الذين لازموه وتفقهوا عليه وتربوا تحت رغايته وهؤلاء هم الذين ثبتوا على الاسلام لما ارتدت العرب بعد موته وثبت الله بهم الاسلام وكان ذلك ـ بإذن الله ـ من آثار الفقه في الدين والتربية النبوية.

كان أبو ذر ممن لازموا النبي ﷺ وتفقهوا وتربوا وظهرت آثار تلك التربية في حياته بعد النبي ﷺ.

كان النبي ﷺ يعرف أخلاق أصحابه ونفسياتهم ومقدار استعدادهم فكان يعالج كل قسم بعلاجه ويوجهه في الحياة حسب استعداده وقد تختلف أجوبته في بيان المُقَدَّم من أشياء بحسب حال السائل وحاجته وقد يحذر أحداً من شيء ويقدم غيره إليه حسب قدره هذا عليه وضعف ذاك عنه. وفي تربيته لأبي ذر مِمَّا سنذكره ما يبين ذلك:

كان في أبي ذر شدة وكان لا يتسع صدره لما يرى مما يكره فكان[1] يحب الوحدة والانفراد. وأول ما كان من شدته في أول أمره انه ساب رجلاً من الموالي ـ ذكر بعضهم أنه بلال ـ فعيره بأمه وقال له يا بن السوداء فقال له النبي ﷺ: [2] «يا أبا ذر أعيرته بأمه انك امرؤ فيك جاهلية» فانكر عليه تعييره بأمه وبين له أن فيه خلقاً

---

(1) محبته للوحدة قالها ابن عباس. الطبري ج 5. ص 67.

(2) البخاري ومسلم

من أخلاق الجاهلية وهو التعظم بالانساب ثم بين له أدب الاسلام دين الأخوة والعدل والإحسان الذي لا يفرق بين الأجناس ولا يفضل أحداً على أحد إلا بتقوى الله فقال ﷺ له[1] «إخوانكم خَوَلُكم (خدمكم) جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم» فتربى أبو ذر بهذه التربية النبوية فلم تبق له شدة إلا في الحق وكان يعامل مملوكه بما ندبه به النبي ﷺ فكان يلبسه مثل لباسه فلقيه المغرُورُ بالربَذة وعليه حلة وعلى غلامه حلة فسأله عن ذلك إذ العادة جارية بأن لباس الغلام دون لباس مولاه فأجابه أبو ذر بالحديث المتقدم ليبين له أنه عامل بالوصاية النبوية.

كان أبو ذر شديداً في الحق وكان من مقتضى شدته أن لا يتسع صدره لما يرى مما يكره فكان بهذا لا يستطيع معاشرة الناس ولا معاملتهم إذ لا بد أن يكون في الناس ما لا يرضيه منهم فهو لهذا يحب الانفراد عنهم وهو لهذا وذاك ضعيف عن القيام بالحكم بين الناس وعن الولاية على المال والرعاية للأيتام. فلما قال النبي ﷺ ألا تستعملني[2] قال له النبي ﷺ «يا أبا ذر انك ضعيف وانها أمانة وانها يوم القيامة خزي وندامة الا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها» فحذره من الإمارة وبين له أنه ضعيف عنها فإن صدره لا يتسع لما يرى من الخصوم ولَدَدَهم وتغالبهم بالحق وبالباطل. وقال له النبي ﷺ مرة أخرى: «يا أبا ذر اني أراك ضعيفاً واني أحب لك ما أحب لنفسي لا تأمَّرَنَّ على اثنين ولا تَوَلَّيَنَّ مال يَتيم» فنهاه عن أقل الامارة.الامارة على اثنين وزاد فنهاه عن ولاية مال اليتيم إذ ولاية المال تقتضي حفظه وتثميره وذلك يجر إلى المعاملة والخلطة وهو ضعيف بخلقه عنها وعَنَى ﷺ بقوله «اني أحب لك ما أحب لنفسي» ما يحبه لنفسه من جلب النفع ودفع الضر لا عين ما نهاه عنه بسبب ضعفه.

هكذا تربى أبو ذر وبهذه التربية النبوية المراعَى فيها طبعه وحاله فكان بعيداً عن الإمارة وما إليها زاهداً في الدنيا زهدا أبعده عن جميع أسبابها وأبنائها حتى لقي الله، رحمه الله[3]

---

(1) بقية الحديث المتقدم.

(2) رواه مسلم.

(3) ش: ج 3، م 11، غرة ربيع الأول 1354 هـ جوان 1935 م.

(4)

مذهبه في المال

أوجب الله الزكاة وجوباً عينياً على من وجدت لديه أسبابها وتوفرت فيه شروطها فهي الحق الثابت في الأموال المقدر المعلوم وفي المال حقوق أخرى للقيام بالمصالح العامة كفك الأسير وتجهيز الميت وغير ذلك فإذا لم يتول ذلك بعض الناس ليسقط الطلب عن جميعهم تعين عليهم كلهم أن يعطوا كل بحسب ما عنده لتحصيل ذلك الواجب على جماعتهم فهذا الحق الثابت في المال ليس مقدراً لأنه يختلف باختلاف الأحوال.

وقد كان معلوماً بنقل التواتر واجماع أئمة الأمصار أن النبي ﷺ انما كان يأخذ جزءاً من المال ويترك الباقي لصاحبه. وقد صح عنه قوله ﷺ «ليس فيما دون خمس أوَاقٍ صَدَقَةٌ» أي زكاة.

لكن[1] أبا ذر كان يرى أنه لا يجوز ادخار الذهب والفضة بعد أداء زكاتها ويحتج على ذلك بظاهر قوله تعالى **«والذين يَكْنِزون الذهَبَ والفضة ولا يُنفقونها في سبيل الله فَبَشِّرْهُمْ بعذابٍ أليمٍ يومَ يُحْمى عليها في نارِ جهنم فتُكوى بها جباهُهُم وجُنوبهم وظُهُورهم هذا ما كَنَزْتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون»** وبقوله[2]

(1) انظر أحكام الجصاص في تفسير الآية.

(2) مسلم

(ﷺ) له «ما يُسرني أنَّ لي أحُدا ذهباً تأتي على ثالثة (أي ليلة) وعندي منه دينارٌ الا دينارٌ أرصده لدين عليَّ». وبأحاديث أخرى في معنى هذا.

جواب الائمة عن استدلاله

لما جاءت النصوص الصحيحة الصريحة بأن الأخذ انما يكون لبعض الأموال وجب رد الآية المحتملة إليها. فقوله تعالى «**ولا ينفقونها**» معناه ولا ينفقونها كلها وهؤلاء هم الذين لم يعطوا شيئاً منها وهم مانعو الزكاة فلا تصدق الآية على الذين انفقوا بعضها وهم المزكون. وأما الأحاديث فهي محمولة على الترغيب في البذل وهي حالة فضل لا تجب على الناس ولو وجبت عليهم لما استطاعوا. والواجب هو الذي يعم وأما الفضل فان الناس يرغبون فيه ويأتي كل منهم بما استطاع وهم في ذلك متفاوتون وقد قبل النبي ﷺ من أبي بكر (ض) التصدق بجميع ماله ورد على من أراد التصدق بمقدار بيضة من ذهب هي كل ما يملك ـ صدقته بجميع ما يملك ونهي عن ذلك[1] فأصاب أبو ذر فيما اختاره لنفسه من الزهد وعدم الادخار ولكنه أخطأ فيما أراد من حمل الناس على حالة فضل لم يوجبها الله عليهم ولن يستطيعوها.

اعلانه رأيه واثارته الفقراء

كان أبو ذر يعلن برأيه في مجامع الناس بالشام ويندد بالأغنياء غير مكتف منهم بإخراج الزكاة ويقول[2] : «يا معشر الأغنياء واسوا الفقراء. بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاوٍ من نار تكوي بها جباههم وجنوبهم وظهورهم»[3] فما زال حتى وَلِعَ الفقراء بمثل ذلك وأوجبوه على الأغنياء وحتى شكا الأغنياء لمعاوية ـ وهو أمير الشام من طرف عثمان (ض) ـ ما يلقونه من الناس».

ولو لم يبادر عثمان (ض) باستقدام أبي ذر (ض) إلى المدينة لاتسع نطاق الفتنة بالشام.

---

(1) سننا أبي داوود في كتاب الزكاة.

(2) و (3) الطبري ج 5، ص 66.

حرية النظر

قد خالف أبو ذر اجماع الصحابة بنظريته السابقة مع قيام الدليل القطعي من النقل المتواتر والنصوص القر نية الكثيرة المتضافرة على خلاف رأيه وكان خلافه هذا في مسألة من كبريات المسائل. ومع ذلك تركوا له حرية نظره ولم يلق منهم من أجلها أدنى ضغط ولا أقل تحقير فكانوا بذلك منفذين لما جاء به الاسلام من احترام الآراء وحرية النظر والتفكير.

النتيجة

فأبو ذر بمذهبه هذا في المال كان شاذاً بين الصحابة (ض) مخالفاً لإجماعهم ولم يتعرضوا له في نظره واجتهاده إلا عندما خشُوا من بثه الفتنة على الناس. وقد كان أبو ذر بمذهبه الشاذ هذا أول اشتراكي في المال من المسلمين في أول عصور الاسلام وان لم يعمل بمذهبه في سائر عصوره[1].

(1) ش: ج 4، غرة ربيع الثاني 1354 هـ جوليت 1935 م.

(5)

استقدام عثمان (ض) له من الشام

كان أبو ذر بالشام وكان معاوية أميراً بها لعثمان وكان أبو ذر يتكلم في المجامع ينكر على معاوية أن يقول مال الله يتهمه بأنه يريد أن يمحو عنه اسم المسلمين ليحتجنه دونهم ويندد بالأغنياء أن يقتنوا الأموال وحدثت بسبب ذلك فتنة من الفقراء على الاغنياء وأعضل الأمر على معاوية فكتب إلى عثمان يخبره بالحال ويشكو إليه أبا ذر فكتب إليه عثمان أن ابعث أبا ذر ووصاه بتزويده والرفق به فلما دخل على عثمان قال له يا أبا ذر ما لأهل الشام يشكون ذَرَبَك (حدة لسانك) فصارحه بما كان ينكره عليهم وعلى معاوية، فقال له عثمان: «يا أبا ذر علي أن أقضيَ ما عليّ، وآخذ ما على الرعية، ولا أجبرهم على الزهد، وأن أدعُوَهم إلى الاجتهاد والاقتصاد»(1).

فقه عثمان

في أسفار التاريخ كلمات كبيرة كثيرة لرجال سلفنا من الخلفاء والأمراء والقوّاد تدل على عظيم فقه في الدين وكبير علم بسياسة الأمة وتدبير شؤونها مما يجمع بين تفقيه في الدين وتعليم للحكم والتدبير. منها كلمة عثمان هذه لأبي ذر فقد بينت ما على الأمير في نفسه وما عليه في رعيته وانه لا يجوز حمل الرعية وجبرها على مالم توضع

(1) الطبري، ج 5، ص 66.

الفطرة العامة في البَشر من الكمالات الانسانية كعدم التوسع في اقتناء المباحات من الأموال. وانه انما على قادة الأمة أن يدْعوها إلى تلك الكمالات ويرغبوها فيها، فيرغبوها في الاجتهاد في العمل والاقتصاد في الاقتناء للأموال ـ في مسئلة أبي ذر ـ فبذلك يتربى الناس على العمل والاجتهاد فلا يمدون أعينهم لما في أيدي الناس ويتربون على البذل والسخاء فيما يحصلون من ثمرات كدهم فيجمعون بين العمل والغِنَى والسخاء.

والأمة التي تبني حياتها على هذه الأصول هي الأمة التي تترقي بجميع طبقاتها في ماديانها وروحياتها. فكلام هذا الامام العظيم المأخوذ من أصول الاسلام قانون عظيم في سياسة الأمم وتربيتها ومثل من يفقه هذا الفقه هو الذي يصلح لولاية أمر العامة. وأبو ذر ـ وان كان فقيها في الدين ـ فانه بطبعه الانفرادي ونفرته من الناس لم يكن ليفكر في هذا ولا ليتفطن له ولذا لم يكن صالحاً لشيء من الامارة. وقد قدمنا نصح النبي ﷺ له أن لا يتأمر على اثنين. فسبحان من قسم الأخلاق والأرزاق، والعلوم والفهوم، ثم أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ونوجه كلا لما هو أهل له وله مقدرة عليه.

فقهنا الله في ديننا وعرفنا بأقدارنا واستعملنا فيما نبلغ فيه إلى رضاه[1].

(1) ش: ج 5، م 11، غرة جمادى الأولى 1354 هـ أوت 1935 م.

(6)

خروجه إلى الرَّبَذَة

أدرك أبو ذر بعد قدومه على عثمان انه لا يستطيع مخالطة الناس فاستأذن عثمان في الخروج إلى الربذة فأذِن له أو أن عثمان قال له: «لو اعتزلت» عرض عليه ما رآه اصلح له فاختار الربذة وعلى كلتا الروايتين لم يأمره عثمان بالخروج حتى يقال فيه إنه قد نفاه كما يقوله المتجنون على عثمان رضي الله عنه.

خرج أبو ذر الربذة[1] فخط بها مسجدا واقطعه عثمان صِرمة من الابل وأعطاه مملوكين وأرسل إليه ان تعاهد المدينة حتى لا ترتد أعرابيا. وقد نُهوا عن التعرب بعد الهجرة لما في التبدي والانقطاع عن الجماعة ومشاهد العلم والدين من الجفوة.

تحذير

قد ابتلي عثمان بأنواع من البلايا منها ما ينقمه عليه قوم بالباطل فمن ذلك نقمتهم عليه نفيه أبا ذر وقد رأيت فيما ذكرنا أنه لم ينفه. ثم هبه نفاه بالنظر المصلحي

(1) الطبري، ج 5، ص 66.

كان ماذا؟[1] فقد روي أن عمر (ض) سجن ابن مسعود في نفر من الصحابة سنة بالمدينة حتى استشهد فأطلقهم عثمان وكان سجنهم لأن القوم أكثروا الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهذا ابن مسعود (ض) نقم على عثمان انه لم يدخله في كتابة المصحف وقدّم زيد بن ثابت (ض) مع ان عثمان كان مقتدياً بأبي بكر (ض) وقد قدم زيد بن ثابت لجمع المصحف دون ابن مسعود ولم يقل يوم ذلك ابن مسعود (ض) عنه شيئاً وقد راجع ابن مسعود الحق وقبل ما صنعه عثمان.

فعلى الناظر في تاريخ عثمان (ض) أن يتثبت ويتحرى حتى لا يقع في ظلم وباطل في حق هذا الإمام الشهيد العظيم.

وفاته

توفي بالربذة في ذي الحجة من السنة الثامنة من خلافة عثمان وحضر دفنه ابن مسعود في ركب كانوا قافلين من الحج وضم عياله عثمان إلى عياله. وطويت بوفاته صفحة من حياة زكية فاضلة شاذة في عصر الخير والفضل بين فضلاء أخيار من أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم ـ بتشدد في الزهد ونظرية في المال ما كرهوا له منها إلا ما أراده من تعميمها في الناس. فرحم الله تلك الأرواح الطاهرة التي كانت تمثل الكمالات الانسانية بأنواعها، وتتفاوت في بلوغ الغايات منها لتكون قدوة لمن يجيء بعدها كل بما فيه من استعداد لما خلق له من أنواع الكمال.

فجازاهم الله عنا خير الجزاء ورزقنا الاقتداء بهم ولزوم جماعتهم حتى نلقاه جل جلاله غير مبدلين ولا مغيرين[2].

(1) العواصم، ج 2، ص 109.

(2) ش: ج 6، م 11، غرة جمادى الثانية 1354 هـ سبتمبر 1935 م.

سيدنا بلال الحبشي

رضي الله عنه

نسبه

هو ابن رباح مُوَلَّدٌ بمكة وأصله من الحبشة وأمه[1] حمامة من السابقات كانت تعذب في الله مثله.

إسلامه

لما دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الإسلام أجابه ضعفاء الناس سنة الله في إخوانه الأنبياء ﷺ من قبله. قال[2] عبد الله بن مسعود (ض): «كان أول من أظهر إسلامه سبعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأبو بكر وعمّار وأمه سمية وصهيب وبلال والمقداد. فأما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فمنعه الله بعمه أبي طالب وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه وأما سائرهم فأخذهم المشركون وألبسوهم أدراع الحديد وصهروهم في الشمس. فما منهم من أحد إلا وقد واتاهم على ما أرادوا إلا بلالا فإنه هانت عليه نفسه في الله وهان على قومه فأخذوه فاعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة وهو يقول: «أحد أحد». وليس في هؤلاء المستجيبين لرسول الله ﷺ من نفس قريش إلا أبو بكر وبقيتهم بين مَوْلى وحليف وقد كان بلال أسبق هؤلاء بعد أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

(1) الاصابة لابن حجر.

(2) سنن ابن ماجه بسند موثق.

تعذيبه في الله وصبره

عدت قريش على المستضعفين تعذبهم وتفتنهم لتصرفهم عن الإسلام فكان أمية بن خلف الجُمَحي يخرج بلالاً إذا حَمِيت الظهيرة فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ثم يقول له لا تزال كذلك حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى فيصبر بلال على ذلك العذاب ويقول وهو في ذلك البلاء: أحد أحد. ويأبى أن يقول كلمة الكفر بلسانه وقد علم أنه لا إثم على من يقولها بلسانه إذا أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ويأبى أن يترخص كما ترخص إخوانه المستضعفون وأن يواتي ويوافق كفار قريش ولو بكلمة واحدة.

ترجيح واقتداء

الحالة التي كان فيها بلال من الصبر والثبات والإباية من شيء من الترخص - أرجح من حالة الترخص وإن كانت هذه سائغة جائزة إذ في الحالة الأولى إقامة التوحيد وارغام المشركين وتثبيت للدعوة وجلب إليها وتقوية لقلوب المستجيبين لها وضرب المثل لكل من أصيب وعذب في الحق ولو أن جميع المبتلين ترخصوا لخفتت كلمة التوحيد وطغت كلمة الشرك وازداد ظلم أهلها ولتزلزلت الدعوة واضطربت قلوب ضعفاء الإيمان وأعرض عنها كل من لم يكن قد استجاب. ولا شك أن حالة الصبر وعدم الترخيص هي حالة الأنبياء (ص) وحالة الكبراء من أصحابهم حتى قتل منهم من قتل وعذب منهم من عذب كما قص أخبارهم القرآن العظيم.

عتقه

كان أبو بكر الصديق (ض) داعية الإسلام من يوم أسلم وكان بلال ممن استجاب له فلما رأى ما حل به من عذاب اشتراه فأعتقه فكان سبباً في عتقه من الرق وعتقه من العذاب وعتقه من الكفر. كما اشترى أمه حمامة وأعتقها في آخرين من العبيد الذين عذبوا في الله. فيا له من عتيق معتق رضي الله عنه.

جهاده

شهد مع رسول الله ﷺ المشاهد كلها وبعد وفاة أبي بكر (ض) خرج إلى الشام مجاهداً حتى مات بها مرابطاً.

والتقى في غزوة بدر بأمية بن خلف وقد أسره عبد الرحمن بن عوف قبل أن يجمع الأسرى فقتله فمكنه الله من عدوه الذي كان يعذبه ذلك العذاب حتى قتله بيده.

وظيفته

كان أول من أذن في الإسلام واستمر يؤذن حياة رسول الله ﷺ وحياة أبي بكر ـ على احدى الروايتين ـ وأذن مرة بالشام لما قدمها عمر فبكى وأبكى: ذكر الناس بأذانه عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

جزاء الحكيم

كان بلال ـ وهو يقاسي العذاب الشديد ـ يلهج باسمه تعالى: أحد،فيخف ما يلقاه من ألم التنكيل بلذة التوحيد فكان من جزاء الله الحكيم له أن جعله مؤذن نبيه ﷺ وأول من رفع عقيرته بكلمة التوحيد في الأذان. عرف الله في الشدة. فعرفه الله في الرخاء لم يترك اسم أحد في أصعب أوقات حياته فألزمه الله التعبد بالجهر به على الناس معظم حياته. فكان الجزاء من جنس العمل من الحكيم العليم.

ثناء عمر (ض) عليه

(1)كان عمر بن الخطاب (ض) يقول: «أبو بكر سيدنا واعتق سيدنا» يعني بلالا فقرنه بأبي بكر في سيادتهم اعترافاً له بما كان من سبقه للإسلام وصبره على البلاء فيه وما كان عليه في دينه وفضله ومكانته عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد كان عمر (ض) شديد التعظيم للسابقين الأولين والتقديم لهم وخصوصاً أهل المنازل الخاصة عند النبي ﷺ حتى قال لأبنه عبد الله بن عمر لما رجح عليه أسامة بن زيد في العطاء: كان أحب إلى رسول الله ﷺ منك وكان أبوه أحب إليه منك هذا وان كانت منزلة عمر (ض) معروفة في الفضل لكنهم هذه أخلاقهم ـ

(1) البخاري.

رضي الله عنهم - ينسون أنفسهم عندما يتحدثون على فضل غيرهم حتى كأنهم لا يعرفون لأنفسهم فضلاً.

تبشيره بالجنة

[1] رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليلة أنه دخل الجنة وسمع [2] خَشْفَ نعلي بلال بين يديه في الجنة فقال له حدثني بأرجى عمل عملته عندك في الإسلام منفعة، فقال بلال ما عملت عملاً في الإسلام أرجى عندي منفعة من أني لا أتطهر طُهوراً تاماً في ساعة من ليل أو نهار إلا صليت بذلك الطهور ما كتب الله لي أن أصلي[3]. وكان لا يحدث إلا توضأ وصلى.

فكان يصل الحدث بالوضوء والوضوء بالصلاة فلا يكون إلا على طهارة ولا تنفصل طهارته عن الصلاة فهذه الطهارة الدائمة والصلاة الملازمة هي التي عدها أرجى أعماله في الإسلام عنده منفعة. ذلك لأن هذه الطهارة الدائمة في الظاهر دليل الطهارة الدائمة في الباطن، وعلى طهارة الباطن تبنى جميع الأعمال وقد عمل هو هذا الغمل يرجو منفعته عند الله - كما هي وضعية الاسلام للطاعات كلها - فحقق الله رجاءه. وكان ما رآه النبي ﷺ من وجوده في الجنة بين يديه بشارة له بأنه من أهل اللجنة وانه بالمنزلة القريبة من النبي ﷺ وكما كان خادماً للنبي ﷺ يمشي بين يديه في الدنيا كذلك رآه في الجنة تنبيهاً على أن كل خير ناله - مثل كل من ناله شيء من الخير - هو من اتباعه للنبي ﷺ والقيام بخدمته. وفي هذا كله منقبة عظيمة له بجليل عمله، وبشرى صادقة بعظيم ثوابه عند ربه. رضي الله عنه.

سنه ووفاته

مات بالشام في طاعون عمواس سنة عشرين وقد ناهز السبعين ودفن بمقبرة دمشق وقيل بحلب فرحمه الله وجمعنا به في دار النعيم آمين[4].

---

(1) في الصحيحين (2) صوتها عند تحركها في المشي.

(3) في مسند أحمد.

(4) ش: ج 2، م11، غرة رمضان 1354 هـ ديسمبر 1935 م.

عُكاشة بن مِحصَن

رضي الله عنه

اسمه ونسبه

العكاشة ـ بشد الكاف وتخفيفها ـ العنكبوت وبه سمي وهو بن محصن من بني أسد بن خزيمة حليف لبني أمية.

سابقيته ومشاهده

من السابقين الأولين. شهد بدرا وأُحُدا وسائر المشاهد، واستشهد في حروب الردة. قدمه خالد بن الوليد هو وثابت بن أقرم العجلاني طليعة يوم بُزاخة لقتال طُلَيحة الأسدي. تعاون عليه طليحة وأخوه سلمة فقتلاه بعد ما قتل سلمة ثابتا. فمات شهيداً رحمه الله.

أخبار تتعلق به

1) سبقك بها عكاشة

ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يدخُل الجنة من أمتي زمرةٌ هم سبعون ألفاً تضيء وجوههم إضاءةَ القمر ليلَة البدر» فقام عكاشة بن محصن فقال: ادع الله أن يجعلني منهم. فقال: اللهم اجعله منهم. ثم قام رجل آخر فقال: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: سبقك بها عكاشة. فجرت هذه الكلمة النبوية مثلاً يضرب لمن أراد أمراً قد سبقه به غيره.

بيان

كانت ساعة إجابة وانقضت فبردت الدعوة لصاحبها. أو كان يستحق الدعوة من سبق إليها برغبته مبتدئاً دون من جاء ثانياً تابعاً. وفضيلة السبق لها أثرها.

2) سيفه الذي يسمى العون

كان عكاشة قد أبلى البلاء الحسن يوم بدر فضرب بسيفه حتى انقطع في يده فناوله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جذلاً من حطب وقال:قاتل بهذا يا عكاشة فلما أخذه وهزه عاد في يده سيفاً صارماً.طويلاً.

بيان

ذكر هذا ابن إسحاق وغيره. وانقلاب الجذل سيفاً هو من جنس ما تواتر تواتراً معنوياً من تأثر المواد الجامدة بلمسه أو دعائه. والذي كمل الله روحه حتى تزكت على يده نفوس تلك الأمة الأمية المنغمسة في حمأة الشرك والوثنية حتى كان منها في أقرب وقت هداة البشرية ـ ليس بكثير في حقه أن تتأثر بلمسه الجمادات.

اقادة رسول الله ﷺ له من نفسه

روى أبو نُعيم في «الحِلْيَة» حديثاً في وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مُطوَّلاً وفيه أن رسول الله ﷺ أعطى قضيباً لعكاشة ليقتص لنفسه من رسول الله ﷺ بضربة كان ضربه رسول الله ﷺ إياها بذلك القضيب. وهو حديث موضوع، قال السيوطي: آفته عبد المنعم. وقال ابن الجوزي: هذا حديث موضوع لا محالة. كافأ الله من وضعه. وقبح من شين الشريعة بمثل هذا التخليط البارد والكلام الذي لا يليق بالرسول ولا بالصحابة. والمتهم عبد المنعم بن إدريس. قال أحمد بن حنبل كان يكذب على وهب. وقال يحي كذاب خبيث وقال ابن حبان كان يضع الحديث على أبيه وعلى غيره أهـ.

تنبيه وتحذير

ذكرنا هذا الحديث الموضوع الذي رواه أبو نعيم في كتابه «حلية الأولياء» لننبه على وضعه ولنحذر قراء «الحلية» وقد طُبِعَت منها أجزاء ـ من الاعتماد على كل ما فيها

فإن كثيراً من المتسببين للعلم يغترون باسم الكتاب واسم المؤلف فيتناولون كل ما فيه من الأحاديث بالقبول والتسليم كأنه ثابت صحيح مع اننا نجد فيه مثل هذا الحديث الموضوع الذي قد قال فيه ابن الجوزي ما قال.

القدوة

هذا الصحابي البدري الجليل قد دل بسؤاله الدعاء أن يكون من السبعين على حرصه على الكمال ورغبته في الفوز بأعلى الدرجات وخوفه من الحساب ولم يكن سؤاله ذلك منافياً لإخلاصه لله في عبادته ولا حاطاً شيئاً من درجته بل كان سبباً لفوزته بتلك الدعوة ونيله تلك المنزلة. فنعم القدوة هو ـ رضي الله عنه ـ في العمل لله مع الرجاء في فضله وطلب المزيد منه، والخوف من عقابه وطلب البعد عنه. هذه هي سنة عباد الله الصالحين وفيها أبلغ الرد على المتنطعين المتكلفين. رزقنا الله اتباعهم في هديهم هدى محمد صلى الله عليه وآله وسلم ورضي عنهم وأرضاهم[1].

---

(1) ش: ج 1، م 13، غرة محرم 1356 هـ. مارس 1937 م.

الرُّبَيِّع بنت مُعَوِّذٍ

رضي الله عنها

اسمها ونسبها

هي الرُّبَيِّع بنت معوذ من بني عدِيّ بن النجار الانصارية

سابقتها ومشاهدها

ممن حضرن بيعة الرضوان وكانت ممن يغزون مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم من النساء. كن يخدمن الجيش ويسقين الماء ويقمن على الجرحى فيداوينهم ويحملنهم فيرددنهم إلى المدينة.

قدرها ومنزلتها

كان لها قدر عظيم ومنزلة رفيعة فقد كانت من بيت شهد عدة من رجاله بدراً ومنهم من استشهد بها وهي من الغازيات كما تقدم. ومن قدرها هذا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم جاءها غداة عرسها فقعد على فراشها وجعلت جويريات من الانصار يضربن بالدف ويذكرن من قتل من آبائها يوم بدر وهو ﷺ يسمع ويقرهن على ضربهن وغنائهن حتى قالت احداهن :-وفينا نبي يعلم ما في غد- فقال لها: «دعي هذه وقولي بالذي كنت تقولين».

حكاية ظريفة عنها

كانت يوماً في نسوة فدخلت عليها أسماء بنت مَخربَة تبيع العطر ـ وأسماء هذه أم أبي جهل ـ والربيع أبوها أحد من قتل أبا جهل ـ فلما عرفتها أسماء قالت لها أنت

ابن قاتل سيده قالت الربيع بل قاتل عبده فقالت أسماء حرام علي أن أبيعك من عطري شيئاً، قالت الربيع حرام علي أن أشتري منه شيئاً وقالت: لتنغيضها ـ ما وجدت لعطر نتناً غير عطرك، وافترقتا على غضب وقطيعة.

الفوائد والأحكام

النساء في الحرب

ما كانت تقوم به الربيع ومن معها من النسوة في الغزو أصل لتأسيس فرقة النسوة الممرضات في الجيش، ويستتبع ذلك لزوم تهيئتهن لذلك بتعليمهن ـ غير مختلطات بالرجال ـ ما يحتجن إليه في الحرب من القيام بعملهن والدفاع عن أنفسهن واستعمال ما يقيهن من الهلاك مع تدريبهن على ذلك كله وتمرينهن عليه. لأن الشارع قد أقر هذه المصلحة فكل ما تتوقف عليه في أصلها أو كمالها وإتقانها فهو مشروع.

اقرار الحق وإنكار الباطل

الضرب بالدف والغناء في العرس وذكر الأموات بمحامدهم ومقاماتهم ـ كل هذا مشروع فأقر النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ الجويرات عليه. أما علم أحد من الخلق: الأنبياء فمن دونهم بما يكون في المستقبل فباطل ممنوع قوله واعتقاده. ولهذا نهاهن النبي ﷺ عنه وأمرهن أن يعدن إلى ما كن فيه. ولا ينافي هذا ان الله قد يطلع أنبياءه عليهم الصلاة والسلام علي بعض ما يكون في المستقبل لأنه علم محدود في شيء مخصوص. كان بإعلام الله فلا يتجاوز علمهم إلى ما عداه مما في أحشاء المستقبل من الغيب، ولا لما في الحال منه مما لم يُعلموا به. وهكذا كانت سنة ﷺ يقر الحق ويرتضيه وينكر الباطل وينفيه.

حزازات النفوس

لم تستطع الأيام ولا الدخول في الإسلام، أن تمحو أثر حزن أسماء على قتل أبي جهل ابنها فما عرفت ابنة أحد قاتليه حتى نفثت بما في صدرها ولم تستطع أن تعامل ـ بالبيع والشراء ـ من رأت في وجهه وجه قاتل أبيها. ولا يقدح هذا في إسلامها لأن ما كان منها كان عن طبع لا تقوى خلقة الأنثى على مقاومته. ومن هنا نعلم أن مما

تتنحتم مراعاته في النساء هو هذه الناحية الضعيفة الحساسة فيتحرز دائماً من عدم إثارة ما يحرك ما تبقى آثاره كامنة في نفوسهن من فقد عزيز أو لحوق مكروه.

القدوة

هؤلاء السيدات الصحابيات رضي الله عنهن قد كن يشاركن الرجال في الحرب وهي أبعد الأشياء عن طبعهن ويقمن معهم بما يليق بهن فلنا فيهم وفيهن القدوة الحسنة أن نشرك معنا نساءنا فيما نقوم به من مهام مصالحنا ليقمن بقسطهن مما يليق بهن في الحياة - على ما يفرضه عليهن الإسلام من صون وعدم زينة وعدم اختلاط. ولن تكمل حياة أمة إلا بحياة شطريها: الذكر والأنثى.

نسأل الله أن ينهض بنا رجالا ونساء في خدمة الإسلام وفي دائرة الإسلام إنه القريب المجيب[1].

---

(1) ش: ج 2، م 13، غرة صفر 1356 هـ ابريل 1937 م.

سُمَيَّةُ بنتُ خُبَّـاط

رضي الله عنها

بيتها

هي أمة لأبي حُذيفة بن المغيرة المخزومي زوّجها لحليفه ياسِر العنسي فولدت له عمّاراً فأعتقه أبو حذيفة، فبيتها يرتبط ـ ولاء وحلفا ـ ببني مخزوم من قريش.

إسلامها وسابقتها

من السابقين الأولين هي وزوجها وولدها.

تعذيبها واستشهادها

كانت هي وزوجها وابنها يُعذّبون أشد العذاب في الله فيمر بهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهم يعذبون بالأبطح في رمضاء مكة فيقول: صبراً يا آل ياسر فإن موعدكم الجنة فقتل زوجها في العذابْ وأعطى عمار بلسانه ما سأله منه المشركون وفيه وفي مثله نزل قوله تعالى: «**إِلَّا أن تَتَّقوا مِنْهُم تُقَاة**» وأما هي فان أبا جهل طعنها بالحربة في قُبُلِها حتى قتلها وهي يوم ذاك عجوز كبيرة ضعيفة فكانت أول شهيد في الإسلام.

أوّليات النساء في الإسلام

لا تقوم الحياة إلا على النوعين اللذين يتوقف العمران عليهما، وهما الرجال والنساء. وفي الإسلام: كتابه وحياة رسوله ﷺ وتاريخ بدايته ـ آيات وأنباء

ووقائع تدل على ذلك وتدعو إلى اعتباره والعمل بموجبه. وانظر إلى حظ المرأة في السبق إلى تأييد الإسلام بالنفس والمال، والعطف والحنان. فأول مال وجده رسول الإسلام ﷺ هو مال خديجة، وأول عطف لقيه، وأول قلب انفتح لسماع كلمة النبوة ـ كما في حديث بدء الوحي ـ هو عطف خديجة وقلب خديجة، وأول شهيدة في الإسلام ـ كما اتفق عليه علماء السيرة ـ هو سمية. فلن ينهض المسلمون نهضة حقيقية اسلامية إلا إذا شاركهم المسلمات في نهضتهم في نطاق عملهن الذي حدده الإسلام وعلى ما فرضه عليهن من صون واحتشام.

الأسوة

هذه سنة الله عرفناها في تاريخ البشرية: لا بد في سبيل الحق من ضحايا. ولقد كانت هذه العجوز الضعيفة مثلاً رائعاً في الصبر والثبات واليقين حتى فازت بتلك الأولية. وكانت في ذلك أحسن قدوة ـ لا لخصوص النسوة ـ بل لأهل الرجولة والقوة.

فاللهم إيماناً كإيمان هذه العجوز وصبراً كصبرها، وشهادة كشهادتها. آمين يا رب العالمين[1].

(1) ش: ج 3، م 13، ربيع الأول 1356 هـ ماي 1937 م.

هند بنت عتبة

رحمها الله تعالى

هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف زوجة أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس وأم معاوية بن أبي سفيان. أسلمت يوم فتح مكة بعد اسلام زوجها.

كيف أسلمت؟:

بات المسلمون الليلة الموالية ليوم الفتح يصلون بالمسجد الحرام فرأت هند منهم ما لم تعهد. فقالت والله ما رأيت الله عبد حق عبادته في هذا المسجد قبل الليلة، والله ان باتوا إلا مصلين قياماً وركوعاً وسجوداً. وأرادت المجيء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وخافت من ماضيها في الجاهلية فذهبت إلى عمر فجاء معها فاستأذن لها فدخلت وهي متنقبة فأسلمت ولما بايع النبي ﷺ النساء وهي معهن ومن الشرط فيها: وان لا يسرقن ولا يزنين، قالت هند: وهل تزني الحرة وتسرق يا رسول الله؟ فلما قال: ولا يقتلن أولادهن، قالت قد ربيناهم صغارا وقتلتهم ببدر كبارا ثم رجعت إلى بيتها فجعلت تضرب صنما لها بالقدوم حتى فلذته فلذة فلذة وتقول: كنا معك في غرور.

صدق اسلامها:

أسلمت متأثرة بما رأت من حال المسلمين وبادرت إلى كسر صنمها وأصبحت تريد أن تعرف ما يحل لها وما يحرم في الإسلام فشكت إلى النبي ﷺ فقالت ان أبا

سفيان رجل مسيكٌ بخيل وانه لا يعطيها من الطعام ما يكفيها وأولادها الا ما أخذت منه بغير علمه فهل عليها من حرج فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: خذي من ماله بالمعروف ما يكفيك أنت وولدك. فما كانت تفعله قبل اسلامها ولا تتحرج منه أُصبحت بعده متحرجة تسأل عن حكم الله فيه وما ذلك إلا من صدق اسلامها وإخلاصها فيا آمنت به.

أخلاقها:

كانت امرأة لها نفس وأَنَفَةوفيها صراحة وجراءة واعتداد بنفسها وقصتها في الجاهلية مع أول أزواجها الفاكه بن المغيرة وقصة اختيارها للأزواج وغيرها مظهر من مظاهر هذه الأخلاق. وما في حديث اسلامها من مراجعتها للنبي ﷺ من تلك الأخلاق. وأهل هذه الأخلاق إذا كفروا كفروا وإذا أسلموا أسلموا بصدق وكذلك كانت هند في جاهليتها واسلامها.

عِبْرَةٌ وقدوة:

انظر إلى الإسلام الصادق كيف تظهر آثاره في الحين على أهله وكيف يقلب الشخص سريعاً من حال إلى حال وبه تعرف اسلاماً من اسلام .

وانظر إلى حلم النبي ﷺ كيف قابل هذه المرأة التي كان منها ما كان في يوم أحد من أقوال وأعمال فضرب عن ذلك كله سفحاً وكيف واجهته بما واجهته به عند قوله: ولا يقتلن أولادهن، ثم اعرض عن ذلك كأنه لم يسمعه كل هذا حلما وكرما وحرصاً على هداية العباد فصلى الله عليه وآله وسلم من نبي كريم بالمؤمنين رءوف رحيم خير قدوة للعالمين[1]

(1) ش: ج 2، م 15، صفر 1358 هـ مارس 1939 م.

نعيمان بن عمرو النجاري الأنصاري
رضي الله عنه

سابقته ومشاهده

شهد العقبة الأخيرة. وشهد بدرا وأُحُدا والخندق والمشاهد كلها.

طُرَفه ونوادره

كان ظريفاً كثير الدعابة والمزاح حتي يبلغ به ذلك إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

كان لا يدخل المدينة طُرفة إلا جاء بها إلى النبي ﷺ فيقول ها أهديته لك. فإذا جاء صاحبها بطلب الثمن أحضره إلى النبي ﷺ وقال اعط هذا ثمن متاعه فيقول ﷺ أو لم تهده لي فيقول انه والله لم يكن عندي ثمنه ولقد أحببت أن تأكله فيضحك ﷺ ويأمر لصاحبه بثمنه.

وخرج مرة مع أبي بكر في تجارة إلى بصرى ومعهما سويبيط ابن حرملة البدري وكان سويبيط متولياً علي الزاد فجاء نعيمان فقال اطعمني فقال لا حتى يجيء أبو بكر فقال لأغيظنك. فذهب إلى قوم ممن جلبوا إبلاً إلى السوق فقال لهم ألا تبتاعون مني غلاماً عربياً فارهاً وهو ذو لسان، ولعله يقول لكم أنا حر فإن كنتم تتركونه لذلك فدعوه من الآن ولا تفسدوا علي غلامي. فقالوا بل نبتاعه منك بعشر قلائص. فأقبل بها يسوقها وأقبل بالقوم حتى عقلها ثم قال دونكم هو هذا. فقال القوم لسويبيط قد اشتريناك من سيدك فقال هو كاذب أنا رجل حر. قالوا قد أخبرنا خبرك؛ وطرحوا

الحبل في رقبته وذهبوا به. وجاء أبو بكر وأصحاب له فأدركوا القوم وردوا إليهم القلائص وعرفوهم الحقيقة. فضحك رسول الله ﷺ وأصحابه (ض) من هذه النادرة مدة عندما يتذكرونها.

وقدم اعرابي فدخل على النبي ﷺ، وأناخ ناقته بالفناء فقال بعض الصحابة للنعيمان لو عقرتها فأكلناها فانا قد قرمنا إلى اللحم ففعل فخرج الأعرابي فصاح واعقراه يا محمد فخرج النبي ﷺ فقال من فعل هذا فقال النعيمان فاتبعه يسأل عنه حتى وجده قد دخل دار ضباعة بنت الزبير واستخفى في سرب لها وجعل عليه السعف والجريد. فأشار إليه رجل ورفع صوته يقول ما رأيته يا رسول الله ويشير بأصبعه حيث هو فأخرجه رسول الله ﷺ وقد تغير وجهه بالسعف الذي سقط عليه وقال له ما حملك على ما صنعت. قال الذين دلوك علي يا رسول الله هم الذين أمروني فجعل رسول الله ﷺ يمسح عن وجهه ويضحك ثم غرمها رسول الله ﷺ للأعرابي.

الإسلام دين السماحة والسجاحة

هؤلاء هم خيار الأمة، وهم أهل الصدق والجد، وذوو القوة في الحق والصلابة في العقيدة، وهكذا كانوا أهل سماحة وسهولة وسجاحة ولين في الحالة الاعتيادية. حتى ينفق بينهم مثل هذا الظُّرف والمزح والدعابة. فإذا الجد فهم هم. فالتزمُّت والعبوس خشونة ويبوسة في الخلقة، أو تكلف ورياء. وحسبك بهما من شرين. وقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يمزح ولا يقول إلا حقا فلا يبلغ المزاح بكبار الناس إلى ما بلغ إليه نعيمان ولكن لا تضيق أخلاقهم بمثله.

نقص رجح به الكمال

كان نعيمان رجلاً صالحاً وكان يصيب من الشراب فيجاء به إلى النبي ﷺ فيقيم عليه الحد فقال له رجل مرة. لعنه فقال النبي ﷺ لا تفعل انه يحب الله ورسوله.

قد كان الحد له طهرة، وكانت التوبة له مرجوة، وكان عنده من محبة الله ورسوله ما رجح بذلك النقص والبلية، ولعن المعين لا يجوز.

أتقول كيف كان يحب الله ورسوله ويشرب الخمر؟ فنقول: قد برهن على صدق حبه لله ورسوله ببذله نفسه في تلك المشاهد العظيمة التي شهدها والجود بالنفس أقصى غاية الجود. وأي دليل أدل على صدق الحب من بذل النفس. وأين تقع عبادة ذلك المتعبد الجثامة المنزوي الحريص على الحياة، من ذلك المسلم العادي الذي نصب نفسه هدفاً للبلايا والمحن؛ واقتحم أسباب الهلاك في سبيل الله على هنات فيه؟

هذا ـ والله ـ أنفع لعباد الله؛ وأصدق حباً لله؛ وأقرب إلى رضوانه، وأدنى إلى المناب عليه. لأنه من الذين باعوا لله أنفسهم وأموالهم، فاستبشروا ببيعهم الذي بايعوا به «ذلك هو الفوز العظيم»[1].

(1) ش: ج 3، م 15، ربيع الأول 1358 هـ ابريل 1939 م.

الشفاء بنت عبد الله القرشية العدوية
رضي الله عنها

سابقتها

أسلمت قبل الهجرة، وكانت من المهاجرات الأول.

منزلتها الشخصية

كانت من عاقلات النساء وفضلياتهن، وكانت تحسن الكتابة. وهي التي قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ألا تعلمين هذه ـ حفصة ـ رقية النملة كما علمتها الكتابة.

منزلتها في المجتمع

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يرعاها ويفضلها ويقدمها في الرأي. تقديراً لسابقتها وعقلها ومعرفتها وفضائلها. وكان ربما ولاها شيئاً من أمر السوق.

الاقتداء

تتعلم المرأة الكتابة، وتعلم غيرها، وتتولى تدبير أملاكها وتجارتها، وما تستطيعه من عمل عام. كما تولت الشفاء أمر السوق في بعض الأحيان، ولا شك ان مما أهلها لذلك عند عمر معرفتها بالكتابة.

تحذير

يجري على الألسنة ما رواه الطبراني في الأوسط: عن عائشة مرفوعاً: «لا تنزلوهن الغرف ولا تعلموهن الكتابة، وعلموهن الغزل وسورة النور». قال الشوكاني: في سنده محمد بن ابراهيم الشامي، قال الدارقطني: كذاب. وكثيرا ما تكون هذه الأخبار الدائرة على الألسنة باطلة في نفسها بمعارضة لما صح في غيرها فيجب الحذر منها. وقد قدمنا في الجزء الماضي من أدلة تعلم النساء الكتابة ما فيه الكفاية [1].

(1) ش: ج 4. م 15. ربيع الثاني 1358 ماي 1939.

النعمان بن عدي العدوي

رضي الله عنه

نسبه

النعمان بن عدي بن نضلة القرشي العدوي من قوم عمر بن الخطاب (ض).

سابقته

هاجر هو وأبوه عدي إلى الحبشة ومات أبوه بها.

ولايته وعزله

ولّاه عمر ميسان ـ بين البصرة وواسط ـ ثم عزله فنزل البصرة فلم يزل بها يغزو مع المسلمين حتى مات. وهكذا كانوا ـ ض ـ لا يؤثر عليهم العزل فهم يعملون للإسلام في سبيل الله في أيام العزل مثل أيام الولاية.

خاصتان له

الأولى أنه هو أول وارث في الاسلام وأبوه الذي مات في الحبشة أول موروث. والثانية أنه هو الوحيد من بني عدي الذي ولاه عمر ولم يولِ عمر رجلاً من قومه سواه قطعاً لكل قالة سوء وبُعداً عن «المحسوبية» ومحاباة الأقربين.

أدب وقدوة :

لما ولاّه عمر ميسان أراد زوجته على الخروج معه فأبت عليه فكتب إليها بهذه الأبيات ليثير غيرتها فيحملها على اللحوق به:

ألا هــل أتى الحسنــاء ان حــلــيــلــهــا
بميســـــان يسقي في زجـــاج وحـــنتم[1]
إذا شئت غـــنـــتني دهـــاقين[2] قـــريـــة
وصـنـاجة[3] تجذر[4] على حرف منسم[5]

فـــان كـــنـت نـــدمـــاني فـبـالأكبر اسقني
ولا تســـقني بـــالأصـــغـــر المتـــثـــلم
لـــعـــل أمير المؤمـــنين يسوءه
تـــنـــادمـــنـــا في الجوسق[6] المتهدم

فلما بلغ ذلك عمر كتب إليه: بسم الله الرحمن الرحيم (حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير.أما بعد فقد بلغني قولك: لعل أمير المؤمنين البيت. وايم الله لقد ساءني ذلك وقد عزلتك.

فلما قدم على عمر وسأله قال والله ما كان من ذلك شيء، وما كان إلا فضل من شعر وجدته، وما شربتها قط. فقال عمـــر أظن ذلك ولكن لا تعمل لي عملا أبداً.

---

(1) جرار خضر (2) النجار ورؤساء الاقليم.

(3) مغنية تضرب بالصنج وهو قرصان من نحاس تضرب احداهما بالأخرى.

(4) تقعي على أطراف أصابعها منتصبة القدمين.

(5) أصله أحد ظفري البعير. (6) القصر.

برأ نعمان نفسه فصدقه عمر ولم يذكر له شأنه مع زوجته تكرماً.

وكانوا على مكانتهم في الدين يتوسعون في الأدب ويقرضون الشعر على حكم الخيال والفن، ولم ينكر عليه عمر ذلك، وانما كره أن يكون من أميره ما يكون من سائر الناس وللامارة هيبتها اللازمة للضبط والتنفيذ، أو أن يجد أحد من أحد ولاته سبيلاً للطعن، ولو بشبهة،والولاية يجب أن تكون بعيدة عن المطاعن والشبهات فما يسوغ لعموم الناس قد لا يحتمل لبعضهم بحجكم المقام والمنصب. وقد قال الله تعالى: «**يا نساء النبيء لستن كأحد من النساء ان اتقيتن**» وأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن ينزل الناس منازلهم[1].

(1) ش: ج 5، م 15، جمادي الأولى 1358 هـ جوان 1939 م.



القسم الثاني

تراجم أعلام

*

« انما تقاس درجة الأمم بما تنتجه من الرجال ، وانما تكون منجبة للرجال يوم تصير تعرف أقدار العاملين من أبنائها » .

عبد الحميد بن باديس

الشهاب : ج 8 ــ م 8
ربيع الثاني 1351 هـ ــ اوت 1932 م



وفاة الشيخ عبد العزيز جاويش

فجع العالم الاسلامي كله بفقد رجل من رجالاته العظام ديناً وعلما وسياسة وخدمة للملة الاسلامية كلها بكل ما أوتي من مواهب يعز اجتماعها في غيره فجزاه الله أحسن جزاء بعمله ورحمه رحمة واسعة وعزّى العالم الاسلامي فيه.

كان الشيخ شديد الحب لوطنه مصر وملته الاسلام شديد الغيرة عليهما وقضى حياته كلها في خدمتها وكانت جميع أطوار حياته معلقة بهذا الحب لها وهذه الغيرة عليهما.

فابتدأ حياته السياسية عضوا في الحزب الوطني المصري الذي أسسه مصطفى كامل باشا رحمه الله وصار ركنا من أعظم أركانه ومحررا لجرائده.

وابتدأ عمله الاسلامي بإنشاء مجلة (الهداية) لقصد الإصلاح الديني الإسلامي العام .

واتصل بجمعية الاتحاد والترقي التركية وبمبدئه الإسلامي العام خدمها في فكرة الجامعة الاسلامية وقاوم الحركة العربية التي كان يحسبها من عوامل أجنبية لتوهين دولة الخلافة في ذلك العهد.

وكان هو ورفيقه الأمير شكيب ارسلان يبذلان كل جهدهما في حمل الاتحاديين على الأخذ بيد العرب واعطائهم ما يطلبون من اصلاح ولقد كادا أن

ينجحا بعض النجاح لولا ما داهم من أمر الحرب الكبرى وانفجار بركان العرب بعوامل الدعاية الأجنبية وخداعها وانخداع بعض أمرائهم لها.

عاد الشيخ بعد الحرب الكبرى إلى وطنه مصر وقلدته حكومتها إدارة التعليم الأولى في وزارة المعارف فنهض مضطلعا بها إلى أن توفاه الله فأكبرت الأمة المصرية فقده أيما إكبار واهتز له القطر المصري من أقصاه إلى أقصاه وعم الجزع عليه جميع أقطار الشرق الاسلامي وخاصة العربي وقد تعطف جلالة الملك فؤاد فتبرع لأولاده بألف جنيه وراتب شهري وتبرعت لهم الحكومة المصرية بخمسة آلاف جنيه وتعليمهم في المدارس مجانا.

فحي الله ملك مصر وحكومتها وجازاهم عن العالم الاسلامي كله الجزاء الجميل الجزيل[1].

(1) ش: ج 2. م 5. غرة شوال 1347 هـ مارس 1929 م.

فقيد الأدب والنهوض
السيد رمضان حمود

رحمه الله

قد كان هذا الشاب الأديب الناهض ركناً ركيناً من أركان النهضة الأدبية بالجزائر ولو أمهلته الأيام لكان نابغتها في الأدب بمعناه الصحيح. وإنّ فيما نشره له «الشهاب» في السنوات الماضية لدليلاً واضحا على ما نقول. فموته مصاب قومي مؤلم، ترك فراغاً عظيماً في صف العاملين للنهوض الأدبي والرقي الفكري بالمجتمع الجزائري. فلذا ذكرنا لقراء «الشهاب» مختصر ترجمته في هذا القسم من مجلتهم ليكونوا ـ كما عرفوا فيها أدبه المنظوم والمنثور ـ عارفين بصورة مصغرة من ترجمة حياته.

مولده ووفاته:

ولد بغرداية من أرض ميزاب في العاشر رمضان سنة 1324 هـ وتوفي بها ليلة الأربعاء لأربع وعشرين خلت من جمادى الثانية سنة 1348 هـ.

نسبه وبيته:

هو رمضان، حمود بن سليمان بن حمو ينتهي نسبه إلى حمو بن سليمان أحد رجالات ميزاب وشجعانها والأبطال المشهورين فيها. وبيته بيت حسيب كريم في قومه.

نشأته:

نشأ في حجر أبيه سليمان فرباه تربية دينية فنقله في السادسة من عمره إلى بلد غليزان فحفظ القرآن العظيم وتعلم اللغة الفرنسية ولما بلغ السادسة عشرة أرسله لتعلم العلم بتونس.

تعلمه:

كان من أحسن وأعظم ما وفق الله أهل ميزاب بسعي الشيخ ابراهيم اطفيش والشيخ محمد الثميني وغيرهما ـ إرسال بعثات من أبنائهم للتعلم بتونس وكان فقيدنا في طليعة تلك البعثات ومن طيب ثمارها فأقام بتونس ثلاث سنوات فقرأ العلوم العربية والتاريخ والعلوم الدينية على الشيخين المذكورين وغيرهما وقرأ الإنشاء على الشيخ محمد مناشو. وحصل على شهادة ابتدائية في العربية والفرنسية وقفل ـ مضطراً ـ إلى مسقط رأسه.

شاعريته:

كان الفقيد مشغوفا بجمال الكون يرى كل ما فيه موزونا متسقا كوزن قصائد الشعر واتساقها فكان نظره هذا إلى الكون هو مصدر شاعريته ومهبط وحيها، وكان إلى هذا شغوفا ببليغ الشعر العصري يحفظ كل ما يعجبه منه فكانت أساليب الشعراء العصريين بالشرق أصل ملكة بيانه. فجاء شعره كونيا اجتماعيا سهلا في أسلوب جميل رصين. وجاء أكثر كتابته كشعر منثور.

تآليفه:

«بذور الحياة» كتاب نفيس في الأدب والاجتماع و«كتاب الفتى» في التربية والأخلاق.

خلفه ـ إن شاء الله:

قد ترك الفقيد ابنا اسمه قاسم في الثالثة من عمره يتجلى بعلائم النباهة والذكاء جعله الله خلفا لأبيه رحمه الله رحمة وأسكنه فسيح جنانه(1).

(1) ش: ج 2، م 6، غرة شوال 1348 هـ مارس 1930 م.

سيد الشهداء ورأس الأبرار

رحمه الله رحمة واسعة، وحشره مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

اغتالت يد الطغيان الاستعماري؛ بطلاً من خيرة أبطال العرب ورأسا من أعظم رؤوسهم، ومجاهدا كان يقف في طليعة مجاهديهم، وصنديدا غالبته الأيام فغلبها. وصارعته الحوادث فصارعها؛ وحاربته دولة من أكبر دول الأرض بجنودها ودباباتها وطياراتها، فثبت أمامها ثبات الراسيات؛ متدرعا بالإيمان متحصنا بقوةالعزيمة معتدا بالله؛ ولطالما انتصر وظفر؛ ولطالما انكسر واندحر، فما زاده النصر إلا عزيمة وما زاده الاندحار الا ثباتا؛ واعتكف على قتال المعتدين الظالمين وحوش الاستعمار الإيطالي؛ فكان في حربهم شريفا مسلما، مستميت ساعة الملحمة؛ رؤوف حليم ساعة وضع الحرب لأوزارها.

ذلك هو سيدي عمر المختار زعيم السنوسيين ببرقة، الذي جاهد عشرين عاما دفاعا عن بيضة الاسلام وكرامة الوطن ضد الطغاة المستعبدين. ولم تترك السلطة الايطالية من وسيلة سافلة وحشية الا ارتكبتها لاخماد مقاومته؛ فأغلقت سائر زوايا السنوسية في البلاد وصادرت أملاكها ثم حصرت ثمانين ألفا من بقايا السكان الذين نجوا من المذابح وفظائع القتال الايطالي، ضمن منطقة محاطة بالأسلاك الشائكة كيلا يلتحقوا بعمر المختار، وأقامت على التخوم المصرية حراسة شديدة جدا كل ذلك وصنديد برقة رابض لا يأخذه في سبيل الله ضعف ولا وهن وكان يجول في ميادين

القتال ممتطياً صهوة جواده الأدهم، وقد وهن عظمه ولم يتدارك الوهن قلبه، واشتعل رأسه شيبا واكتست لحيته لون القمر وما استطاعت الثمانون عاما التي قضاها في طاعة الله وجهاد في سبيله أن تقوس له ظهرا أو تضع له هامة. إلى أن أقام له الايطاليون كمينا فأسروه اثر قتال عنيف ، وأبت الوحشية الايطالية الا ان تقيم برهانا جديدا على فقدها كل شرف وتجردها عن كل عاطفة نبيلة ، فحكمت عليه حالا بالاعدام ونفذت ذلك الحكم رميا بالرصاص.

ألا في سبيل الله تلك الروح الطاهرة النقية التي رجعت إلى ربها راضية مرضية، تستنزل نقمته وسوط عذابه على أدناس الاستعمار الايطالي المتكالبين وما الله بغافل عما يعمل الظالمون وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون[1] .

(1) ش: ج 10، م 7، غرة جمادى الثانية 1350 هـ اكتوبر 1931 م.

ذكرى الشاعرين:

شوقي وحافظ

في شوال من السنة الماضية شاركت الأمة الجزائرية الأمم العربية في الاحتفال بذكرى شاعري العربية العظيمين وتألفت لذلك لجنة من الأدباء بالعاصمة وأقامت حفلة حافلة بنادي الترقي ألقيت فيها الخطب وأنشدت القصائد وتواردت فيها برقيات المشاركة من جميع نواحي القطر. وقد نشرت الصحافة خبر هذه الحفلة في وقتها، واليوم رأينا أن ننشر في «الشهاب» ما اتصلنا به مما قيل في تلك الليلة. فيكون كإحياء للذكرى مرة أخرى.

خطبة صاحب هذه المجلة

الحمد لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى

أيها الإخوان:

إذا كانت الأمم اللاتينية ـ على ما بينها من تزاحم وتخاصم ، وتقاتل وتناحر ـ ترتبط برابطة اللاتينية، وتتفاخر بثقافتها، وتعقد المجتمعات العظيمة لتقوية روحها وتمتين حبل التمسك بها ـ فنحن أبناء العربية ـ وليس بيننا شيء من تلك المفرقات، بل

ما بيننا الاما يقرب بعضنا من بعض من المؤلمات والمحزنات ـ أحق بأن نفعل مثلهم وأكثر منهم في لغتنا العربية.

وفوق هذا فان اللغة اللاتينية ليست لغة العلم والأدب المشتركة ما بينهم مثل العربية التي هي العلم والأدب ما بين سبعين مليونا من أبناء الضاد. وليست اللاتينية قريبة من عامياتهم مثل قرب العربية الفصحى من عاميتنا، حتى انه لو قام خطيب يخطب باللاتينية لما وجد من يفهمه الا قليلا من أهل العلم منهم، ونحن نلقي دروسنا ومحاضراتنا وأكثر خطبنا بالعربية الفصحى فلا يبقى على بعض السامعين الا قليل من القول.

فاذا كانت العناية باللاتينية من واجب خاصتهم ، فان العناية بالعربية من واجبنا عامة وخاصة اذ هي لغتنا أجمعين،واذا كان تمسكهم برابطتهم اللاتينية لم يخرج أي واحد منهم عن وضعيته الاجتماعية الخاصة، فان تمسكنا بهذه الرابطة العربية لا يخرجنا عن وضعيتنا الخاصة، وما لنا من ارتباطات أخرى يرتبط بها المجتمع الجزائري.

أيها السادة:

ان من حقنا ومن الواجب علينا ـ نحن معاشر المسلمين الجزائريين الذين تشربت عروقنا هذه اللغة الكريمة من معين قوميتنا الشريفة، وتغذت أرواحنا من بسيانها العذب بالشربي المصفي من ديننا العظيم، واستنارت عقولنا من شمسها المضيئة بالأنوار الساطعة من تاريخنا الجليل ـ من حقنا الواجب علينا أن نكرم العربية ، ومن يكرم العربية. وخصوصا من خدم العربية بعقله وروحه وحياته مثل شاعرينا الكريمين. ومن حقنا أيضا أن نرتبط بأبناء العربية ارتباط القلب واللسان. ارتباط العقل والتفكير، ارتباط الشعور والتقدير، خصوصا عندما يتحرك الشعور العام لأمر هام. وتتوجه القلوب العربية لتكريم عظيم، أو إحياء ذكرى عزيز مثل احتفالنا هذا مع العالم العربي لتكريم الشاعرين العظيمين وإحياء ذكراهما العزيزة الخالدة.

أيها السادة

اننا باحتفالنا هذا بذكرى شاعري العربية العظيمين شوقي وحافظ ـ نكرم سبعين مليونا من أبناء العربية الذين يعدون العربية لغتهم القومية. ونكرم خمسمائة مليون من أبناء الاسلام الذين يعدونها لغتهم الدينية. ونكرم الأمم المتمدنة جمعاء التي يعترف أكابر علمائها المنصفين بمزية اللغة العربية التاريخية، على العلم والمدنية.

أيها الاخوان

ليس الشاعران الخالدان بالمحتاجين للتعريف بهما، ولست بالباحث الأديب الذي يستطيع أن يعرض عليكم في بلاغة وإيجاز صوراً فتانة من أدبهما. غير إنني ربما استطيع أن أقول شيئا من وجوه العبرة والقدوة في حياتهما. ووجوه من النعمة العظيمة من الله تعالى على العربية بهما.

قد اتحد الشاعران في الموطن وتقاربا في المولد والوفاة، ولكنهما تباينا في البيئة والنشئة والمعيشة،فنشأ شوقي في بيت الامارة ، وفي بيئة الخاصة، وعاش عيشة الترف والنعمة. ونشأ حافظ في بيت أبيه، وفي بيئة عامة، وعاش عيشة البؤس والشدة. فكان من نعمة الله ان قسمت الحياة بينهما هذا التقسيم، ليؤدي كل منهما للعربية رسالته من ناحيته ومؤثراتها الخاصة به.

فلقد أخرجت بيت الامارة المرتبطة بالخلافة من شوقي، شاعر الاسلام والعرب والأحداث الاسلامية الكبرى والتاريخ الاسلامي العام وتاريخ العرب. وأخرجت البيئة العامة الرازحة تحت نير الظلم والمتجرعة لألوان الشقاء ، والمتقلبة في دركات الانحطاط، من حافظ شاعر الأخلاق والاجتماع والوطنية، ولا غناء لواحد من العرب عما جاء به كل واحد من الشاعرين في ناحيته. ولو لم يخلق الله الا أحدهما لما تمت النعمة من الناحيتين.

كانت العربية القرآنية قد تنوسيت أساليبها، وانقطع سند الأمة العربية عنها فجدد الشاعران من شبابها، وأعادا من بيانها، ما حسب الناس انه مات مع الأيام الزاهرة للعرب بالمشرق والمغرب.

حسب قوم ان العربية لا تتسع لماجد من المعاني الا إذا خلعت عنها ثوب القرآن، ولبست ـ مثلهم ـ منسوجات«لانكشير» واخوات«لانكشير» فجاء الشاعران ـ خصوصاً شوقي في العقد الأخير من عمره ـ من قصائدهما العصرية المعاني، القرآنية اللغة والأسلوب والتراكيب ـ بأوضح الرد وأبلغ التكذيب.

عاش الشاعران كل على ما قسم له من الحياة حتى جاءت الحرب العالمية الكبرى ووضعت أوزارها ، فإذا بشوقي يخرج إلى العالم من قفص دار الإمارة، واذا بحافظ يدخله بؤسه إلى قفص الوظيف في دار الكتب المصرية.

فماذا كان من الشاعرين العظيمين بعد ؟

كان منهما ما يجب أن تكون فيه أبلغ العبرة، فان شوقي اتسعت شاعريته العالمية، وقويت نزعته الوطنية. وأمَّا حافظ فقد سكت ! سكت الا عن قليل كان أكثره رثاء! ولعمر الحق ما أسكته الا الوظيف الذي ينسي به الشرقي ـ حتى مثل حافظ ويالللأسف ـ نفسه، وأمته، وملته، الا ما شاء الله.

أيها الإخوان

ان مما نفع شوقي اطلاعه على آداب أمم أخرى في لغة أوروبية هي الفرنسية وان مما نفع حافظا ما مسه من الألم مع قومه. وقد كان يطالع «الأغاني» و«العقد الفريد» ويعيد مطالعتهما المرة بعد المرة. فعلى أدباء الجزائر وشعرائها ان يدرسوا آدابهم العربية، وأن يطالعوا الآداب الغربية في اللغة الفرنسية، وأن يمازجوا قومهم ليالموا وينعموا ـ ان كان نعيم ـ معهم. لتكون لهم منزلة أدبية عالمية، وآثار بارزة في الحياة الجزائرية.

أيها الإخوان

ان حياة الشاعرين العظيمين قد أخمدت نوابغ وأماتت قرائح، وان موتهما بما نشاهد من تكريم العالم العربي لهما ستحيي ملكات، وتبعث هما. فكونوا ـ وأنتم أنتم ـ في أول الرعيل.

أيها الإخوان

ليس للجزائر من حافظ الا ما للأوطان العربية الأخرى من شعره وأدبه وفنون قوله، أما شوقي فقد قدر له أن يزور هذه الجزائر في شبابه؛ وينزل بعاصمتها أربعين يوماً للاستشفاء، ويقول عنها: «ولا عيب فيها سوى أنها قد مسخت مسخا، فقد عهدت مساح الأحذية فيها يستنكف النطق بالعربية، واذا خاطبته بها لا يجيبك الا بالفرنسية» فاعجبوا لاستدلال على حالة أمة بمساح الأحذية منها! ولا يجمل بي أن أزيد في موقفي هنا على هذا، الا أن فقيدنا العزيز لو رأى من عالم الغيب حفلنا هذا لكان له في الجزائر رأي آخر، ولعلم أن الأمة التي صبغها الاسلام، وهو صبغة الله، وأنجبتها العرب، وهي أمة التاريخ، وأنبتتها الجزائر، وهي العاتية على الرومان والفاندال، ـ لا تستطيع ولن تستطيع أن تمسخها الأيام، ونوائب الأيام.

أيها الإخوان

باسمي الضئيل، وباسم الجزائر الكبير، وباسم جمعكم الكريم ـ أرفع التحيات الزكية للفقيدين الخالدين في مرقدهما، ولجميع العاملين لاحياء العربية وأدبها من بعدهما.

فليعش العرب، ولتعش العربية، وليعش المحبون لها من الناس أجمعين[1].

حررت وألقيت ليلة 27 من شوال 1351 بنادي الترقي بالعاصمة.

(1) ش: ج 4. م 10. غرة ذي الحجة 1352 هـ مارس 1934 م.

وفاة السيد الحاج الطاهر البكيري

كان رجل همة وشهامة وصدق في العقيدة مع الله ومع الناس. لازم دروس الجامع الأخضر دروس التفسير ودروس الوعظ والتذكير فخلصت عقيدته وطرح ما كان عليه من بدع الطرقية وأصبح من أركان المصلحين.

شيعت جنازته في حفل حافل من جميع طبقات الناس وتقدم الشيخ عبد الحميد بن باديس ـ بوصاية منه ـ للصلاة عليه فسويت الصفوف ووقف الشيخ ينتظر بقية القادمين فروى للناس الحديث الذي رواه مسلم عن ابن عباس (ض): قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلا لا يشركون بالله شيئا الا شفعوا في» وبعد تمام الصلاة انصرف إلى الناس فقال بعد الحمد والصلاة: الحواني اعلموا ان الاسلام كله عقيدة صحيحة وعمل صالح وأشهد أن أخي هذا كان مجاهدا في تصحيح عقيدته واصلاح عمله. وقد كان اذا عرف الحق قبله وعمل به. وقد صاحبنا لله، فأحسن صحبتنا في الله. فالله نسأل أن يحسن صحبته ويحسن جزاءه ويحسن لقاءه. حتى نجتمع به وبالمؤمنين في دار السلام سالمين آمنين ءامين والحمد لله رب العالمين.

رحمه الله وجازاه عن دينه واخوانه خيرا[1].

ش : ج 6 م 11 ـ غرة جمادى الثانية 1354 هـ ـ سبتمبر 1935 م

رزء الإسلام

وفاة مجتهد العصر الأستاذ رشيد رضا

نعت أخبار مصر وفاة هذا الإمام وقد كانت وفاته اثر رجوعه من مشايعة الأمير سعود إلى الاسكندرية فابتداه الألم أثناء الطريق وما بلغ إلى مصر حتى وافاه الأجل وقد شيعت جنازته في مشهد عظيم ودفن بجوار الأستاذ الإمام محمد عبده.

لقد كان الأستاذ نسيج وحده في هذا العصر فقها في الدين وعلما بأسرار التشريع وإحاطة بعلوم الكتاب والسنة ذا منزلة كاملة في معرفة أحوال الزمان وسير العمران والاجتماع وكفى دليلا على ذلك ما أصدره من أجزاء التفسير وما أودعه مجلة المنار في مجلداتها التي نيفت على الثلاثين وما أصدره من غيرهما مثل «الوحي المحمدي» الذي كان أحب كتبه إليه، وان ما كان يقوم به من عمل في تفسير القرآن لا تستطيع أن تقوم به من بعده الا لجنة من كبار العلماء فهل يكون من رجال الأزهر من يتقدمون لخدمة الاسلام بتتميم هذا العمل الجليل. اننا نتمنى ان تتوجه عناية الأستاذ مصطفى المراغي إلى هذا فيكون من أعظم أعماله.

أجر الله الاسلام والمسلمين في هذه المصيبة وخلف عليهما خيرامنها ورحم الله الاستاذ حجة الاسلام وجازاه خير ما جازى به عباده الصالحين (1).

---

(1) ش: ج 6. م 11. غرة جمادى الثانية 1354 هـ سبتمبر 1935 م.

حجة الاسلام

السيد محمد رشيد رضا

كتبنا كلمة عن وفاته في الجزء الماضي ونريد اليوم أن نكتب شيئا من ترجمته معتمدين في ذلك على ما نشره هو منها مجموعا ومفرقا في كتاب تاريخ الأستاذ الإمام وكتاب «المنار والأزهر».

مولده:

ولد في حدود 1291 هـ 1865 م بقرية القلمون من قرى لبنان.

بيته:

بيت شرف ودين وعلم وفضل وصلاح يعرفون بالمشائخ من قريتهم وإليهم يرجع أهلهم في الدين وإصلاح الشؤون.

نشأته:

نشأ في هذه البيت الطاهر نشأة علم ودين وتقوى وشعور بواجبات القيام بحاجات الناس وإيصال الخير إليهم.

تعلمه وشيوخه:

قرأ القرآن وتعلم الخط والحساب في كتاب قريتهم وحبب إليه من الكتب كتب الأدب والتصوف فكان يقرأ كتاب الإحياء لحجة الاسلام الغزالي فطبعه بطابع الزهد والتدين وأكسبه ملكة العربية الفصيحة والأسلوب المرسل في البيان. ثم ادخل مدرسة ابتدائية جميع التدريس فيها باللغة التركية فلم يقم فيها الا سنة،ثم في سنة 1302 دخل مدرسة الاستاذ حسين الجسر وكان هذا العلامة أنشأ مدرسته لتعليم علوم الدين واللغة العربية واللغات الأجنبية والعلوم الدنيوية على الطريقة العصرية مع التربية الاسلامية الوطنية . فتخرج في العلوم العربية والشرعية والعقلية على الاستاذ الجسر في مدة ثمان سنوات وكتب له شهادة العالمية.

وتشبع بروحه في ضرورة الجمع بين علوم الدين وعلوم الكون المادية والاجتماعية والعمرانية مع التربية الاسلامية لنهضة الأمة. وأخذ الحديث وفقه الشافعية عن شيخ الشيوخ العلامة محمود نشافة وحضر قليلا من كتاب نيل الأوطار للشوكاني على العلامة الشيخ عبد الغني الرافعي واستفاد كثيرا من معاشرته في العلم والأدب والتصوف وتلقى بعض كتب الحديث على العالم المحدث الشيخ محمد القاوقجي.

الكتب التي خرجته:

شغف بكتاب الإحياء فطالعه كله وأعاد مطالعته فكان له الأثر الصالح في زهده وأخلاقه وإخلاصه في العلم وتقواه في العمل وكان طريقه منه في فهم الدين انه دين روحاني أخروي فقط وان ارشاد المسلمين محصور في «تصحيح عقائدهم ونهيهم عن المحرمات وحثهم على الطاعات وتزهيدهم في الدنيا». ثم اتفق له في أثناء مدة طلبه للعلم ـ وهو يقلب أوراقا علمية لأبيه ـ أن وجد عددين من جريدة العروة الوثقى التي كان يصدرها حكيم الشرق جمال الدين الأفغاني والأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فقرأهما بشوق ولذة بعثاه على البحث عن بقية أعدادها فلما قرأ ما وجد منها المرة بعد المرة أحدثت فيه أثرا جديدا ونقلته من طور إلى طور وصار طريقه في فهم الإسلام انه «دين روحاني جسماني أخروي دنيوي من مقاصده هداية الانسان إلى

السيادة في الأرض بالحق ليكون خليفة الله في تقرير المحبة والعدل» وان إرشاد المسلمين يجب أن يكون ـ مع تصحيح عقائدهم ونهيهم عن المحرمات وحثهم على الطاعات ـ «الى المدنية والمحافظة على ملكهم ومباراة الأمم العزيزة في العلوم والفنون والصناعات وجميع مقومات الحياة».

تنسكه:

حبب إليه كتاب الإحياء مجاهدة نفسه على طريقة الصوفية بترك أطيب الطعام والاكتفاء بقليله والنوم على الأرض وغير ذلك وأخذ أوراد الشاذلية عن شيخه أبي المحاسن القاوقجي أعبد عباد شيوخ الطريق في وقته ورغب منه أن يسلكه الطريق على الأصول العملية اذ لم يعجبه ان يسلك الطريق على وجه صوري من تلاوة الأوراد وحضور الاجتماعات فقال له الشيخ «يابني انني لست أهلا لما تطلب فهذا بساط قد طوى وانقرض أهله» ثم تلقى الطريقة النقشبندية وقطع مراتبها كلها فكان تنسكه ـ أولا ـ تصوفا طرقيا شاذليا فنقشبنديا بما فيه من حق وباطل وهدى وضلال.

تخلص نسكه من الباطل والضلال:

دعاه شغفه بكتاب الإحياء إلى اقتناء شرحه الجليل للامام المرتضى الحسيني فلما طالعه ورأى طريقته الأثرية في تخريج أحاديث الإحياء فتح له باب الاشتغال بعلوم الحديث وكتب السنة وتخلص مما في كتاب الإحياء من الخطإ الضار ـ وهو قليل ـ «ولا سيما عقيدة الجبر والتأويلات الأشعرية والصوفية والغلو في الزهد وبعض العبادات المبتدعة» وترك أوراد الشاذلية لما علم ان قراءتها «من البدع التي جعلت من قبيل الشعائر والشرائع التي شرعها الله تعالى على ما فيه (أي ورد السحر وأمثاله) من الأمور والاقسام المنتقدة شرعا» واستبدل بها قراءة القرآن ووردا آخر في الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم «ليس فيه شبهة بدعة من توقيت وجهر وصيغ منكرة ومضاهاة الشعائر الموهمة للمأثور عن الشارع» كما ترك أوراد النقشبندية وذكرها «غير المشروع المخالف لجميع ما ورد في الذكر المأثور» وبين ما في رابطتها من شرك أو بدعة.

فتخلص نسكه ـ بعد طرح ذلك كله للتنسك الإسلامي من تجريد التوحيد وتزكية النفس وتقويم الأعمال، وتصحيح النية ومحاسبة النفس ومراقبة الله في جميع الأعمال والزهد في الدنيا والعمل للآخرة والمبالغة في العبادات المشروعة والاعتصام بالورع موزونا ذلك كله ومضبوطا بالكتاب والسنة وما كان عليه أهل القرون الثلاثة الصحابة والتابعون وأتباع التابعين رضي الله عنهم أجمعين. وهذا هو الذي يراد بالتصوف إذا جاء اسم التصوف في كلام علماء السنة والأثر. وقد كان السيد محمد رشيد رضا رحمه الله من أئمتهم. فهذا هو تنسكه وهذا هو تصوفه.

تعليمه وإرشاده:

تصدى للتدريس في مسجدهم . حيث كان عمه ـ كأسلافه ـ يقوم بالإمامة والخطابة والتدريس فكان يقري للرجال دروسا في الفقه الشافعي ودروسا في التوحيد بالسنوسية ولما رأى صعوبتها عليهم وضع لهم عقيدة سهلة وكان يربيهم في تعليمهم بما يحثهم عليه من القيام بالشعائر الدينية وكان يلقي عليهم المواعظ الدينية معتمدا فيها على آيات القرآن العظيم. ثم لم يكتف بما يقوم به من التعليم والارشاد في المسجد فكان يذهب إلى مقهى يجتمع فيه العوام فيعظهم ويرشدهم حتي هُدِيَ منهم مَنْ هدى الله.

ورأى ان على المرشد هداية النساء مثل ما عليه هداية الرجال فكن يجتمعن في دار أسرته فيلقي عليهن العقائد والأحكام والآداب في عبارات سهلة بدون كتاب وكان يأمرهم بتغيير زيهن بما هو أستر وأطهر حتى تكون المرأة في الشارع كما تكون في الصلاة.

أمره بالمعروف وتغييره للمنكر:

كان بعد ما قرأ كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من كتاب الإحياء يأمر وينهى لا يخاف لومة لائم وأول حادثة صدع فيها بالنهي عن المنكر في حفل عظيم من الناس ـ كانت يوم شهد حفلة للطريقة المولوية ورأى رقصهم وحلقة غلمانهم فصاح فيهم بما معناه «أيها المسلمون ان هذا منكر لا يجوز النظر إليه، ولا السكوت عنه،

لأنه إقرار له وانه يصدق على مقترفيه قول الله تعالى (اتَّخَذُوا دِينَهُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا) وانني قد أديت الواجب فاخرجوا رحمكم الله» وخرج مفارقا لهم.

ما وقع بينه وبين شيخه الجسر بسبب هذا الإنكار:

كان الشيخ الجسر على علمه بالعلوم الشرعية والمامه بالعلوم العصرية شيخا في الطريقة الخلوتية فكان ينصح لتلميذه بأن يكف عن أهل الطريق ولكن لا يأتيه على ما يفعلونه مما يبتدعونه في الاسلام ويشرعونه لأنفسهم مما لم يأذن به الله بدليل. وكان السيد يقول له «اقنعني بما تقول بالدليل ليصير عقيدة لي أرجع إلى قولك» فكان يجيبه الشيخ بقوله «أنت أهل علم وصاحب حجة وليس لك عندي غير ما قلته» وكما كان ينكر على العامة كان ينكر على الحكام والكبراء ما يراه منهم لا يخص بإنكاره أحدا دون أحد وكذلك كل ما كان عن عقيدة ولوجه الله من الأعمال لا يتركه صاحبه على كل حال.

هذه ترجمة السيد قبل هجرته إلى مصر وقد رأينا أنه صار عالما معلما مرشدا ذا منزلة رفيعة في العلم والتقوى والنصح للمسلمين وهو بعد في أول العقد الثالث من عمره وسنعرض في الجزء الآتي ـ ان شاء الله تعالى ـ لترجمته بعد رحلته[1].

(1) ش: ج 7، م 11، غرة رجب 1354 هـ اكتوبر 1935 م.

الاعتبار

بما كنا نشرناه من القسم الأول من حياة

حجة الاسلام السيد محمد رشيد رضا

ـ 2 ـ

لقد بلغ السيد رشيد من الفقه الديني، والتمكن من علوم الكتاب والسنة والخبرة بأحوال الزمان ـ منزلة ما نخال انها تتاح لأحد من بعده الا في دهر طويل لأن الأسباب التي يسرت له لا نراها اليوم مجتمعة في مكان غير ان هذا لا يمنعنا من الاعتبار بحياته والأسباب التي أتيحت له لنأخذ بها ونحث على الأخذ بها.

وهذه أهم النواحي التي كان لها ذلك الأثر في مقامه العظيم:

البيئة المنزلية:

البيت هي المدرسة الأولى والمصنع الأصلي لتكوين الرجال وتديُّن الأم هو أساس حفظ الدين والخلق ، والضعف الذي نجده من ناحيتها في رجالنا معظمه نشأ من عدم التربية الاسلامية في البيوت بسبب جهل الأمهات وقلة تدينهن. والسيد رشيد كانت متانة خلقه وقوة دينه من أثر أمه التي كانت ـ كما قال هو ـ على

جانب عظيم من الدين مع العلم الكافي لمثلها، ولبيئة بيته. فإذا أردنا أن نكون رجالا فعلينا أن نكون أمهات دينيات ولا سبيل لذلك إلا بتعليم البنات تعليما دينيا وتربيتهن تربية اسلامية وإذا تركناهن على ما هن عليه من الجهل بالدين فمحال أن نرجو منهن أن يكوّن لنا عظماء الرجال. وشر من تركهن جاهلات بالدين إلقاؤهن حيث يربين تربية تنفرهن من الدين أو تحقره في أعينهن فيصبحن ممسوخات لا يلدن الا مثلهن، ولأن تكون الأم جاهلة بالدين محبة له بالفطرة تلد للأمة من يمكن تعليمه وتداركه خير بكثير من أن تكون محتقرة للدين تلد على الأمة من يكون بلاء عليها وحربا لدينها. فنوع تعليم البنات هو دليل من سيتكون من أجيال الأمة في مستقبلها. وقد تفطنت لهذا بعض الأمم المالكة لزمام غيرها فأخذت تعلم بناتهم تعليما يوافق غايتها. فمن الواجب علينا ـ ولنا كل الحق في المحافظة على ديننا ومقوماتنا ـ أن نُعنى بتعليم بناتنا تعليما يحفظ علينا مستقبلنا ويكون لنا الرجال العظماء والنساء العظيمات، والا فالمستقبل ليس كالماضى فقط بل شر منه لا قدر الله.

أثر المعلم:

أغلب المعلمين في المعاهد الاسلامية الكبرى كالأزهر لا يتصلون بتلامذتهم الا اتصالا عاما لا يتجاوز أوقات التعليم فيتخرج التلامذة في العلوم والفنون ولكن بدون تلك الروح الخاصة التي ينفخها المعلم في تلميذه ـ إذا كانت للمعلم روح ـ ويكون لها الأثر البارز في أعماله العلمية في سائر حياته، والسيد رشيد وفقه الله للتعلم على الشيخ حسين الجسر ـ كما قدمنا ـ وكان لهذا الشيخ روح واتصل به السيد اتصالاً خاصا فنفخ فيه من روحه الاسلامية الوطنية المتوثبة لجميع العلوم وقد كان عزيزا مثل تلك الروح في تلك الأيام فكان لها أثرها في حياة السيد ومن آثارها تشوقه ـ وقد نال شهادة العالمية من شيخه ـ إلى ملاقاة الاستاذ الامام.

فعلى المعلم الذي يريد أن يكوّن من تلامذته رجالا أن يشعرهم ـ واحدا واحدا ـ أنه متصل بكل واحد منهم اتصالا خاصا زيادة على الاتصال العام وان يصدق لهم هذا بعنايته خارج الدرس بكل واحد منهم عناية خاصة في سائر نواحي حياته حتى

يشعر كل واحد منهم أنه في طور تربية وتعليم في كفالة أب روحي يعطف عليه ويعنى به مثل أبيه أو أكثر.

التحصيل الدرسي والتحصيل النفسي:

فهم قواعد العلم وتطبيقها حتى تحصل ملكة استعمالها ـ هذا هو المقصود من الدرس على الشيوخ فاما توسيع دائرة الفهم والاطلاع فانما يتوصل إليها الطالب بنفسه بمطالعاته للكتب ومزاولته للتقرير والتحرير. وعلى هذه الخطة سار السيد رشيد في تحصيله فانه حصل قواعد العلوم في ثمان سنوات ثم استمر على مطالعة الكتب حتى بلغ إلى ما بلغ.

يحسب كثير من الناس أن تحصيل العلم لا يكون الا بقراءة كتبه فتطول سنوات تعلمهم ثم لا يبقى عندهم الا امهات القواعد وتضيع عليهم تلك السنون ويكسبهم الاستمرار على كتاب واحد مطول جمودا في العلم وانحصارا في دائرة ذلك الكتاب، فلا تدعوهم أنفسهم إلى مطالعة غيره.

ثم ان الدروس انما تحصل فيها قواعد بعض العلوم وتبقى فنون كثيرة من فنون العلم يصل إليها الطالب بمطالعته بنفسه وحده أو مع بعض رفاقه فلا ينتهي من مدة دراسته العلمية في الدروس الا وقد اتسع نطاق معلوماته بفنون كثيرة كما كان السيد رشيد في مطالعته لكتاب الإحياء وكتب الأدب وكتاب العروة الوثقى ونرى الطلاب اليوم في أكبر المعاهد ـ كالزيتونة ـ لا يخرج الطالب عن كتبه الدراسية إلى مطالعة شيء بنفسه مما يكسبه علما أو خبرة بالحياة فيخرج الطالب بعد تحصيل الشهادة وهو غريب عن الحياة.

فعلى الطلبة والمتولين أمر الطلبة أن يسيروا على خطة التحصيل الدرسي والتحصيل النفسي ليقتصدوا في الوقت ويتسعوا في العلم ويوسعوا نطاق التفكير.

تعيين الغاية والاستعداد لها:

على كل ذي سعي في الحياة أن يعين غايته التي يقصد إليها ويستعد بكل ما يساعده على الوصول إليها، وغاية العالم المسلم أن يهتدي في نفسه وأن يهدي غيره

وقد كان السيد رشيد وضع هذه الغاية نصب عينيه فكان في تحصيله الدرسي والنفسي يعمل لها فيزكي نفسه ويتزود بما يزكي به غيره.

أما أكثر الطلاب فمنهم من تكون غايتهم الوظيف فهم في غفلة عن أنفسهم وعن غيرهم ومنهم من تكون غايته أن ينال الشهادة بالعلم فهم مثل الأول فأما الغاية الحقيقية التي ذكرنا فما أقل أهلها لأنها لا ذكر لها في برامج التعليم ولا اهتمام بها من المعلمين.

وحق على كل طالب أن تكون هي غايته وهو مع ذلك نائل العلم ونائل ما يؤهله للوظيف ان أبى الا أن يكون الوظيف من قصده ولكنه بالقصد إلى تلك الغاية يكون عاملا في أثناء تعلمه على تهذيب نفسه ويكون مصدر هداية للناس في مستقبل أيامه ولكن هذا انما يتم للطالب اذا كان شيوخه يهتمون لهذه الغاية ويعملون لها ويوجهون تلامذتهم اليها . وما أعز هذا الصنف من الشيوخ ! .

التفكير والاستقلال فيه:

إذا كان التفكير لازما للانسان في جميع شؤونه وكل ما يتصل به ادراكه فهو لطلاب العلم الزم من كل انسان فعلى الطالب أن يفكر فيما يفهم من المسائل وفيما ينظر من الأدلة تفكيراً صحيحا مستقلا عن تفكير غيره وانما يعرف تفكير غيره ليستعين به ثم لا بد له من استعماله فكره هو بنفسه.

بهذا التفكير الاستقلالي يصل الطالب إلى ما يطمئن له قلبه ويسمى - حقيقة - علما ، وبه يأمن الوقوع فيما أخطأ فيه غيره، ويحسن التخلص منه إن وقع فيه.

وبهذا التفكير الاستقلالي استطاع السيد رشيد رضا أن يتخلص مما في كتاب الإحياء من الخطإ الضار - وهو قليل - كما قدمنا وبه استطاع يتفطن لما في الطرق التي دخلها من ضرر فتخلص منها جميعها للزهد الاسلامي الصحيح والتنسك المشروع وبه استطاع أن يناظر شيخه حسين الجسر في البدع الطرقية ويسلم من تأثيره عليه بماله عليه من حق وفضل.

فالتفكيرَ التفكيرَ يا طلبة العلم فان القراءة بلا تفكير لا توصل إلى شيء من العلم وانما تربط صاحبها في صخرة الجمود والتقليد وخير منها الجاهل البسيط.

بعده عن الوظيف:

كل مسلم عليه أن ينفع بما استطاع في أي حالة كان وما كان الوظيف من حيث هو وظيف بمانع لأحد يحترم نفسه من النفع والخير غير انه في أنواع من الحكومات والأصناف كثيرة من الناس صار الوظيف قيدا في اليد وغلا في العنق. ونحن نعلم ان الاصلاح الديني ما تأخر في القطر المصري والقطر التونسي إلا لأن جميع المتسمين بالعلم متوظفون أو مرشحون للوظيف أو طامعون فيه وكان مما مكن للسيد رشيد رضا في قيامه بما قام به بعده عن الوظيف.

ونحن نرى حتما لزاما على كل من كان يعد نفسه لخدمة الاسلام بنشره والدعوة إليه وبيان حقائقه لأبنائه وغير أبنائه أن يبتعد عن كل وظيف.

نعم كان الشيخ عبده موظفا في الحكومة المصرية. ولكنه قال هو عن نفسه: «لولا ما أرجوه من اصلاح الأزهر والمحاكم الشرعية ما قبلت الوظيف ومن أين لنا أن نجد مثل هذا القصد أو ان نستطيع أن ننفع بالوظيف أو أن نتغلب عليه؟

ان السلامة من سلمى وجارتها أن لا تحل على حال بواديها

هذا ما عن لنا من الاعتبار في هذا القسم من حياة هذا الرجل العظيم وسننشر القسم الثاني في الجزء الآتي ان شاء الله[1].

عبد الحميد بن باديس

---

(1) ش: ج 8، م 11، غرة شعبان 1354 هـ نوفبر 1935 م.

- 3 -

بعد هجرته إلى مصر

سبب الهجرة إلى مصر:

ما كانت البلاد العثمانية في عهد استبداد عبد الحميد لتتسع لمثل السيد رشيد فيما يريده من اصلاح عام وما كان هو ليستطيع الصبر على القعود عما اعتقد وجوبه وجوبا حتميا من النهوض بالاصلاح فكان لزاما عليه أن يفكر في الخروج. ولم يكن يصلح لمقصده الا مصر. هذا إلى ما كان له من الرغبة في الاتصال بالأستاذ محمد عبده والأخذ عنه والتكمل به.

سبب تعلقه بالأستاذ الإمام وأول تعرفه به:

كانت مطالعته لمجلة العروة الوثقى باعثا لإعجابه بالإمام جمال الدين الأفغاني وشغفه والشوق إلى لقائه وكان كاتبه وهو بالآستانة في ذلك ولم يساعده القدر على لقائه وكان حبه للإمام جمال الدين مستلزما لحبه لتلميذه ومعينه ووارث علمه وحكمته ومحرر العروة الوثقى الشيخ محمد عبده وكان السيد قد التقى به ببلدة طرابلس من

أرض الشام وتعرف به وحضر مجالسه فازداد به شغفه وتعلقه. فلما توفي السيد جمال الدين سنة 1314 عزم على الهجرة إلى مصر والاتصال بالأستاذ الإمام .

آثار اتصاله بالأستاذ الإمام:

جاء السيد رشيد إلى مصر وهو عالم مفكر وكاتب متبصر فصحب الأستاذ الإمام صحبة العالم الصغير للعالم الكبير فكان من أول آثار ذلك إصداره للصحيفة الإصلاحية التي كان يستمد روحها من الأستاذ الإمام ثم رغبته في إلقاء دروس التفسير التي كانت أساسا لتفسير المنار ورغبته إليه في اقراء علم البلاغة من كتابي إمامها «دلائل الاعجاز» و«أسرار البلاغة» فكانت قراءتهما فتحا جديدا في العربية كما كانت دروس التفسير فتحاً جديدا في الدين.

وفاء السيد للأستاذ الإمام في حياته وبعد وفاته:

كان السيد الساعد الأيمن والعضد الأشد للأستاذ الامام في جميع ما قام به كما كان الترجمان الصادق عن أفكاره والمِدْرَهَ الصمصام في الدفاع عنه. واستمر السيد على وفائه للاستاذ الامام بعد وفاته كما كان له في حياته وماعرّف المصريين وغير المصريين قدر الاستاذ الإمام وحفظ عليهم أمانته وخلد لهم آثاره إلا السيد رشيد وكان إلى آخر حياته ـ وقد فاق أستاذه في نواح عديدة من العلم ـ لا يفتر يلهج بأستاذه حتى كاد ينسي الناس نفسه وأثره الخاص في الدين والعلم والاصلاح.

مواقفه بعد الأستاذ الإمام:

مضى السيد الرشيد بعد الاستاذ الامام مضطلعاً باعباء خطته الاصلاحية واتسعت آفاق أعماله إلى العالم الاسلامي كله وكان لا بد له من أن يصطدم بالحالة السياسية التي عليها العالم الاسلامي والتي هي بطبيعتها العقبة الكؤود في سبيل كل إصلاح فأصبح السيد رشيد من الفرسان المعلمين في ميدان الإصلاح الديني والاجتماعي وكان في كليهما يصدر عن ايمان ويجالد بقوة وينظر بحكمة ويفحم ببرهان.

غايته السياسية:

لقد كانت غايته السياسية الكبرى إيجاد دولة إسلامية كبرى مرهوبة الجانب تكون مركزا للأمم الإسلامية في العالم بصفة دينية اذا لم تكن بصفة سياسية، وعلى هذه الفكرة ولهذه الغاية ناصر الدستور العثماني وجمعية الاتحاد والترقي فلما تبينت له منهم النعرة المليّة الضيّقة نـاوأهم وعمل على إيجاد مملكة عربية اسلامية مستقلة عن الدولة العثمانية التي كان يرى الاتحاديين سائرين بها إلى الانهيار فانضم إلى الجمعية العربية العاملة في مصر وأوربا لهذا الغرض. ولهذه الغاية كان مع الشريف حسين يوم أعلن الثورة العربية حتى إذا تبين غدر الحلفاء بما كان من معاهدة «سايس ـ بيكو» ورأى الشريف حسين لا يرجع عن اغترارهم بهم ـ نفض يده منه وانقلب عليه وعلى البيت الهاشمي كله. ولغايته التي ذكرنا كان ساير إمام اليمن يوما حتى تبين له ان نطاق المذهب الزيدي لا يتسع لأمم الاسلام ـ وفي أثناء هذا أخذت لوامع الدولة السعودية تلوح في الأفق حتى فاجأت العالم بإزالة العرش الهاشمي المتداعي وانتصابها مكانه بمكة المكرمة، فوجد فيها السيد رشيد ضالته من دولة إسلامية تنفذ الشرع الاسلامي وتقف عند حدوده وتحيي سنته وتقاوم كل ما ألصق به من بدع وضلالات وتنتمي إلى أحد المذاهب الأربعة الكبرى فشمر عن ساق الجد لمؤازرتها وتأييدها وارشادها ووجد من ملكها الملك عبد العزيز آل سعود الرجل المسلم الذي يعمل للدين وينتصح لكل ناصح فيه فسار معه السيد رشيد إلى غاية واحدة حتى قضى وهو في طريق رجوعه من تشييع ولي عهده.

فإذا كان يظهر من السيد رشيد تبدل في سيره السياسي فانما هو تنقل من طريق إلى طريق في سبيل الوصول إلى غاية معينة فلما وجد الطريق اللاحب البين سلكه حتى مات رحمة الله عليه.

أثر السيد رشيد في العالم الاسلامي:

ان السيد رشيد بما نشر من تفسير القرآن الحكيم على صفحات المنار وما كتب في المنار وغير المنار ـ هو الذي جلى الاسلام بصفاته الحقيقية للمسلمين وغير المسلمين

وهو الذي لفت المسلمين إلى هداية القرآن وهو الذي دحر خصوم الإسلام من المنتمين إليه وغير المنتمين إليه وهتك أستارهم حتى صاروا لا يحرك أحد منهم أو من أشباههم يده إلا أخذ بجنايته. فهذه الحركة الدينية الاسلامية الكبرى اليوم في العالم ـ اصلاحا وهداية ، بيانا ودفاعا ـ كلها من آثاره.فرحمه الله وجزاه أفضل ما يجزي العاملين[1].

(1) ش: ج 9، م 11، غرة رمضان 1354 هـ ديسمبر 1935 م.

راحل عظيم

آلمنا وأحزننا ، وأدخل على قلوبنا اللوعة والأسى ، نعي الكاتب الأكبر، والصحفي الأبر، المسلم الصميم والوطني الصادق سيدي عبد الرحمان الصنادلي صاحب جريدة الزهرة، تغمده الله برحمته ورضوانه.

وقد أجاب داعي ربه عن سن يقارب الثمانين، قضى معظمها في خدمة الصحافة بصدق ونزاهة واخلاص.

أسس رحمه الله جريدة الزهراء الفيحاء، منذ 48 عاما؛ فكانت من يوم تأسيسها إلى يومنا هذا من أمهات الصحف التونسية ذات الصدق والثبات.

وكانت في أول أمرها اسبوعية. وكان الراحل العظيم يقاسي الأمرين كل اسبوع لإبرازها، محتملا في ذلك السبيل كل عناء، وفي وسط لم يكن يومئذ يدرك معنى الصحافة ولا يفهم قيمة التضحية الجسيمة التي يتحملها الصحفي لإبراز جريدته. فكان الفقيد يحرر الزهرة الأسبوعية من مقالها الافتتاحي إلى آخر كلمة من إعلاناتها ولطالما شارك مصففي الأحرف عملهم لإنجازها في وقتها.

ولم تكن جريدة الزهرة يومئذ معتدلة اللهجة بالصفة التي عهدها بها قراؤها اليوم؛ بل كانت في مقدمة الصحف الحادة اللهجة، النارية القلم. حتى ان الزعيم الملي المصري الكبير الشيخ عبد الله نديم، كان كثيرا ما ينقل عن الزهرة الفقرات الطويلة في معرض التنديد على الاستعمار واستنكار سياسة الادارة بالبلاد التونسية.

وكانت الزهرة من أجل ذلك مرموقة بعين الريبة من الحكومة، حتى انها عطلتها إداريا مرتين: مرة إثر حملة عنيفة قامت بها ضد الإدارة عندما تأكد انه وقع

الاعتداء على سجين ثم وقع دفنه حيا. ومرة إثر حملة عنيفة قامت بها ضد إدارة المال في مسألة الصتيات الاضافية، وقد شارك في تحرير تلك الحملة رجل من أعيان وفضلاء الوطنيين التونسيين هو الشيخ سيدي حمودة المنستيري أمد الله في أنفاسه.

ولاقى عبد الرحمان الصنادلي رحمه الله جزاء سنمار من مواطنيه، فما كادت الادارة تغلق الزهرة للمرة الثانية حتى تنكرت له الوجوه وانفض من حوله الأحباب والخلان.

وقام يومئذ برحلة طويلة في بلاد الشرق، وأقام مدة ببلاد الكنانة ثم رجع إلى تونس الخضراء، وسعى لإرجاع الزهرة إلى عالم الظهور. فأرجعها يومية إخبارية، وارتسم لها منذ ذلك اليوم خطة لم يحد عنها طول حياته إلى أن توفاه الله خطة الموفق بين مصالح الأمة ومصالح الحكومة؛ والدفاع عن الحق بحكمة واعتدال والوقوف إلى جانب الضعفاء، ومناصرة الدين القويم والأخلاق الفاضلة، حتى أصبحت الزهرة لسان المحافظين التونسيين وطبقة عظيمة من الشعب التونسي، وبلغ من احترام التونسيين للزهرة ولصاحبها انهم لا يصدقون خبرا الا اذا وقع نشره على صفحات تلك الجريدة.

كان الفقيد الكريم عفيفا نزيها، كريم الأخلاق، طلق المحيا، عذب المجلس وكان مرموقا بعين الاحترام من طرف رجال الأمة ورجال الإدارة معا، ولم يؤثر عنه انه غاضب أو هاجم إنسانا، أو تعرض أثناء مناقشاته التي يضطر لدخولها للحياة الخاصة أو ما ليس له تعلق بموضوع المناقشة، شأن كبار الكتاب والأدباء.

وكان الفقيد من عائلة شريفة جزائرية الأصل، من العائلات الماجدة التي هاجرت إثر وقائع الاحتلال. وكان شديد الحب للجزائريين، كثير العطف عليهم، يقول في حديثه عنهم كلما سنحت الفرصة انهم «خير أمة أخرجت للناس».

وقد قامت الأمة التونسية بواجب تشييع جثمان الفقيد قياما محمودا، فكان موكب جنازته من المواكب المشهودة التي شاركت فيها كل طبقات الأمة ورجال الادارتين التونسية والفرنسية.

فإلى رجال الأقلام التونسيين وإلى الصحافة التونسية وإلى عائلة ومحبي الفقيد نقدم باسم الأمة الجزائرية تعازينا القلبية؛ ونتمنى من صميم الفؤاد أن تفتتح جريدة الزهرة الفيحاء، تحت إدارة ابن الفقيد سيدي محمد عبد الرحمان الصنادلي، عصر رقي وسعادة وازدهار متمتعة بثقة وانعطاف كل التونسيين ومفكري الشمال الافريقي بأسره[1].

(1) ش: ج 8. م 11. غرة شعبان 1354 هـ نوفمبر 1935 م.

العلامة الأستاذ الشيخ
محمد بخيت المطيعي رحمه الله

ما كاد يندمل جرح العالم الاسلامي بوفاة حجة الاسلام السيد رشيد رضا حتى فجع بوفاة مفتي الاسلام الشيخ محمد بخيت المطيعي في رجب الماضي.

ونحن نكتب اليوم كلمة عن فضيلته كما كتبنا من قبل عن السيد رشيد وما كان قلمنا القاصر ليوفي واحداً منهما حقه.

منزلته العلمية:

نال شهادة العالمية من الدرجة الأولى سنة 1393 هـ وتصدى لخدمة العلم والازدياد منه بالتدريس بجد منقطع النظير ومداومة ليس فيها فتور فكان علما في سائر العلوم الأزهرية ، وكان ممتازاً بين كبراء الأزهر بتحقيق الأصلين: علم الكلام وأصول الفقه وكان بسعة علمه وقوة ادراكه وتمييزه يرفع الخلاف في كثير من أمهات المسائل ويبين أن الخلاف فيها لفظي وان أصل المسألة محل اتفاق.

منزلته في القضاء والفتوى:

دعي إلى الاشتغال بالقضاء فتقلد وظائفه وتنقل بينه وبين الفتوى حتى بلغ أعلى درجاتها فلما بلغ سن التقاعد تفرغ للافتاء العالمي فكانت ترد عليه الأسئلة من جميع أقطار العالم الاسلامي ويجيب عنها وكان له كتاب يتولون له كتابة ما يحرره ويمليه ويرسلونه إلى السائلين وينفق هو على ذلك كله من خالص ماله.

موقفه من الإصلاح الديني:

كان زميلاً للشيخ محمد عبده في الطلب وهو الوحيد من شيوخ الأزهر الذي كان يساميه وينال معه حظا من الشهرة خارج مصر وكان ـ على معارضته له في نواح ـ يؤيده في إنكار البدع والمحدثات في الدين.

إنصافه للأستاذ الإمام وشهادته له:

لما زمى بعض حساد الشيخ عبده أيام تصديه لأخذ شهادة العالمية بالتهاون بالصلاة شهد له الشيخ محمد بخيت عند مشيخة الأزهر فقال[1] : «اننا دائما نقدمه فيؤمنا في صلاة الجماعة لتقواه وصلاحه».

ولما عقدت أول حفلة لذكرى الشيخ محمد عبده وكانت يوم الثلاثاء 16 ذي القعدة 1340 هـ بالجامعة المصرية[2] كانت تحت رياسة الشيخ محمد بخيت فخطب في تلك الحفلة ومن جملة ما قال عن الأستاذ الإمام[3] «ترك فراغاً عظيماً كان يشغله وحده، لم يستطع أحد أن يشغله بعده.» فرحم الله تلك الأرواح الطاهرة والنفوس الكبيرة.

علاقتي به:

لما رجعت من المدينة المنورة على ساكنها وآله الصلاة والسلام سنة 1332 هـ جئت من عند شيخنا العلامة الشيخ حمدان الونيسي المهاجر إلى طيبة والمدفون بها رحمه الله ـ جئت من عنده بكتاب إلى الشيخ بخيت وكان قد عرفه بالاسكندرية لما مر بها مهاجرا. فعرجت على القاهرة وزرت الشيخ بخيت بداره بحلوان مع صديقي الاستاذ اسماعيل جعفر المدرس اليوم بالأزهر فلما قدمت له كتاب شيخنا حمدان قال لي: «ذاك رجل عظيم» وكتب لي اجازة في دفتر اجازتي بخط يده. رحمه الله وجازاه عنا وعن العلم والدين خير ما يجزي العاملين الناصحين[4].

---

(1) ج 1 ص 1043 تاريخ الاستاذ الامام.

(2) ج 1 ص 1052 منه.

(3) جريدة المقطم الصادرة في 18 ذي القعدة 1340.

(4) ش: ج 11. م 11. غرة ذي القعدة 1354 هـ فيفري 1935 م.

الفقيد العظيم الأمير خالد بن الهاشمي

خمسة أسطر فقط، في زاوية مهملة من زوايا جريدة الديبيش الجزائرية؛ ذلك كل ما قرأناه وما سمعناه في صحف الشمال الإفريقي عن نعي بطل من أبطال الإسلام؛ ورجل من رجال العرب؛ وفذ من أفذاذ الجزائر الذين ندر ان تنجب البلاد أمثالهم الا بعد مرور العقود العديدة من السنين.

مات الأمير المعظم، والشهم الممجد، والوطني المقدام؛ صاحب المجد الأثيل، والنبل الأصيل، الحسيب الشريف، الجامع بين التالد والطريف، الأمير خالد؛ بن الأمير الهاشمي، بن سلطان الجزائر وفخر المجاهدين، السلطان الحاج عبد القادر بن محي الدين.

مات الذي تألق بدراً لامعا في سماء القطر الجزائري، وسطع كوكبا زاهيا في أفق السياسة المحلية والفرنسية؛ وكانت الصحف في الشمال الافريقي، وفي فرنسا بأسرها، وفي أغلب بلد أوربا وكل بلاد الشرق، تهتف باسمه، وتردد أعماله، وتحرر الفصول الطويلة وتخصص الأعداد الجسيمة لمحاربة سياسته أو لتحبيذ خطته، مات ذلك الرجل في دار الغربة وان كان بين الأهل وذوي القربى ؛ وفي مقر الإبعاد، وان كان في مسقط الرأس؛ فما اهتزت لموته أسلاك البرق؛ ولا تحركت لنعيه شركات الأخبار. وبقي خبر موته مجهولا إلى أن وردت صحف سوريا إلى باريس؛ وهنالك تفضل مراسل الديبيش بإرسال الأسطر الخمسة إلى جريدته، فنشرتها بدون تعليق.

وهكذا. واأسفاه. يموت عظماء الرجال في الشرق العربي.

في دمشق الشام، كانت ولادة الأمير الراحل العظيم. ولقد عني والده الأمير الهاشمي بتربيته وتثقيفه. فكان الأمير خالد رحمه الله من أنبغ وأظهر أحفاد السلطان عبد القادر.

وعند ما عزم الأمير الهاشمي على الاستقرار بالقطر الجزائري. بعد أن تحصل على رضى السلطة الفرنسية العليا؛ اصطحب معه عائلته والأمير خالد الصغير. وهنا ترعرع وشب خالد في الأرض التي كانت ميدانا لجهاد جده، ومنبتا كريما لآبائه وأجداده. فهام حبا بالبلاد الجزائرية . وجعل التفاني في خدمتها مثله الأعلى في الحياة. وما فتئ يخدمها بقلمه وبلسانه حتى لفظ نفسه الأخير.

دخل المدرسة العسكرية الفرنسوية في سان سير، عندما أتم دراسته فأظهر تفوقا كبيرا في الفنون العسكرية. وغادر تلك المدرسة ذات الشهرة العالمية برتبة ضابط. وخاض بتلك الرتبة غمرات الحروب الفرنسية حتى أواخر الحرب العظمى، وخرج من تلك المعامع برتبة قبطان.

كانت الجزائر في تلك الأوقات تعاني أزمة من أغرب وأفتك الأزمات. فالحقوق معدومة، والمظالم مرهقة؛ والضرائب فادحة، والأحكام الزجرية قاسية رهيبة. ولا يكاد يجتمع ثلاثة من المسلمين حتى يكون البوليس رابعهم. وقد انحطت الأخلاق تجاه هذه النكبات. وألفت النفوس الخنوع والانزواء. ومن تكلم أو تحرك عد ثائرا مقاوما للسلطة.

هكذا انقضت سنوات الحرب، انما كانت الآمال معلقة على النهاية الحربية، وعلى الوعود التي كانت حكومة فرنسا قد قطعتها لسكان هذه البلاد؛ وكررتها على لسان رئيس وزرائها م.كليمانصو الملقب بالنمر.

أوشكت الحرب أن تنتهي. وكان الأمير خالد قد تحصل على إجازة طويلة، فرجع إلى القطر الجزائري. وأخذ يجس نبض مواطنيه ويستعلم عن نواياهم نحو وطنهم، وهل هم مستعدون للقيام بحركة سياسية تجعل الحكومة تنفذ سريعا وعودها بتحرير القطر الجزائري؛ فلم يجد عندئذ الا الخوف والجمود.

وكانت الأفكار الولسونية قد ملأت العالم في ذلك الوقت؛ وأصبحت عقيدة تدين بها كل الشعوب المغلوبة على أمرها.

فرأى الأمير خالد يومئذ أن يرمي بدلو الجزائر بين الدلاء. ويعرض قضيتها على الرئيس ولسون أثناء انعقاد مؤتمر فرساي حتى اذا ما نجحت حركة تحرير الشعوب، كان الشعب الجزائري من جملة من يشملهم ذلك التحرير.

خاطب الأمير خالد يومئذ ثلة من الرجال الذين كانوا في طليعة الحركة السياسية، أمثال الدكتور بلقاسم بن التهامي، والسيد عمر بو ضربة، والسيد الزروق محي الدين وبعض أضرابهم. فوجد منهم المقاومة والإعراض. واضطر إلى العدول عنهم واتخاذ رجال آخرين من الشبان التفوا حوله، وعلى رأسهم الكاتب القدير والمحامي الكبير السيد قايد حمود، نزيل المغرب الأقصى اليوم.

حرر الأمير خالد ورجاله عريضة للرئيس ولسون، بينوا فيها حالة الجزائر في ذلك الوقت، وطلبوا فيها إدخال القطر الجزائري تحت رعاية جمعية الأمم، وتحت إشراف وعناية دِولة تختارها تلك الجمعية ولم تكن جمعية الأمم يومئذ قد خرجت لعالم الوجود. فلما ولدت ضعيفة هزيلة؛ ولما أخفق ولسون في تنفيذ أفكاره العالية السديدة، ولما انتصرت الأفكار القديمة الاستعمارية التي يمثلها لويد جورج وكليمانصو وأضرابهما. خابت آمال الأمم الصغيرة المستعمرة، وانهالت صروح الأوهام التي تعلقت على ذلك المشروع الجميل. ورجعت كل أمة إلى حكومتها تفاوضها وترجو أن تتحصل منها على أقصى ما تستطيع من الحقوق والحريات.

يومئذ أخذ خالد رحمه الله يرسم خطة مفاوضة الحكومة الفرنسية، ويكوّن واجهة من المسلمين الجزائريين. ويسعى للإحراز على الحقوق الفرنسية التي وعدت بها حكومة فرنسا مسلمي الجزائر.

كانت أفكار مسو كليمانصو يومئذ تميل إلى إعطاء حقوق الجزائريين كاملة غير منقوصة. ولو أن هذا الرجل الجريء في الحق تمكن من تحقيق أفكاره لكانت القضية الجزائرية قد وجدت حلها النهائي ولكانت البلاد الجزائرية اليوم تسير في طريق غير الطريق الذي تسلكه الآن إلا ان مسيو جونار الوالي العام يومئذ، ومعه جميع

القوات الاستعمارية والتمثيلية في الجزائر، تعرض لما يسميه الاسراف في منح الحقوق للجزائريين بدون عصر انتقال. مؤكداً هو ومن معه ان هذه الحقوق ستكون سببا في تدهور الاستعمار الفرنسي وفي إحداث انقلاب بالجزائر عظيم الخطر بعيد المدى.

وكان من نتائج هذه الحركات أن تولدت إصلاحات 4 فبراير عام 1919 وكانت من جهة مفيدة للعنصر الأهلي، حيث أوجدت المساواة في الضرائب، وألغت الضرائب الأهلية، وألغت القوانين الزجرية الصارمة، وزادت في عدد الناخبين للمجالس التمثيلية المحلية.

إلا ان تلك الإصلاحات كانت عقيمة من الوجهة السياسية، ولم تتحقق بها آمال الذين أرادوا أن يروا الجزائر سائرة مع فرنسا على قدم المساواة التامة في الحقوق والواجبات ، فوقع استياء من الجانبين.

من الجانب الأوربي وقعت حملات عنيفة ضد الحقوق التي خولتها قوانين سنة 1919 للمسلمين وثارت ثائرة المستعمرين ضدها. ومن الجانب الإسلامي وقعت حملات ضد هذه الحملات. واستمرت المطالبة بالحقوق السياسية التي لم تعترف بها قوانين عام 1919.

وتكونت يومئذ في القطر الجزائري واجهتان متشاكستان. الواجهة الإسلامية وعلى رأسها الأمير خالد، تدافع عن حقوقها دفاع البطل المستميت، وتقوم بحملتها في فرنسا وفي الجزائر بواسطة الخطب والصحف وبواسطة الدعاية والنشريات المختلفة، والواجهة الاستعمارية وعلى رأسها مسيو ابو. الذي جمع مؤتمر شيوخ مدن القطر الجزائري، وقرر أن الحقوق التي اكتسبها الأهالي. وخاصة حقوق التسلح بدون مانع، توشك أن تحدث الثورة في الجزائر، وأن تضع حدا للسلطة الفرنسية في البلاد.

وكان الوالي العام الذي أرسلته فرنسا لتنفيذ قوانين 4 فيفري عام 1919 قد أخفق وظهر عجزه، وهو مسيو أبيل، وتفاقم أمر الهيجان الذي قام به المستعمرون ضد الأمير خالد والحقوق الأهلية . واستمال المستعمرون إليهم ثلة من رجال السياسة الأهلية الذين أفقدتهم حركة الأمير خالد كراسيهم النيابية ورمت بهم إلى آخر

الصفوف، فشكلوا وفداً منهم ذهب إلى فرنسا يطلب وضع الأغلال في أعناق قومه، والرجوع عن الحقوق المكتسبة، وخاصة إرجاع أحكام الاندجينا، لكي يزول الهيجان الأهلي على زعمهم. واننا لفي غنى عن ذكر أسماء هؤلاء الرجال. فالحادث لا يزال جديدا، وأسماؤهم لا تزال عالقة في الأذهان. كانت نتيجة هذه المؤامرة بين المستعمرين وأنصار المستعمرين، إلغاء كثير من حقوق سنة 1919. وإرجاع أحكام الاندجينا بصفة قاسية. فما انتهى معظمها إلا سنة 1930، ولا يزال بعضها وهو المتعلق بالنفي الإداري جاريا إلى هذه الساعة.

جاء مسيو استيق واليا عاما للجزائر، وهو من عمد رجال الحزب الراديكالي. إلا أن راديكاليته لم تصل إلى درجة الاعتراف للمسلمين بحقهم المكتسب. فتمالأت القوى الحكومية والقوى الاستعمارية، والقوى التابعة للاستعمار، ضد الحركة التي قادها الأمير خالد ومعه جماهير الشعب التي رفعته إلى مقام الزعامة الحقيقية واستعدت للسير معه حيث يسير. واكتسحت تحت قيادته كل من أراد التعرض له في ميادين الانتخاب، فالاندفاع الشعبي الذي حصل في القطر الجزائري تحت زعامة خالد، هو نفس الاندفاع الشعبي الذي نسمع عنه في مصر تحت زعامة كبار الوفديين.

أخذت الحكومة، وأخذ الاستعمار وأنصار الاستعمار يضيقون النطاق حول خالد وأنصار خالد، فانفض من حوله كل الذين كان يعتمد عليهم، وعاداه أغلب من كان قد والاه. ووجد نفسه وحيدا أمام أمة منقادة طائعة، قصارى ما تستطيع عمله هو انها توصله إلى كراسي النيابة، وأمام قوة استعمارية رهيبة آلت على نفسها أن تمحو اسمه من الوجود في الجزائر. وأمام رجال كونهم من العدم السياسي وأخرجهم لعالم الظهور فقلبوا له ظهر المجن وأصبحوا حربا عليه ووبالا.

وكانت الحكومة تجهز يومئذ قوتها للقضاء عليه بصفة زاجرة. وتهيئ عدتها لتنفيذ ذلك بعد أن مسكت بين أيديها زمام سائر النواب المسلمين وجعلتهم كتلة مع زملائهم الفرنسيين ضد خالد وجموع الأمة التي تدين له بالزعامة.

عندئذ تدخل في الموضوع السيد عمر بو ضربة من أعيان الجزائر، ومن أضداد خالد سياسيا منذ الساعة الأولى. ومن أصدقائه الشخصيين رغم ذلك. فخابره في أمر التوسط بينه وبين الحكومة على أن يترك القطر الجزائري مختارا. فتنتهي تلك

الأزمة التي وصلت إلى أقصى حدود التحرج. وله أن يعود بعد ذلك عند ما تهدأ الأعصاب وتنتهي حالة الهيجان.

رأى الأمير الزعيم أن بقاءه في الجزائر قد أصبح عديم الجدوى. وانه ربما استطاع أن يخدم أمته بابتعاده عن الوطن أكثر مما يخدمها بمواصلة النضال تجاه قوى متحالفة ضده ولا قبل للأمة بمقاومتها. فقبل المفاوضة مع الوالي مسيو استيق على قاعدة الارتحال. وقام السيد بو ضربة بهذه الوساطة. فتم الأمر على أن تدفع الحكومة عن الأمير الخالد سائر ديونه وكانت نحو 85 ألفا. وأن توصله للقطر السوري حيث يقيم أعمامه وبنو عمومته. وتترك له جرايته التي يتقاضاها عن تقاعده العسكري والجراية التي يتقاضاها بصفته من ذرية الأمير عبد القادر. وقد كان مسيو مورينو ونواب الجزائر في مجلس الأمة الفرنسي يسعون لقطع هذه الجرايات عنه.

تمت الصفقة على هذه الطريقة، واستقال الأمير من عضوية المجالس البلدية والعمومية والمالية؛ ثم سافر الى البلاد السورية ينتظر الفرج القريب.

خلا الجو لأضداد الأمير إثر سفره، فحاولوا أن يدنسوا سمعته وأن يلوثوا عرضه السياسي؛ وحاولوا أن يلصقوا به ظلما وتشفيا وانتقاما وصمات يعلم الله ويشهد المخلصون المطلعون على سير الأمور براءته منها. وان غاب النسر تنسرت البغاث. انما الأمة الاسلامية في القطر الجزائري لا تزال ولن تزال تحتفظ بذكرى الأمير الجليل والزعيم المبجل كما تحتفظ أشراف الشعوب بأقدس الذكريات.

مكث الأمير في بلاد الشام ينتظر الفرص للرجوع إلى وطنه، ويستعد للعمل من جديد في سبيل أمته؛ الا ان الحكومة كانت قد وضعت بينه وبين ذلك السبيل سدا من حديد، أخفقت أمامه كل المحاولات. ولم تنجح في فله أية وسيلة.

وأصبح مركز الأمير في بلاد الشام مركزا حرجا والرجل الذي خلق للجد والعمل والنضال لا يستطيع أن يألف حياة الدعة والسكون والاخلاد للراحة. وبلاد الشام كانت ولا تزال منذ نصب نظام الوصاية عليها أبعد بلاد الله عن فتح العمل في وجه المناضلين أصحاب الصلابة وشدة المراس.

وشاء ربك أن يخفف كربة الأمير المادية؛ إن لم يخفف عنه كربته الأدبية؛ فتسمى مندوبا على بلاد سوريا من قبل حكومة باريس مسيو دي جرفنيل. وكان صديق الجزائر والجزائريين مسيو جون ميليا صاحب كلمة لا ترد عنده ؛ فاستعمل كل نفوذه لفائدة الأمير خالد وفتح أبواب العمل لنجله في دار المفوضية الفرنسية؛ وسعى في زيادة جرايته.

الا ان نفس الأمير العظيمة لم تستطع السكوت . فكان دائم الحركة لأجل القضية الجزائرية. وكان دائم السعي قصد الرجوع لبلاد الوطن. فسافر المرار العديدة لفرنسا. ووقعت قلاقل بينه وبين السلطة العدلية في البلاد هناك، وألقى في باريس المحاضرات الضافية عن القضية الجزائرية، وقدم العرائض إلى رجال الحكومة وعمد الأحزاب بباريس.

وكانت مطالبه يومئذ تكاد تكون نفس مطالب الجزائريين اليوم؛ ان لم تكن أوسع منها قليلا. ومن هذه المطالب التي قدمها لمسيو هريو سنة 1925، ترى ان رجال السياسة في الجزائر، سواء من سبق منهم ومن لحق، لا يزالون يطالبون نفس ما كان يطلبه الأمير خالد، ولو كانوا من مخالفيه وشانئيه.

وهذا نص المطالب التي قدمها إلى مسيو هريو رئيس وزراء فرنسا يومئذ:

1 ـ اعطاء حق الانتخاب للمسلمين الجزائريين لتكون لهم في مجلس الأمة ومجلس الشيوخ نيابة تساوي في عددها نيابة الفرنساويين الجزائريين.

2 ـ الغاء سائر القوانين الزجرية والاستثنائية والمحاكم المختصة. والرجوع إلى القوانين التابعة للحق العام.

3 ـ المساواة في الحقوق التامة مع الفرنسيين في المسائل العسكرية.

4 ـ الاعتراف بالحق للمسلمين الجزائريين في الوصول إلى كل درجات التوظف العمومي غير متقيدين إلا بشرط الكفاية.

5 ـ تنفيذ قانون التعليم الإجباري على سائر المسلمين؛ مع اعطاء الحرية للتعليم الحر.

6 ـ حرية الصحف والقول والمؤسسات.
7 ـ تنفيذ قوانين فصل الدولة عن الكنيسة ، على الشرع الاسلامي.
8 ـ اعلان العفو العام.
9 ـ تنفيذ القوانين الاجتماعية وقوانين حماية العمال على المسلمين.
10 ـ الحرية التامة لسائر المسلمين في السفر لفرنسا بدون قيود.

هذه هي المطالب التي كانت برنامج الأمير خالد السياسي، وعنها كان يناضل بالقول وبالكتابة في جريدة الإقدام الشهيرة باللغتين؛ وبالمحاضرات. واستمر على المطالبة بها إلى آخر نفس من حياته.

منذ عام 1930 أيقن الأمير رحمه الله أن كل مساعيه للرجوع إلى أرض الوطن تذهب أدراج الرياح. فاستسلم لحظه العاثر. وبقي في بلاد الشام، يتردد بين بيروت ودمشق ، ويتردد عليه محبوه وعارفو فضله ، وقد كانت نفسه ممتلئة أسي ولوعة ، وقلبه مفعم ألما وغماً، فقضي أواخر سني حياته يائساً بائساً مضعضع البال، مضطرب الحال، إلى أن وافاه أجله المحتوم يوم 9 يناير 1936، وهو في العقد السادس من عمره، ولما ينقض بعد نصف شهر على انتقال شريكة حياته لعالم البقاء.

كان رحمه الله وطيب ثراه، مسلما صادقا متين الإيمان، عفيف النفس طاهر الذيل، كريما جوادا، شهما أبيا؛ صريحا إلى أقصى درجات الصراحة؛ صلبا في الحق لا يلين ولا يعترف بوجوب المرونة السياسية، يحسن قيادة الجموع ولا يحسن قيادة الأفراد، وكان ذلك من أهم أسباب فشله، وكانت صرامته وصلابته سببا في نجاح المستعمرين لتأليف عصبة من بني جلدته ضده.

وكان فصيحا عذب المنطق، يخطب بالعربية كأحسن العرب، ويخطب بالفرنسية كأحسن الفرنسيين، له قلم في اللغتين سيال بليغ ، وله قوة اقناع غريبة ، وله حسن قبول عند جميع الناس ، فما جالس أحدا أو تحدث إلى أحد إلا أرغمه على حبه واحترامه ولو كان من أكبر حاسديه وأعدائه.

لقد خسرت فيه الأمة الجزائرية زعيما محبوبا مخلصا قلما جاد الزمان بمثله. وخسرت العروبة فيه بطلا من خير أبطالها في هذا الزمن الأخير، وخسر العالم الاسلامي فيه رجلا من خير الرجال العاملين، فاللهم تقبل بفيض رحمتك وغفرانك هذا الذي نبكيه، ولا يسلينا على فقده لأ نه في نعيم الجنان، بين الرضي والرضوان، لدى الكريم الديان[1].

---

(1) ش: ج 11. م 11. غرة ذي القعدة 1354 هـ فيفري 1936 م.

وحدة الشمال الافريقي

ـ 1 ـ

أبناء المغرب العربي، في الشرق العربي

حيثما توجهنا إلى ناحية من نواحي التاريخ وجدنا هذا المغرب العربي - طرابلس، تونس، الجزائر، مراكش - يرتبط بروابط متينة روحية ومادية تتجلى بها وحدته للعيان. ولسنا نريد هنا أن نتحدث عن التاريخ القديم وانما نريد أن نعرض صفحة من التاريخ الحديث الجاري.

مضت حقبة من الدهر كاد فيها الشرق العربي أن ينسى هذا المغرب العربي وإلى عهد قريب كانت صحافة الشرق ـ غالبا ـ لا تذكره الا كما تذكر قطعة من أواسط افريقية ومجاهلها، بل في هذه الأيام يغمط حقه ويتجاهل وجوده في كتب لها قيمتها كـ«ضحى الإسلام» وغيره. ولكن هذا المغرب العربي ـ رغم التجاهل والتناسي من اخوانه المشارقة ـ كان يبعث من ابنائه من رجال السيف والقلم من يذكرون به، ويشيدون باسمه، ويلفتون نظر اخوانه المشارقة إلى ما فيه من معادن للعلم والفضيلة، ومنابت للعز والرجولة، ومعاقل للعروبة والاسلام، ناهيك بالأمير عبد القادر المجاهد الجزائري وأبنائه الذين شاركوا في مشانق جمال وثورة الغوطة وبحفيده الأمير خالد زعيم الجزائر الذي مات بمنفاه بالشام، وبسليمان باشا الباروني الطرابلسي والشيخ السنوسي الطرابلسي الجزائري الأصل وبالشيخ طاهر الجزائري الأصل وبالشيخ عبد

العزيز الثعالبي زعيم تونس الجزائري الأصل والشيخ الخضر حسين التونسي الجزائري الأصل والشيخ تقي الدين الهلالي المراكشي وغيرهم. فقد كان هؤلاء السادة الأعلام كما يرفعون اسم المغرب العربي في الشرق العربي يمثلون وحدة هذا المغرب، وقد دعانا إلى تحرير هذا والتنعم به ما رأيناه في عدد «الفتح» الممتاز من ذكر ورسم لبعض هؤلاء السادة الذين ذكرنا. فقد أصدر الأخ المجاهد الاستاذ محب الدين الخطيب عددا ممتازا من مجلته الراقية بمناسبة دخولها في السنة الثانية عشرة من سني جهادها وذكر عددا من الذين شاركوه في الجهاد أو كان منهم تأييد له فيه ونشر رسومهم فكان من جملتهم خمسة يمثلون المغرب العربي هم الشيخ طاهر الجزائري وسليمان باشا الباروني الطرابلسي والشيخ الخضر ابن الحسين التونسي والشيخ تقي الدين الهلالي المراكشي والشيخ ابراهيم اطفيش الجزائري ونحن نحلي جيد هذا الجزء برسومهم وننشر ما كتبه الأخ الاستاذ محب الدين عنهم فيما يلي:



شيخي

هو الذي ربي عقلي، وهو الذي حبب إلي هذا الاتجاه الفكري منذ كنت طفلا إلى أن صرت رجلا. ولا أعرف مؤلفاً ولا حامل قلم نشأ في ديار الشام إلا وقد كانت له صلة بهذا المربي الأعظم واستفادة من عقله وسعة من فضله إما مباشرة أو بواسطة الذين استفادوا منه. وكل الذين جاهدوا هناك لأجل الحرية، وفي سبيل المعارف، ولاحياء علوم السلف، ولإعادة مجد العروبة والإسلام، انما كانوا من اخوانه وهو واسطة عقدهم ورأس مجالسهم، أو من طبقة تلاميذه وهو قدوتهم ومطمح أنظارهم أو من الذين أخذوا عن تلاميذه وهو مضرب المثل عندهم في كمال العقل وسعة الاطلاع التي لا حد لها، وبالاجمال هو جرثومة الخبر الأولى من أيام ولاية مدحت باشا على سوريا إلى أن هاجر هذا الرجل العظيم إلى مصر حوالي سنة 1225 هـ فكان موضع حرمة كل من يعرف الفضل من أهلها كتيمور باشا وأحمد بك الحسيني وأحمد زكي باشا والشيخ علي يوسف وأمثالهم وأهم كتب السلف النافعة التي نشرها الناشرون انما نشروها بإشارته وتحريضه. وانا وكل ما نشرته لسنا إلا قطرة من بحر الخير الذي كان يتدفق من صدر هذا العالم العامل الذي كانت الدنيا لا تساوي عنده جناح بعوضة، وليس له فيها من أمنية إلا أن يرى عز الإسلام يعود كما كان في أيام القوة والعدل والعلم وتقوى الله عز وجل. اني لأرمي نفسي بالعقوق وانكار الجميل كلما فكرت في ابطائي حتى الآن عن القيام بحقه علي للتاريخ، ولكن إذا عظم المطلوب خارت القوة دونه، وحياة الشيخ طاهر الجزائري حياة دور من أدوار الاصلاح بل هي تاريخ الأمة في حقبة من حياتها. ولا بد أن أقوم بهذا الواجب في يوم من الأيام. رحمة الله عليه ومغفرته ورضاه.

الشيخ محمد الخضر حسين

العلامة الجليل الاستاذ السيد محمد الخضر حسين في مقدمة الأفاضل الذين أمدوا هذه الصحيفة بآثار فضلهم من سنتها الأولى إلى الآن. فما هوجم الإسلام في وقعة إلا وكان للاستاذ حفظه الله دفاع أمتن من الفولاذ. وأرسخ من الجبال الراسيات.

والسيد حفظه الله محبوب من كل محب للاسلام، معروف فضله لكل من اتصل به من أبناء المشرق والمغرب. وقد تعود من صدر حياته أن يحمل دنياه على آخرته. وأن يضحي بالأولى في سبيل الأخرى إذا تعارضتا.

نرجو الله أن يمد في حياته، وأن يزيده قوة على الخير.

جانب عامر من جوانب القيادة

نحن نشكر دائما ضعف القيادة في العالم الاسلامي، وللضعف مظاهر وأعراض ذات ألوان مختلفة، وكلما وجدنا جانبا من جوانب القيادة عامرا بالاستقامة والصلابة والاخلاص كان حقا علينا أن نحمده ونعلن اغتباطنا به. وصاحب السعادة سليمان باشا الباروني من أعيان هذه الأمة الذين تحلوا بمزية الاستقامة والاخلاص إلى أبعد حد. عرفنا ذلك فيه منذ كان نائبا عن طرابلس الغرب في مجلس المبعوثان العثماني، ثم ازددنا بذلك علما عندما رأينا جهاده المجيد في سبيل الله والوطن بعد حادث الاختطاف الذي كان من إيطاليا لطرابلس الغرب وبرقة. وقد نشرنا في العدد 525 من (الفتح) صورة شمسية لوثيقة صادرة من دائرة حضرة صاحب السمو الأمير عمر طوسن تثبت إصرار سليمان باشا الباروني على إعادة ستة آلاف جنيه قدمت إليه من الاعانات الطرابلسية فردها وقال: «ان الاعانات للمجاهدين والآن لا جهاد». مثل هذه المنقبة الممتازة يحملنا على تزيين هذا العدد الممتاز بصورة القائد المجاهد سليمان باشا الباروني، مغتبطين بما نشرناه له في العدد 532 من كلمات الرضا عن الفتح وخطته.

مد الله في حياته وأدام المحبة بين المسلمين.

صديقنا

هبط صديقنا الاستاذ العلامة الشيخ ابراهيم اطفيش وادي النيل مهاجرا إليه من وطنه الجزائر من قبل أن يولد الفتح، واكتسبنا صداقته من السنة الأولى التي اتخذ فيها الوطن المصري وطنا ثانيا له، فكنا نحن وجميع أفاضل المصريين نعجب بصدقه وصلابة دينه واستعداده للمشاركة في كل خير، فما قامت لخير الاسلام جماعة من ذلك الحين، ولا أرسل المنادون إلى الفلاح صوتهم في أمر، إلا كان الاستاذ أبو اسحاق الشيخ ابراهيم اطفيش في مقدمة المعينين على ذلك. ومقالاته المتعددة في هذه الصحيفة وفي اختها الزهراء شاهد على فضله، ودليل على حسن بلائه في سبيل وحدة المسلمين. جزاه الله خيرا.

الاستاذ الهلالي

الفاضل فاضل حيثما كان، كما ان الشمس شمس شرقت أم غربت. والاستاذ العلامة السيد محمد تقي الدين الهلالي ـ صاحب الفصول الممتعة والبحوث الجليلة في صحيفة الفتح ـ من أفاضلنا الذين أجمع على الاعتراف بفضلهم الشرق والغرب، والعرب والعجم، والمسلمون وغير المسلمين. فهو في الحجاز نار على علم شهرة وفضلا. وفي الهند تبوأ منصة التدريس في أرقى جامعاتها وفي العراق معروف بدؤبه على خدمة هذه الأمة وحرصه على خيرها، وهو الآن في المانيا موضع الحرمة من أركان جامعة بن التي يتولى التدريس فيها..

فالاستاذ الهلالي رجل عالمي واسع النظر واقف على أحوال الشرق والغرب لذلك كان ما يقرره في بحوثه من حقائق يأتي ناضجا مفيدا ممتعا، ومن حسن الحظ ان قراءنا يقدرون رجالهم كما نقدرهم وكل ما يكتبه الاستاذ الهلالي واضرابه في الفتح يأتي بالفائدة المرجوة منه والحمد لله[1].

(1) ش: ج 5. م 13. جمادى الأولى 1356 هـ جوليت 1937 م.

عبد العزيز الثعالبي

هكذا أذكره دون لقب أو صفة فان هذا الاسم لم يبق علما على ذات مشخصة تحتاج إلى صفاتها وألقابها بل صار في أذهان الناس علَماً على الرجولة والبطولة والزعامة. وعلى التفكير والعمل والتضحية وعلى الإسلام والشرق والعروبة وعلى وحدة افريقية. فإذا قلت عبد العزيز الثعالبي فقد قلت هذا كله.

أسرة الثعالبي جزائرية وهو مولود بالجزائر وجده ممن شاهد بعضاً من معارك الجزائر في رد الحملة الفرنسية وأصيب برصاص العدو بقيت آثاره في صدره فكان يكشف عن ذلك الصدر لعبد العزيز في صغره. ويذكر له الجزائر والاستلاء عليها وهجرته هو وغيره من الجزائريين من ذلك الاستيلاء.

نشأ الثعالبي تونسياً ودرج للعلم زيتونيا وتعدت به عبقريته دائرة الكتب الزيتونية الدراسية الضيقة فأخذ يتناول كل ما تصل إليه يده من خزانة الجامع ومكتبة العبدلية وكانت مباءته بضع سنوات عدة. وكان ذهنه الحاد وحافظته القوية ورغبته الملحة مواهب أكسبته مما درس وقرأ نبوغا في الفهم والتفكير والخطابة والكتابة. فبرز من جامع الزيتونة نابغة عبقريا غريبا شاذا بين أهل عصره شأن كل نابغة عبقري.

لقي عبد العزيز من الجامدين والمستبدين ـ وما زالا على الدهر متواليين ـ ما يلقاه مثله فعوكس وأوذي وسجن ولكنه لم يتزحزح قيد شعرة عما حبس نفسه عليه من إصلاح المجتمع من جميع نواحيه.

رحل الثعالبي للأزهر وحضر دروس البشرى وعاد إلى تونس وقد فتحت له الرحلة عالماً آخر وابتدأ تكونه العلمي بعد الإقليمي ورحل إلى الجزائر والمغرب فتم تكونه الإفريقي.

أعطى الثعالبي تونس حقها ووضع لها كل أسس نهضتها ثم فارقها في رحلته الأخيرة ليعطي حق الشرق والعروبة والاسلام فكان نظام العقد وعنوان الوحدة وروح الاتصال والعلَم الافريقي الخفاق الذي لفت أنظار الشرق إلى الشمال الافريقي وإلى تونس عروس ذلك الشمال.

وكان الثعالبي في الشرق من جهة أخرى برهاناً ساطعاً ودليلاً متنقلاً على ظلم الاستعمار واستبداده، وما يلاقيه الأفارقة من كيده وبلائه ويكذب كل ما يتظاهر به الاستعمار هنالك حيث لم ترسخ قدمه ولم يتم سلطانه.

شعرت فرنسا ـ أخيراً بعظيم ضرر ذلك على سياستها في الشرق العربي والاسلامي فأذنت للثعالبي في العودة لوطنه.

فالاستعمار هو نفى الثعالبي لمصلحته هنا والاستعمار هو رد الثعالبي لمصلحته هنالك. وأبى الله الا أن يستفيد الشرق والعروبة والاسلام من الثعالبي هنالك ويستفيد الشرق والعروبة والاسلام من الثعالبي هنا. فاعتبروا ياأولي الأبصار!

عاد الثعالبي فاهتزت فرحاً افريقيا الشمالية كلها وتونس وطنه والجزائر مسقط رأسه ووطن أسلافه. ورأت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في قدومه اعتزاز الاصلاح الاجتماعي الاسلامي من ناحية الفكر والعلم والأخلاق والسلوك في الحياة ـ وهذا ما تعمل له الجمعية ـ فأبرقت تهنئه وتهنئ الأمة التونسية الشقيقة به ثم رأت أن تعرب عن سرورها بقدومه وإعجابها بمواهبه وتعظيمها لجانبه بذهاب رئيسها لتحيته وتهنئته بقدومه وإبلاغه كل ما تحمله الجمعية والجزائر العربية المسلمة من الحب والاحترام والتعظيم لشخصه.

ذهبت يوم الخميس 14 جمادى الأولى إلى تونس وزرت الثعالبي في داره وبلغته عن الجمعية رسالتها فقابلها بالشكر والثناء وتلقاها بالفرح والسرور وأي سرور هو؟ سرور من وقف نفسه على الإصلاح وفارق الشمال الإفريقي ولا دعوة للإصلاح

فيه ثم جاءه بعد مدة من الدهر فوجد للإصلاح جنداً قوياً وقيادة منظمة وصوتاً عاليا وكلمة نافذة وتقديراً لأمثاله من الرجال المصلحين.

انتهت بهذه المقابلة مهمتي كرئيس للجمعية وموفد من طرفها. وكانت بعد ذلك المجالس والاجتماعات والحفلات والزيارات في دار الشيخ وغيرها مع الشيخ ودونه ـ كانت وكنت فيها كجندي بسيط من جنود العروبة والاسلام. فما شئت من أنس، ونعيم نفس، وكل ما يغذي الروح ويحي الوجدان ويرضي العروبة والاسلام.

وحـــديث ألَــذُّه هـو مما تشتهيـه الـنفوس يـوزن وزنـا

منطـق صـائب وتـلحن أحيـا نا وخير الحديث ما كان لحنا..[1]

(1) ش: ج 7، م 13، رجب 1356 هـ سبتمبر 1937 م.

فقيدا الصحافة الكريمان

الأستاذ محمد الجعائبي

والشيخ مصطفى بن شعبان

رزئت الصحافة العربية بالشمال الافريقي بفقد هذين الركنين العظيمين من أركانها بتونس العزيزة فكان المصاب بهما من نكبتنا المتوالية في ذلك القطر الشقيق فانا لله وإنا إليه راجعون اللهم أجرنا في مصائبنا واخلف لنا خيرا منها.

خدم الاستاذ الجعائبي النهضة التونسية من جميع نواحيها من أول يومه وكانت جريدته «الصواب» حائزة لمركز ممتاز في عالم الصحافة العربية ولقي من نكبات الزمان ما يلقاه كل عامل مثله. وخرج من الدنيا بوسام الصدق والإخلاص والنزاهة، ألا وهو: خفة ذات اليد.

وخدم الشيخ مصطفى النهضة الإصلاحية من يوم ارتفع صوتها في جريدة «المنتقد» الشهيدة فكان أول كاتب من القطر الشقيق وازرنا على العمل وكان دائم العمل في سبيل تونس والشمال الافريقي يوالي كتاباته في الصحافة العربية هنا وهنالك مع عطف شديد ومحبة صادقة لكل إخوانه الذين كانوا يشاركونه في العمل.

فرحم الله الفقيدين وجازاهما خير جزاء العاملين[1].

(1) ش: ج 2. م 14. ربيع الأول 1357 هـ ماي 1938 م.

مصطفى كمال رحمه الله

في السابع عشر من رمضان المعظم ختمت أنفاس أعظم رجل عرفته البشرية في التاريخ الحديث، وعبقري من أعظم عباقرة الشرق، الذين يطلعون على العالم في مختلف الأحقاب، فيحولون مجرى التاريخ ويخلقونه خلقاً جديدا. ذلك هو مصطفى كمال بطل غاليبولي في الدردنيل وبطل سقاريا في الأناضول وباعث تركيا من شبه الموت إلى حيث هي اليوم من الغنى والعز والسمو.

وإذا قلنا بطل غاليبولي، فقد قلنا قاهر الانكليز أعظم دولة بحرية الذي هزمها في الحرب الكبرى شر هزيمة لم تعرفها في تاريخها الطويل.

وإذا قلنا بطل سقاريا فقد قلنا قاهر الانكليز وحلفاءهم من يونان وطليان وافرنسيين بعد الحرب الكبرى ومجليهم عن أرض تركيا بعد احتلال عاصمتها والتهام أطرافها وشواطئها.

وإذا قلنا باعث تركيا فقد قلنا باعث الشرق الاسلامي كله. فمنزلة تركيا التي تبوأتها من قلب العالم الاسلامي في قرون عديدة هي منزلتها فلا عجب أن يكون بعثه مرتبطا ببعثها. لقد كانت تركيا قبل الحرب الكبرى هي جبهة صراع الشرق ازاء هجمات الغرب ومرمى قذائف الشره الاستعماري والتعصب النصراني من دول الغرب، فلما انتهت الحرب وخرجت تركيا منها مهشمة مفككة تناولت الدول الغربية أمم الشرق الاسلامي تمتلكها تحت أسماء استعمارية ملطفة، واحتلت تركيا نفسها واحتلت عاصمة الخلافة وأصبح الخليفة طوع يدها وتحت تصرفها،وقال الماريشال

اللونبي ـ وقد دخل القدس ـ «اليوم انتهت الحروب الصليبية».فلو لم يخلق الله المعجزة على يد كمال لذهبت تركيا وذهب الشرق الاسلامي معها، لكن كمالا الذي جمع تلك الفلول المبعثرة فالتف به اخوانه من أبناء تركيا البررة. ونفخ من روحه في أرض الأناضول حيث الأرومة التركية الكريمة وغيل ذلك الشعب النبيل، وقاوم ذلك الخليفة الأسير وحكومته المتداعية : وشيوخه الدجالين من الداخل، وقهر دول الغرب وفي مقدمتها انكلترا من الخارج ـ لكن كمالا هذا أوقف الغرب المغير عند حده وكبح من جماحه وكسر من غلوائه. وبعث في الشرق الاسلامي أمله وضرب له المثل العالي في المقاومة والتضحية فنهض يكافح ويجاهد. فلم يكن مصطفى محيي تركيا وحدها بل محيي الشرق الاسلامي كله. وبهذا غير مجرى التاريخ ووضع للشرق الاسلامي أساس تكوين جديد، فكان بحق ـ كما قلنا ـ من أعظم عباقرة الشرق العظام الذين أثروا في دين البشرية ودنياها من أقدم عصور التاريخ.

إن الاحاطة بنواحي البحث في شخصية أتاتورك (أبي الترك) مما يقصر عنه الباع ويضيق عنه المجال، ولكنني أرى من المناسب أو من الواجب أن أقول كلمة في موقفه إزاء الاسلام. فهذه هي الناحية الوحيدة من نواحي عظمة مصطفى أتاتورك التي ينقبض لها قلب المسلم ويقف متأسفا ويكاد يولي مصطفى في موقفه هذا الملامة كلها حتى يعرف المسؤولين الحقيقيين الذين أوقفوا مصطفى ذلك الموقف. فمن هم هؤلاء المسؤولون؟

المسؤولون هم الذين كانوا يمثلون الاسلام وينطقون باسمه، ويتولون أمر الناس بنفوذه، ويعدون أنفسهم أهله وأولى الناس به.

هؤلاء هم خليفة المسلمين، شيخ إسلام المسلمين ومن معه من علماء الدين، شيوخ الطرق المتصوفون، الأمم الاسلامية التي كانت تعد السلطان العثماني خليفة لها.

أما خليفة المسلمين فيجلس في قصره تحت سلطة الانجليز المحتلين لعاصمته ساكنا ساكتا. أستغفر الله بل متحركا في يدهم تحرك الآلة لقتل حركة المجاهدين بالأناضول، ناطقا بإعلان الجهاد ضد مصطفى كمال ومن معه ، الخارجين عن طاعة أمير المؤمنين...

وأما شيخ الإسلام وعلماؤه فيكتبون للخليفة منشورا يمضيه باسمه ويوزع على الناس بإذنه، وتلقيه الطائرات اليونانية على القرى برضاه يبيح فيه دم مصطفى كمال ويعلن خيانته ويضمن السعادة لمن يقتله.

وأما شيوخ الطرق الضالون وأتباعهم المنومون فقد كانوا أعوانا للانجليز وللخليفة الواقع تحت قبضتهم. يوزعون ذلك المنشور ويثيرون الناس ضد المجاهدين.

وأما الأمم الإسلامية التي كانت تعد السلطان العثماني خليفة لها فمنها ـ الا قليلا ـ من كانوا في بيعته فانتقضوا عليه ثم كانوا في صف أعدائهم وأعدائه، ومنها من جاءت مع مستعبديها حاملة السلاح على المسلمين شاهرة له في وجه خليفتهم.

فأين هو الاسلام في هذه (الكليشيات) كلها؟ وأين يبصره مصطفى الثائر المحروب ، والمجاهد الموتور ـ منها؟

لقد ثار مصطفى كمال حقيقة ثورة جامحة جارفة ولكنه لم يكن على الإسلام وانما ثار على هؤلاء الذين يسمون بالمسلمين. فألغى الخلافة الزائفة وقطع يد أولئك العلماء عن الحكم فرفض مجلة الأحكام واقتلع شجرة زقوم الطرقية من جذورها وقال للأمم الإسلامية عليكم أنفسكم وعلي نفسي ، لا خير لي في الاتصال بكم ما دمتم على ما أنتم عليه، فكوّنوا أنفسكم ثم تعالوا نتعاهد ونتعاون كما تتعاهد وتتعاون الأمم ذوات السيادة والسلطان.

أما الاسلام فقد ترجم القرآن لأمته التركية بلغتها لتأخذ الاسلام من معدنه، وتستقيه من نبعه. ومكنها من إقامة شعائره فكانت مظاهر الاسلام في مساجده، ومواسمه تتزايد في الظهور عاما بعد عام حتى كان المظهر الإسلامي العظيم يوم دفنه والصلاة عليه تغمده الله برحمته.

لسنا نبرر صنيعه في رفض مجلة الأحكام ولكننا نريد أن يذكر الناس ان تلك المجلة المبنية على مشهور وراجح مذهب الحنفية ما كانت تسع حاجة أمة من الأمم في كل عصر لأن الذي يسع البشرية كلها في جميع عصورها هو الإسلام بجميع مذاهبه لا مذهب واحد أو جملة مذاهب محصورة كائنا ما كان وكائنة ما كانت. ونريد أن يذكر الناس أيضا ان أولئك العلماء الجامدين ما كانوا يستطيعون أن يسمعوا غير ما

عرفوه من صغرهم من مذهبهم وما كانت حواصلهم الضيقة لتتسع لأكثر من ذلك. كما يجب أن يذكروا أن مصر بلد الأزهر الشريف ما زالت إلى اليوم الأحكام الشرعية - غير الشخصية - معطلة فيها. وما زال (كود) نابليون مصدر أحكامها إلى اليوم. وما زال الانتفاع بالمذاهب الاسلامية في القضاء - غير المذهب الحنفي - مهجورا كذلك الا قليلا جدا.

نعم! ان مصطفى أتاتورك نزع عن الأتراك الأحكام الشرعية وليس مسؤولا في ذلك وحده وفي إمكانهم أن يسترجعوها متى شاءوا وكيفما شاءوا ولكنه رجع لهم حريتهم واستقلالهم وسيادتهم وعظمتهم بين أمم الأرض. وذلك ما لا يسهل استرجاعه لو ضاع، وهو وحده كان مبعثه ومصدره، ثم إخوانه المخلصون. فأما الذين رفضوا الأحكام الشرعية إلى (كود) نابوليون فماذا أعطوا أمتهم؟ وماذا قال علماؤهم؟

فرحم الله مصطفى ورجح ميزان حسناته في الموازين، وتقبل إحسانه في المحسنين.

وإلى الأمة التركية الشقيقة الكريمة الماجدة، التي لنا فيها حفدة وأخوال، والتي تربطنا بها أواصر الدين والدم والتاريخ والجوار، والتي تذكر الجزائر أيامها بالجميل، وترى شخصها دائما ماثلا فيما تركت لها من مساجد، ومعاهد للدين الشريف. والشرع الجليل - إلى تركيا العزيزة نرفع تعازي الجزائر كلها مشاركين لها في مصابها راجين لها الخلف الصالح من أبنائها. ومزيد التقدم في حاضرها ومستقبلها.

وإلى هذا فنحن نهنيها برئيس جمهوريتها الجديد عصمت اينونو، بطل (اينونو) ومؤتمر لوزان وثني مصطفى كمال. وان في اجماعها على انتخابه لدليلا على ما بلغته تركيا الكريمة من الرشد في الحياة الذي تبلغ به - ان شاء الله - من السعادة والكمال، ما يناسب مجدها القدوس، وتاريخها الحافل بأعاظم الرجال، وجلائل الأعمال [1].

عبد الحميد بن باديس

---

(1) ش: ج 7، م 14، رمضان 1357 هـ نوفبر 1938 م.

ترجمة الإمام ابن العربي

معتمداً على ما في الديباج لابن فرحون ونفح الطيب للمقري

نسبه وأوليته:

هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد ابن العربي المعافري الإشبيلي الأندلسي.

عرفنا من أوليته أباه، فقد كان فيها من فقهاء بلدة اشبيلية، ذا مكانة ورياسة وحظوة عند ملوكها بني عباد. قال عنه صاحب المطمح: (كان ... بإشبيلية بدراً في فلكها، وصدراً في مجلس ملكها. واصطفاه معتمد بني عباد، اصطفاء المأمون لابن أبي ذؤاد، وولاه الولايات الشريفة. وبوَّأه المراتب المنيفة، فلما أقفرت حمص من ملكهم وخلت، وألقتهم منها وتخلت رحل به إلى المشرق، وحل فيه محل الخائف الفرق، فجال في أكنافه، وأجال قداح الرجاء في استقبال العز واستكنافه، فلم يسترد ذاهباً، ولم يجد كمعتمده باذلاً له وواهبا، ففاء إلى الرواية والسماع، وما استفاد من آمال تلك الأطماع.

وقال عنه ابن فرحون : (سمع ببلده من أبي عبد الله بن منظور وأبي محمد بن خزرج، وبقرطبة من أبي عبد الله بن عتاب وأبي مروان بن سراج، وحصلت له عند

العبادية أصحاب اشبيلية رئاسة ومكانة، فلما انقضت دولتهم خرج إلى الحج مع ابنه القاضي أبي بكر يوم الأحد مستهل ربيع الأول سنة خمس وثمانين وأربعمائة).

وبعد ما مكث بالمشرق بضع عشرة سنة توفي بالاسكندرية أول سنة ثلاث وتسعين.

نشأته:

نشأ أبو بكر في كنف أبيه ـ وقد عرفت من هو ـ فأوضعه أخلاف الأدب وأحضره مجالس العلم فتأدب وقرأ القراءات وسمع من أبيه وخاله أبي القاسم الحسن الهوزني، واستكمل العلم وحصل أسباب الإمامة بعد رحلته إلى المشرق مع أبيه.

وقال هو عن نفسه: حَذقت القرآن ابن تسع سنين ثم ثلاثا لضبط القرآن والعربية والحساب فبلغت ست عشرة وقد قرأت من الأحرف نحوا من عشرة بما يتبعها من إدغام ونحوه وتمرنت في الغريب والشعر واللغة ثم رحل بي أبي إلى المشرق.

رحلته:

رحل مع أبيه في التاريخ المذكور وسنه إذ ذاك سبعة عشر عاما، وقال صاحب المطمح عن سنه وحاله أيام الغربة مع أبيه: «وأبو بكر إذ ذاك في ثرى الذكاء قضيب مادوح، وفي روض الشباب زهر ماصوح، فألزمه مجالس العلم رائحا وغاديا. ولازمه سائقا إليها وحاديا، حتى استقرت به مجالسه، واطردت له مقاييسه فجد في طلبه، واستجد به أبوه متمزق إربه، وبقي أبو بكر متفردا، وللطلب متجردا، حتى أصبح في العلم وحيدا، ولم تجد عنه الرئاسة محيدا».

دخل الشام والعراق وبغداد وحج سنة تسع وثمانين وعاد إلى بغداد ثم صدر عن بغداد وأقام بالاسكندرية ثم انصرف منها إلى الأندلس سنة خمس وتسعين بعد عامين من وفاة أبيه فقدم بلده اشبيلية. وقال صاحب المطمح عن قفوله إلى وطنه: افكر إلى الأندلس فحلها والنفوس إليه متطلعة، ولأنبائه متسمعة فناهيك من حظوة

لقي، ومن عزة سني، ومن رفعة سما إليها ورقي، وحسبك من مفاخر قلدها ومحاسن أنس أثبتها فيها وخلدها».

وإذا كان رحل سنة خمس وثمانين وسنة سبعة عشر عاما ورجع سنة خمس وتسعين فقد قضي في الغربة عشرة أعوام وقفل إلى وطنه إماما عظيما وسنه سبعة وعشرون عاما.

أشياخه:

سمع بالأندلس أباه وخاله وأبا عبد الله السرقسطي وببجاية أبا عبد الله الكلاعي وبالمهدية أبا الحسن بن الحداد الخولاني وبالاسكندرية من الأنماطي وبمصر من أبي الحسن الخلعي ولقي بها أبا الحسن بن مشرف ومهديا الوراق وأبا الحسن بن داوود الفارسي. ولقي بالشام أبا نصر المقدسي وأبا سعيد الزنجاني وأبا سعيد الرهاوي وأبا القاسم ابن أبي الحسن القادسي والأكفاني وابن الفرات الدمشقي. وسمع ببغداد من أبي الحسن الصيرفي والبزاز وابن طرخان ومن النقيب أبي الفوارس الزينبي وجعفر بن أحمد السراج زكريا التبريزي ببغداد أيضاً الشاشي والإمام أبا بكر وأبا حامد الطوسي الغزالي والإمام أبا بكر الطرطوشي.

تلامذته:

أشهر من أخذ عنه القاضي عياض والإمام السهيلي صاحب الروض الأنف والحافظ ابن بشكوال في كثيرين غيرهم.

منزلته في العلم والفضل:

ونريد أن نتعرفها ممن ترجموا له من تلامذته والقريبين من عصره. قال الحافظ ابن بشكوال فيه: «الإمام الحافظ ختام علماء الأندلس، كان موصوفا بالعلم والكمال» وقال ابن سعيد: «هو الإمام العالم القاضي الشهير فخر المغرب» وقال

ابن الزبير: «قيد الحديث وضبط ما روي واتسع في الرواية وأتقن مسائل الخلاف والأصول والكلام على أئمة هذا الشأن وكان فصيحا حافظا أديبا شاعرا كثير الملح مليح المجلس» ثم قال ابن الزبير : «قال القاضي عياض بعد أن وصفه بما ذكرته: ولكثرة حديثه وأخباره وغريب حكاياته وروایاته أكثر الناس الكلام وطعنوا في حديثه».

من يعني القاضي عياض بالناس الذين أكثروا الكلام وطعنوا في حديث ابن العربي؟ قطعا لا يعني بهم العلماء لأننا سمعنا فيما تقدم ما وصفوه به ومنهم القاضي عياض نفسه. وانما عني بهم العامة وأشباه العامة ممن تضيق أذهانهم عن تصور ما لم تره أبصارهم من مثل ما شاهده ابن العربي في مدن الشرق ومدنيته الزاهرة في ذلك العهد ، وتقصر مداركهم عما تحيط به عقول العلماء المتوسعين في العلم الراسخين فيه مثل ابن العربي «خزانة العلم وقطب المغرب».

وهاك واقعة دالة على سعة علم ابن العربي وتحامل أهل القصور عليه حتى جاء إمام عظيم فبين صدقه وقصور أولئك المتحاملين:

قال الزرقاني في شرحه على المواهب في غزوة الفتح: وروى ابن مسدي أن أبا بكر بن العربي قال لابن جعفر بن المرخي حين ذكر أن مالكا تفرد به «حديث أنس في دخول النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ مكة وعلى رأسه المغفر» قد رويته من ثلاثة عشر طريقا غير طريق مالك فقالوا له أفدنا الفوائد فوعدهم ولم يخرج لهم شيئا. وقال الحافظ في نكته: «استبعد أهل اشبيلية قول ابن العربي حتى قائلهم:

يا أهل حمص ومن بها أوصيكم بالبر والتقوى وصية مشفق
فخذوا عن العربي أسمار الدجى وخذوا الرواية عن إمام متقي
إن الفتى ذرب اللسان مهذب إن لم يجد خبرا صحيحا يخلق

وأراد بأهل حمص أهل اشبيلية قال الحافظ : «وقد تتبعت طرقه فوجدته كما قال ابن العربي بل أزيد» فعد ستة عشر نفسا غير مالك رووه عن الزهري وعزاها لمخرجيها قال: «ولم ينفرد الزهري به بل تابعه يزيد الرقاشي عن أنس. أخرجه أبو

الحسن الموصلي في فوائده ولم ينفرد به أنس بل تابعه سعد بن أبي وقاص وأبو برزة الأسلمي في سنن الدارقطني وعلي بن أبي طالب في المشيخة الكبرى لأبي محمد الجوهري وسعيد بن يربوع والسائب بن يزيد في مستدرك الحاكم» قال: «فهذه طرق كثيرة غير طريق مالك عن الزهري عن أنس، فكيف يحل لأحدهم أن يتهم إماما من أئمة المسلمين بغير علم ولا اطلاع» انتهى.

لله در ابن العربي لما وعدهم ولم يخرج لهم شيئا، لقد ضن بعلمه على المعاندين ولم يعدم حقه من ينصره ولو كان ذلك بعد قرون، وجزى الله الحافظ ابن حجر عن العلم وائمته خير جزاء.

ولنعد إلى نقل كلام مترجميه فيه، قال ابن فرحون: «وقدم بلده اشبيلية بعلم كثير لم يأت به أحد قبله ممن كانت له رحلة إلى المشرق، وكان من أهل التفنن في العلوم والاستبحار فيها والجمع لها متقدما في المعارف كلها متكلما في أنواعها ناقدا في جميعها حريصا على أدائها ونشرها ثاقب الذهن في تمييز الصواب منها. ويجمع إلى ذلك كله آداب الأخلاق مع حسن المعاشرة وكثرة الاحتمال وكرم النفس وحسن العهد وثبات الود».

ولايته للقضاء:

ولي قضاء قضاة كورة بلده اشبيلية فقام فيه بالعدل والقوة ولحقه من جراء ذلك بلاء ومحنة أبقت ثناء وذكرا ثم صرف عنه.

قال ابن الزبير: «وولي القضاء مدتها أولها سنة ثمان «لعله بعد الأربعمائة»[1] فنفع الله به لصرامته ونفوذ أحكامه، والتزام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى أوذي في ذلك بذهاب كتبه وماله فأحسن الصبر على ذلك كله ثم صرف عن القضاء وأقبل على نشر العلم وبثه».

وقال القاضي عياض: «واستقضي ببلده فنفع الله به أهلها لصرامته وشدته ونفوذ أحكامه وكانت له في الظالمين صورة مرهوبة وتؤثر عنه في قضائه أحكام غريبة».

(1) الصواب انه ولى القضاء سنة 508 هـ لان سفره الى الشرق كان سنة 485 هـ

وقال المقري في نفح الطيب: «وقام بأمر القضاء أحمد قيام مع الصرامة في الحق والقوة والشدة على الظالمين والرفق بالمساكين، وقد روي عنه أنه أمر بثقب أشداق زامر». ولعل هذا من الأحكام الغريبة التي أشار إليها القاضي عياض.

محنته:

قد عرفنا مما تقدم أن ابن العربي أصابته محنة في قضائه بسبب شدته في الحق وصرامته في الأحكام. وقد ذكر هو هذه المحنة في كتاب العواصم وانها كانت سبب إلزامه الناس للصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقال المقري: «وما برح معظما إلى أن تولى خطة القضاء ووافق ذلك أن احتاج سور اشبيلية إلى بنيان جهة منه ولم يكن بها مال متوفر ففرض على الناس جلود ضحاياهم وكان ذلك في عيد أضحى فأحضروها كارهين. ثم اجتمعت العامة العمياء وثارت عليه ونهبوا داره» ولا منافاة بين هذا وما قبله فإن أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر كان متكرراً وعند هذه الواقعة ـ والأمر فيها عام ـ قامت عليه العامة ولا شك أنها لا تخلو من إيعاز من حساد ابن العربي من الخاصة. وهكذا من يريد أن يقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على وجه التنفيذ، مقدر له أن يلقى هذه وأمثالها.

تصانيفه:

كان هذا الإمام من المصنفين المكثرين المجيدين قال ابن الزبير ـ ونقله عنه ابن فرحون ـ : «وصنف في غير فن تصانيف مليحة كثيرة مفيدة. منها أحكام القرآن كتاب حسن (مطبوع بمصر) وكتاب المسالك في شرح موطأ مالك (منه نسخة في مكتبة الجزائر بها نقص وعندنا منه جزء فيه ما يكمل ذلك النقص) وكتاب القبس (سنمثله للطبع ان شاء الله) وعارضه الأحوذي على كتاب الترمذي (منه نسخة بجامع الزيتونة)[1]، والعواصم من القواصم، والمحصول في أصول الفقه، وسراج المريدين، وسراج المهتدين، وكتاب المتوسط، وكتاب المتكلمين (كذا في ابن فرحون وأراه المشكلين مشكل الكتاب والسنة) وله تأليف في حديث أم زرع وكتاب الناسخ

---

(1) مطبوع بمصر سنة 1350 هـ.

والمنسوخ وتخليص التلخيص وكتاب القانون في تفسير القرآن العزيز وله غير ذلك من التأليف. وقال في كتاب القبس أنه ألف كتابه المسمى أنوار الفجر في تفسير القرآن في عشرين سنة ثمانين ألف ورقة وتفرقت بأيدي الناس (قلت): ـ ابن فرحون ـ وأخبرني الشيخ الصالح يوسف الحزام المغربي بالاسكندرية في سنة ستين وسبعمائة قال رأيت تأليف القاضي أبي بكر بن العربي في تفسير القرآن المسمى أنوار الفجر كاملا في خزانة السلطان الملك العادل أمير المسلمين ابن عنان فارس ابن السلطان أمير المسلمين أبي الحسن علي ابن السلطان أمير المسلمين ابن سعيد عثمان بن يوسف بن عبد الحق.

وكان السلطان إذا ذاك بمدينة مراكش، وكانت له خزانة كتب يحملها معه في الأسفار وكنت أخدمه مع جماعة في حزم الكتب ورفعها فعددت أسفار هذا الكتاب فبلغت عدتها ثمانين مجلدا ولم ينقص من الكتاب المذكور شيء. قال أبو الربيع: «وهذا المخبر يعني يوسف ثقة صدوق رجل صالح كان يأكل من كده» وذكر المقري من تصانيفه: كتاب مراقي الزلف وكتاب الخلافيات وكتاب نواهي الدواهي وكتاب النيرين في الصحيحين وكتاب الأمد الأقصى بأسماء الله الحسنى وصفاته العلا وكتاب في الكلام على مشكل حديث السبحات والحجاب وكتاب العقد الأكبر للقلب الأصغر وتبيين الصحيح في تعيين الذبيح وتفصيل التفضيل بين التحميد والتهليل ورسالة الكافر في أن لا دليل على النافر، وكتاب السباعيات وكتاب السلسلات وكتاب التوسط في معرفة صحة الاعتقاد، والرد على من خالف السنة من ذوي البدع والإلحاد،وكتاب شرح غريب الرسالة وكتاب الأنصار[1] في مسائل الخلاف عشرون مجلداً وكتاب حديث الإفك وكتاب شرح حديث جابر في الشفاعة وكتاب ستر العورة وكتاب أعيان الأعيان وكتاب ملجاة المتفقهين إلى غوامض النحويين وكتاب ترتيب الرحلة وفيه من الفوائد ما لا يوصف.

مولده ووفاته:

ولد ليلة الخميس لثمان بقين من شعبان سنة ثمان وستين وأربعمائة. وتوفي منصرفه من مراكش من الوجهة التي توجه فيها مع أهل بلده إلى الحضرة (عاصمة

(1) كذا في الأصل والصواب الإنصاف.

مراكش) بعد دخول الموحدين مدينة اشبيلية فحبسوا بمراكش نحو عام ثم سرحوا فأدركته منيته فحمل ميتاً إلى مدينة فاس فدفن بتربة القائد مظفر خارج باب المحروق وصلى عليه صاحبه أبو الحكم بن حجاج ، وكانت وفاته في ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة رحمه الله ونعمه[1].

(1) من كتاب العواصم من القواصم لأبي بكر محمد بن عبد الله بن العربي رحمه الله تعالى. ج 2. من أ إلى ع. وهي المقدمة التي وضعها ابن باديس رحمه الله لهذا الكتاب واقتضاء الأمر أن يجعلها في ذيل الجزء الثاني من الكتاب المذكور.



القسم الثالث

القَصَصُ الدِّينيُّ

*

« فاقصص القصص لعلهم يتفكرون »

(قرآن كريم)



محاورة الرشيد

مع محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة

«نروي هذه القصة ليرى القارئ كيف كان علماء السلف يعتزون بعلمهم أمام ذوي القوة والسلطان. وكيف كان الخلفاء يستشيرون أهل العلم عملاً بأصل الشورى الذي قرره الاسلام. ويرى التسامح الديني في علماء المسلمين الذي يمتازون به في أيام دولتهم عن جميع علماء الملل، فقد أنقذ محمد بن الحسن نصارى بني تغلب باشارته من بطش الرشيد، وقرر لهم حريتهم الدينية في تعميد ابنائهم. هذا أيام كانت الأمم الأخرى لا ترى لمخالفيها - بتدبير أحبارها ورهبانها - الا السيف والنار».



قال أبو عبيد - يعني القاسم ابن سلام - كنا مع محمد بن الحسن اذ أقبل الرشيد فقام الناس كلهم الا محمد بن الحسن فانه لم يقم. ودخل الخليفة ودخل الناس من أصحابه فأمهل الرشيد يسيرا ثم خرج الآذن فقام محمد بن الحسن فجزع أصحابه له فادخل فأمهل ثم خرج طيب النفس مسرورا، قال: قال لي: ما لك لم تقم مع الناس فقلت كرهت ان أخرج عن الطبقة التي جعلتني فيها انك أهلتني للعلم فكرهت ان اخرج إلى طبقة الخدمة التي هي خارجة منه. وان ابن عمك صلى الله عليه وآله وسلم قال: من أحب أن يتمثل له الرجال قياما فليتبوأ مقعده من النار، وانه انما اراد بذلك العلماء، فمن قام بحق الخدمة واعزاز الملك فهو هيبة للعدو، ومن قعد اتباعا للسنة التي عنكم أخذت فهو زين لكم. قال صدقت يا محمد. ثم شاورني

فقال ان عمر بن الخطاب صالح بني تغلب على أن لا ينصروا أولادهم وقد نصروا أبناءهم وحلت بذلك دماؤهم فما ترى قلت ان عمر أمرهم بذلك وقد نصروا أولادهم بعد عمر واحتمل ذلك عثمان وابن عمك - يعني عليا - وكان من العلم بما لا خفاء به عليك وجرت بذلك السنن. فهذا صلح من الخلفاء بعده، ولا شيء يلحقك في ذلك. وقد كشفت لك العلم ورأيك أعلى. قال لا - يعني لا ننقض صلحهم - ولكنا نجريه على ما أجروه ان شاء الله. ان الله جل اسمه أمر نبيه بالمشورة تماما لما به من الأخلاق التي جعلها الله له فكان يشاور في أمره فيأتيه جبريل بتوفيق الله. ولكن عليك بالدعاء لمن ولاه الله أمرك ومر أصحابك بذلك. وقد أمرت لك بشيء تفرقه على أصحابك. قال فخرج له مال كثير ففرقه[1].

-روى القصة مسندة الجصاص في «الأحكام» -

(1) ش: ج 1، م 5، غرة رمضان 1347 هـ فيفري 1929 م.

الخنساء وبنوها
أثر الاسلام في النفوس

من يجهل بكاء الخنساء على صخرها؟ فقد ضربت العرب بحزنها عليه الأمثال، وشعرها الخالد من أبلغ ما قالته العرب في مرارة اللوعة البالغة، وتحرق العاطفة الشديدة. وقد كانت الخنساء قبل أن تصاب تقول البيتين والثلاثة فلما أصيبت بفقد أخيها عمر ثم بفقد أخيها صخر الذي أنساها ما قبله ـ اندفعت بعوامل الحزن فأكثرت من الشعر وأجادت.

هذه المرأة التي بلغ بها الحزن على فقد اخوتها في الجاهلية ما بلغ وانتهى بها الجزع إلى ما انتهى ـ عادت في اسلامها تقدم أبناءها أفلاذ كبدها الأربعة إلى الموت وتحثهم على خوض غماره وتحمد الله ان قتلوا كلهم في مشهد واحد وتصبر محتسبة مصابها لله، مصدقة بوعوده.

أين اخوان من اربعة أبناء؟ وما ذلك الجزع عن ذينك وهذا الصبر عن هؤلاء؟ وما الذي قلب طباع هذه النفس من جزوعة مضطربة إلى مطمئنة راضية؟ هو ـ والله ـ الاسلام! الاسلام الصحيح كما جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم ديناً فطرياً، فاثر في فطر معتنقيه من العرب الأميين وإذا لم يؤثر في أقوام مثل هذا التأثير فلأنهم فهموه فهماً معكوساً. أو لبسوه لبساً مقلوباً. ولا وربك لا تتأثر به فطر معتنقيه في كل عهد الا إذا تناولوه على فطرته في ذلك العهد كما تناوله سلفهم الأولون.

قدمت الخنساء بنت عمرو بن الشريد على رسول الله ﷺ مع قومها من بني سليم فأسلمت معهم فذكروا أن رسول الله ﷺ كان يستنشدها فيعجبه شعرها فكانت

تنشده وهو يقول هيه يا خناس ويومئ بيده. وهاك قصتها مع بنيها ملخصة باختصار من كتاب الاستيعاب لابن عبد البر:

«حضرت حرب القادسية ومعها بنوها أربعة رجال فجمعتهم ليلة الوقعة وقالت لهم: يا بني أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين، وانكم لبنو رجل واحد كما انكم بنو امرأة واحدة، ما خنت أباكم ولا فضحت خالكم، ولا هجنت حسبكم ولا غيرت نسبكم وذكرتهم بآيات الوعد بجزيل الثواب، للصابرين في مواطن الضراب، وقالت لهم فان أصبحتم غداً أن شاء الله سالمين، فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين، فإذا رأيتم الحرب شمرت عن ساقها، واضطرمت لظى على سياقها، فتيمموا وطيسها وجالدوا رئيسها عند احتدام خميسها، تظفروا بالخلد والكرامة، في دار الخلد والمقامة.

فلما أضاء لهم الصبح باكروا مراكزكم وباشروا القتال واحداً بعد واحد حتى قتلوا كلهم وكل واحد أنشد قبل أن يستشهد رجزا:

فأنشد الأول:

يا اخوتي ان العجوز الناصحة	قد نصحتنا اذ دعتنا البارحة
مقالة ذات بيان واضحة	فباكروا الحرب الضروس الكالحة
وانما تلقون عند الصائحة	من آل ساسان الكلاب النابحة
قد أيقنوا منكم بوقع الجائحة	وأنتم بين حياة صالحة

أو ميتة تورث غنماً رابحة

وأنشد الثاني:

ان العجوز ذات حزم وجلد	والنظر الأوفق والرأي السدد
قد أمرتنا بالسداد والرشد	نصيحة منها وبرا بالولد
فباكروا الحرب حماة في العدد	اما لفوز بارد على الكبد
أو ميتة تورثكم عز الأبد	في جنة الفردوس والعيش الرغد

وأنشد الثالث:

والله لا نعصي العجوز حرفا قد أمرتنا حربا وعطفا
نصحا وبرا صادقا ولطفا فبادروا الحرب الضروس زحفا
حتي تلفوا آل كسرى لفا أو يكشفوكم عن حماكم كشفا
انا نرى التقصير منكم ضعفا والقتل فيكم نجدة وزلفى

وأنشد الرابع:

لست لخنساء ولا للأخرم ولا لعمرو ذي السناء الأقدم
ان لم أرد في الجيش.جيش الاعجم ماض على الهول خضم خضرم
اما لفوز عاجل ومغنم أو لوفاة في السبيل الأكرم

فلما بلغ الخبر الخنساء أمهم قالت الحمد لله الذي شرفني بقتلهم ، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته» (1).

(1) ش: ج 2، م 5، غرة شوال 1347 هـ مارس 1929 م.

كيف كان بناء الكعبة المشرفة

اليوم ـ وقد هوت أفئدة من استجيبت فيهم دعوة ابراهيم عليه السلام إلى حج بيت الله الحرام ـ ننشر لقراء «الشهاب» قصة بناء البيت كما أخرجها أهل الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما كما تلقاه من النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

وفي هذه القصة بيان أصل بناء البيت المحرم وحفر زمزم، وبيان ما يذكر به السعي من سعي هاجر وما يذكر به الطواف من طواف ابراهيم واسماعيل عليهما السلام لبناء البيت ورفع قواعده. وتذكير بما كان من ابراهيم وزوجه وابنه من سرعة الامتثال لأمر الله والصبر على البلاء في سبيله. وبما كان من حسن جزاء الله لهم على ذلك من البر المعجل، والأثر الخالد. والذكر الباقي، والثواب المدخر الجزيل. وفي ذلك كله آيات لكل صبار شكور:

«روي عن ابن عباس من طرق ان أول من سعى بين الصفا والمروة أم إسماعيل وان أول من أجرت الذيل أم اسماعيل وذلك انه لما فرت هاجر من سارة أرخت ذيلها لتعفو أثرها على سارة ثم جاء بها ابراهيم وبابنها اسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء فوضعها هنالك ووضع عندها جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء ثم قفل ابراهيم منطلقاً فتبعته ام اسماعيل فقالت يا ابراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء قالت له ذلك مرارا وجعل لا يلتفت إليها فقالت آ الله أمرك بهذا؟ قال نعم قالت اذن لا يضيعنا الله. ثم رجعت فانطلق ابراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث

لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال ربنا اني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع حتى بلغ يشكرون وجعلت أم اسماعيل ترضع اسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يتلوى أو قال يتلظى فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفا أقرب جبل إلى الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحداً فعلت ذلك سبع مرات قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم فلذلك سعي الناس بينهما فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت صه تريد نفسها ثم تسمعت فسمعت أيضاً فقالت قد أسمعت ان كان عندك غواث فإذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه أوقال بجناحه حتى ظهر الماء فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا وجعلت من الماء في سقائها وهو يفور بقدر ما تغرف قال ابن عباس قال النبي ﷺ يرحم الله أم اسماعيل لو تركت ماء زمزم أو قال لو لم تغرف من الماء لكانت عينا معينا قال فشربت وأرضعت ولدها فقال الملك لا تخافي الضيعة فان هاهنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه وان الله لا يضيع أهله وكانت البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله وكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم مقبلين من طريق كداء فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائراً عائفا فقالوا ان هذا الطائر ليدور على ماء لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء فأرسلوا جرياً أو جريين فإذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا قال وأم اسماعيل عند الماء فقالوا أتأذنين لنا أن ننزل عندك قالت نعم ولكن لا حق لكم في الماء قالوا نعم قال ابن عباس قال النبي ﷺ فألفت ذلك أم اسماعيل وهي تحب الأنس فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم وشب الغلام وتعلم العربية منهم وأنفسهم أعجبهم حين شب فلما أدرك زوجوه امرأة فيهم وماتت أم اسماعيل فجاء ابراهيم بعدما تزوج اسماعيل يطالع تركته فلم يجد اسماعيل فسأل امرأته عنه فقالت خرج يبتغي لنا ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت نحن بشر في ضيق وشدة وشكت إليه قال فإذا جاء زوجك اقرئي عليه السلام وقولي له يغير عتبة بابه فلما جاء اسماعيل كأنه أنس شيئاً فقال هل جاءكم من أحد قالت نعم جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنا عنك فأخبرته وسألني كيف

عيشنا فأخبرته انا في جهد وشدة قال فهل أوصاك بشيء قالت نعم أمرني أن أقرأ عليك السلام ويقول غير عتبة بابك قال ذاك أبي وقد أمرني أن أفارقك الحقي بأهلك فطلقها وتزوج منهم أخرى فلبث عنهم ابراهيم ما شاء الله ثم أتاهم بعد فلم يجده فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت خرج يبتغي لنا قال كيف أنتم وسألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت نحن بخير وسعة وأثنت على الله فقال ما طعامكم قالت اللحم قال فما شرابكم قالت الماء قال اللهم بارك لهم في اللحم والماء قال النبي ﷺ لم يكن لهم يومئذ حب ولو كان لهم دعا لهم فيه قال فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة الا لم يوافقاه قال فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ومريه يثبت عتبة بابه فلما جاء اسماعيل قال هل أتاكم من أحد قالت نعم أتانا شيخ حسن الهيئة وأثنت عليه فسألني عنك فأخبرته فسألني كيف عيشنا فأخبرته أنا بخير قال فأوصاك بشيء قالت نعم هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك قال ذاك أبي وأنت العتبة أمرني أن أمسكك ثم لبث عنهم ما شاء الله ثم جاء بعد ذلك واسماعيل يبري نبلاً تحت دوحة قريباً من زمزمَ فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الولد بالوالد والوالد بالولد ثم قال يا اسماعيل ان الله أمرني بأمر قال فاصنع ما أمرك ربك قال وتعينني قال وأعينك قال فان الله أمرني أن أبني ههنا بيتاً وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها قال فعند ذلك رفعا القواعد من البيت فجعل اسماعيل يأتي بالحجارة وابراهيم يبني حتى اذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبني واسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم قال فجعلا يبنيان حتى تدور حول البيت وهما يقولان ربنا تقبل منا الآية»[1].

---

(1) ش: ج 3. م 5. غرة ذي القعدة 1347 هـ ابريل 1929 م.

ملك العرب

«كان لقصة بناء الكعبة التي نشرناها بالجزء الماضي بمناسبة أشهر الحج أحسن موقع عند القراء فرأينا أن نتبعها بقصة من نوعها لمثل مناسبتها، هي صفحة من تاريخ الملك العربي السلفي عبد العزيز آل سعود الذي شرفه الله بخدمة ذلك البيت المعظم في هذا العهد، ومد تعالى بملكه رواق الأمن والعدل والتهذيب والدين الخالص عن ربوع الحجاز أرض الحرمين الشريفين، وان في نهضة هذا الملك العظيم وفي حياته وصفاته لدرساً عميقاً ومجالاً واسعاً للعبرة والتفكير.

كتب هذه المقالة التاريخية كاتب شهير في عالم الصحافة الالمانية وهو الاستاذ ليوبولد وايس الماني أسلم منذ أعوام وتسمى باسم محمد أسد الله وهو الآن يقيم بالحجاز. ونشرتها له جريدة «الشورى» الغراء فنقلناها عنها».

أدعو ملك العرب صديقي وان كان ملكاً وكنت مجرد صحافي وليس سبب ذلك انه مثلاً أطلعني على مكنون فؤاده فهذا ما لا يفعله قط وليس سببه أيضاً أنه أراني قلباً كريماً وأبدى نحوي وداً صحيحاً في مدى العامين اللذين قضيتهما في بلاد العرب واللذين لم يخلوا من ألم، فانه يبدي العطف والود نحو الجميع فليفهم القارئ ما أقوله تمام الفهم فاني لا أزعم أن عبد العزيز بن السعود يدعوني صديقه ولكني أعده صديقي، ويغريني بذلك أمر بسيط وهو طيبة الرجل، ولست أقصد أنه طيب القلب فهذا شيء رخيص ولكنه يوصف بالطيبة كما يوصف بها مثلاً سلاح من صنع ولدف[1] بأنه سلاح طيب يعجب به لأنه جمع كل الصفات التي تنشد في مثله.

(1) بلدة بالأندلس مشهورة قديماً بصنع أجود السلاح وذلك في أيام العرب.

وعلى هذا المعنى أقول إن ابن سعود رجل طيب. وهو عميق الغور يميل للوحدة ولا يتبع في أعماله سوى الدوافع المنبعثة من أعماق نفسه وقد يخطئ فيما يفعله ولكنه لا يخطئ قط الرغبة في الشرف أمام ضميره فهو ملك على نفسه قبل أن يكون ملكاً على العرب.

ولد عبد العزيز بن سعود قبل خمسين سنة تقريباً في الرياض (وسط بلاد العرب) وهو وليد فرع من الأسرة المالكة التي أخضعت لحكمها جزءاً كبيراً من شبه جزيرة العرب ثم أخذت في الاضمحلال حتى اضطرت في آخر الأمر إلى أن تنزل عن البقية الباقية من ملكها إلى أسرة ابن رشيد التي كانت قديماً من أتباعها والتي نشأت في حايل (في شمال بلاد العرب) وكان ابن سعود إذ ذاك في باكورة طفولته ونشأ في كبريائه وتحفظه وهو يرى أميراً أجنبياً يحكم الرياض مسقط رؤوس آبائه نائباً عن ابن رشيد. ومكث عبد العزيز بن سعود وذووه يعيشون من راتب تفضل به ابن رشيد عليهم وكان يحتملهم ولا يكاد يخشى من جانبهم ضراً. ولكن ذلك شق على عبد الرحمن والد عبد العزيز رغم ميله إلى السكون فهاجر مع أولاده وما يملكه إلى الكويت ليقضي بقية حياته في بيت سلطانها وكانت بينهما مودة ولكنه لم يكن يدري شيئاً عن مستقبل ولده والميول التي تجيش في صدره.

ولعل أحداً من الناس لم يتبين قلب عبد العزيز في عاطفته وخفقه ولم يدرك شيئاً من طموح نفسه وعظمة مستقبله إلا عمته العجوز والظاهر أنها كانت تحبه كثيراً وترعاه وهو صغير فإذا ألقت نفسها في خلوة معه احتضنته وأخذت تحدثه بعظائم الأمور التي يجدر به أن يقوم بها ذات يوم وكانت لا تفتأ تقول له وهي تدلله: «ينبغي لك أن تصير رجلاً عظيماً» وقد مكثت هذه الكلمة في نفس الطفل في حياة ونماء حتي أمست كالنار في رأس العَلَم.

ثم بدأت وحدته وهو في الكويت فانه وهو لا يزال ولداً نما جسمه سريعاً وسبق طوله سنه وهو مع ذلك رفيع القامة فجعل أولاد الناحية يسخرون منه ويهزأون به وكان يستحي من طول قامته الذي جعله هدف الأنظار وكان يخفض من رأسه حتى يبدو أقصر من حقيقته حين يمشي في شوارع الكويت أو في غرف القصر المكتظة بالناس وكان يؤلمه أن يكون شاذاً في الوسط المحيط به ولكن لم يجد سبيلاً للتوفيق

بينه وبين هذا الوسط لأن اختلافه عنه لم يكن في مظهره وحده ولقد غلبه القدر وخلق له قلقاً واضطراباً.

ولكنه أدرك ذلك تدريجاً بما لديه من شعور الشباب وانبثت كبرياؤه في نفسه وأخذ ينظر إلى ما فوق ذلك الوسط وجاء إلى أبيه يقول له: «كيف تصبر على تحكم آل ابن رشيد في وطنك؟ احمل عليهم وأجلهم عن ديارك فإنك أنت وحدك صاحب الحق في الرياض». ولنذكر هنا ان ابن رشيد كان في ذلك الوقت أقوى عاهل في شبه جزيرة العرب وكانت دولته تمتد من صحراء سوريا بادية الشام ـ حماه إلى الربع الخالي . وكانت جميع قبائل البدو تزتعش خوفاً من قبضته الحديدية. فلا عجب بعد ذلك إذا رد عبد الرحمن وهو في سنه المتقدمة به وفي منفاه وضعفه مطلب ابنه على أنه خيال لا يمكن تحقيقه. وقد مضت أعوام على ذلك وكانت عاطفة الابن فيها أشد وأقوى من جمود الوالد. فرضخ عبد الرحمن في آخر الأمر واستعان بصديقه سلطان الكويت على جمع بعض قبائل بدوية باقية على الولاء له وخرج كعادة العرب في الغزوة بالهجن والأعلام والبنادق وهاجم ابن رشيد ولكنه لم يلبث حتى هزم وارتد إلى الكويت ولعله كان مرتاحاً في قرار نفسه إلى هذه النتيجة ، وأنبأ ابنه أنه لا فائدة من أمثال تلك المحاولة وانه يريد أن يقضي بقية حياته في سكون ولا يطلب حقه في عرش نجد.

بيد ان ابنه عبد العزيز لم ينزل عن حقه فدعا أصدقاءه إليه، وجمع بعض البدو والذين يعول عليهم. ولما صارت جماعته أربعين رجلاً خرجوا من الكويت خفية كإحدى عصابات اللصوص ودون أعلام أو أناشيد، وجعلوا يسيرون ليلاً مسرعين متجنبين سبل القوافل المطروقة حتى بلغوا مقربة من الرياض فعسكروا في واد منعزل. وفي ذلك اليوم نفسه اختار ابن سعود خمسة من الأربعين وخطب الباقين قائلاً: «لقد وضعنا مصيرنا بين يدي الله وسنذهب نحن الستة إلى الرياض فاما استحوذنا عليها واما فقدناها إلى الأبد، فإذا سمعتم صوت الحرب في المدينة فلتبادروا إلى عوننا. أما إذا لم تسمعوا شيئاً منا حتى مغرب الغد فاعلموا اننا متنا إلى رحمة الله وعودوا إلى الكويت سراً بالطريق الذي أتينا به».

وكذلك سار الستة على أقدامهم حتى بلغوا الرياض عند ابتداء الليل ودخلوها من منفذ بأسوارها كان ابن رشيد قد أمر بثقبه في نشوة انتصاره على المدينة ومشوا قدماً وأسلحتهم مخبأة تحت أرديتهم إلى أن وصلوا لبيت الأمير من قبل آل الرشيد[1] وكان مغلقاً لأن الأمير اعتاد على قضاء الليل في الحصن المقابل للبيت خوفاً من أهالي المدينة التي دانت له فقرعوا الباب وفتحه أحد العبيد فتغلبوا عليه دون جلبة وشدوا وثاقه وكذلك فعلوا بغيره ممن كانوا في البيت إذ ذاك ولم يكونوا إلا بعض الرقيق والنساء. ثم جعل الستة يترقبون انبثاق الفجر وقضوا بقية الليل في قراءة القرآن لكي يبعث في قلوبهم قوة على أداء عملهم.

وفي الصباح فتحت أبواب الحصن وخرج الأمير يحيط به عدد من الخدم والأرقاء مسلحين فاندفع ابن سعود ورفاقه الخمسة شاهرين سيوفهم هاتفين باسم ابن سعود وباغتوا الأمير وحراسه ورمى عبد الله بن جلوي ابن عم عبد العزيز (وهو الآن أمير الحسا) بحربته (شلفته) نحو الأمير ولكن هذا انحنى في اللحظة المناسبة وثقبت حائط الحصن في قوة هائلة ولا تزال عالقة به حتى اليوم. وقد فر الأمير إلى باب الحصن وبينا يتبعه عبد الله إلى داخله هجم ابن سعود ورفاقه بسيوفهم المشهورة على حاشية الأمير فلم تكد تدافع عن نفسها رغم تفوقها في العدد لفرط الذعر الذي استولى عليها من هذه المباغتة. وهنا بدا الأمير فوق سطح الحصن صارخاً وقد سد عليه عبد الله بن جلوى المسالك وكان يطلب منه الرحمة حتى سقط أخيراً عند حافة السقف منهوك القوى وتلقى طعنة مميتة في عنقه. وكان ابن سعود يصيح في اللحظة نفسها: «إلي يا رجال الرياض. ها أنا ذا عبد العزيز بن عبد الرحمن ابن سعود أميركم صاحب الحق عليكم». وكان رجال الرياض يمقتون مرهقيهم من أهل الشمال من أعماق قلوبهم فلبوا النداء وجاءوا بأسلحتهم وركب رفاق ابن سعود الخمسة والثلاثون فاقتحموا أبواب المدينة يزيحون كل شيء أمامهم كالريح العاتية وبعد ساعة واحدة صار ابن سعود سيد المدينة دون منازع.

وكان ذلك في سنة 1901 وبه ينتهي دور الشباب من حياة ابن سعود وبدأ الدور الثاني الخاص برجولته وإمارته.

---

(1) اسمه عجلان.

وبعد ذلك شرع ابن سعود في فتوحاته وفق خطة منظمة وقد برهن على أنه لا يشبه غزاة العرب في شيء فان اتساع ملكه كان يجري تبعاً لنظام محدود وكان ثمة أركان حرب وخريطة حربية كما في الغرب . ولكن شخص ابن سعود كان وحده اركان الحرب ثم انه لم يكن قد راى خريطة حربية من قبل له. وقد اتخذت فتوحاته شكل حركة حلزونية تبدأ من مركز لا يتبدل وهو الرياض. وكان لا يخطو خطوة إلى الأمام إلا بعد أن يؤمن ما سبق فتحه ويوطد في موقفه من الوجهة الحربية. وعلى ذلك احتل بالتدريج كل الأقاليم التي في شرق الرياض وشمالها. ثم استولى في سنة 1904 على اقليم القصيم وبه عنيزة وبريدة وهو اقليم ذو ثروة وتجارة هامة. ثم اخضع منطقة الأحراش التي في الغرب والتي يسكن الجزء الأكبر منها قبائل عتيبة الكثيرة العدد. وفي سنة 1914 أقدم على مهاجمة اقليم الحسا على خليج العجم وكان في الأزمان الماضية تابعاً لنجد ولكنه وقع في أيدي الأتراك منذ خمسين عاماً حين اضمحلت أسرة ابن سعود وقد استحوذ على قاعدته الهفوف بعد قتال قصير ووطد سلطته فيه وأرادت الحكومة العثمانية أن تبعث إليه خطبة أدبية ولكن نشوب الحرب العالمية حال دون ذلك. وفي سنة 1921 سقط في يده جبل شمر ومدينة حايل مهبط اسرة ابن رشيد وبهذا فقدوا آخر عماد لملكهم ويئسوا من حكم بلاد العرب يأساً قد يكون إلى الأبد. وبين سنتي 1924 و1925 توج فتوحاته بالاستيلاء على الحجاز مما فيه مكة والمدينة وجدة وضمه إلى مملكته الواسعة.

ان ابن سعود ما كان يكتفي باخضاع الشعوب مثل غزاة الشق القدماء ولكنه في فتوحاته يكون (دولة) وينظر إلى جميع أجزائها كأنها أخوة متساوية الحقوق ما دامت تخلص الرغبة في التعاون وهو يسعى دائماً لأن يكسب الود الخالص ممن يقهرهم وأن يرغمهم على محبته إذ يريهم أنه لا يهتم بمصالحهم أقل من اهتمامه بأهل موطنه ولم يفعل ذلك حاكم عربي غيره منذ عهد الخليفة العظيم عمر بن الخطاب. وهو منذ زمن بعيد لا يعد رجلاً من الرياض بل تخطى روابط القبائل الضيقة المدى وصار رجل الجميع.

وقد عرف كيف ينمو في داخل نفسه مع نمو سلطانه. وهو لم يخرج قط من بلاد العرب ولا يعرف فوق وطنه غير البحرين والكويت والبصرة ولا يدري من

اللغات غير اللغة العربية ولم يقرأ من الكتب إلا الدينية منها وبعض كتب التاريخ العربية. ولكنه رغم كل ذلك يمتد بصره إلى مدى لم يماثله فيه ملك عربي من قبل فهو يعرف أحوال البلاد الإسلامية في العصر الحاضر خير معرفة يعرف مثلاً الأحزاب السياسية في مصر أو جاوه أو الهند كما يقف على شؤونها والرجال المشتغلين بالسياسة في هذه البلاد. وهو يفهم المستحدثات الهندسية في الغرب كالطيران أو التلغراف اللاسلكي كما يفهمها الغربيون ويستحسنها كذلك وان كان كثير من العرب ومن المتعلمين فيهم يعدونها من السحر.

ولا يزال ابن سعود مع ذلك مسلماً قوي الإيمان وأساس اعتقاده ان كل ما يحدث من الله ولذلك يمثل الرأي القائل بأن كل تقدم في الأمور المادية لا فائدة منه اذا لم يصحبه التعمق في العقيدة. فمن الطبيعي أن يبني حكمه على القواعد الدينية. وابن سعود يعتنق معتقدات «الوهابية» وهي حركة إصلاح في الاسلام ترجع إلى العلامة النجدي العظيم (محمد بن عبد الوهاب) الذي عاش في بداءة القرن الثامن عشر، وترمي إلى تطهير الاسلام من جميع البدع والخرافات التي لصقت به مع مر الزمن والسمو به عن عبادة الأولياء. والوهابية أشد طوائف الإسلام ومبدؤها الأعلى ان على المؤمنين أن يتمثلوا في البساطة والنظام.

والواقع أن الغربيين يجهلون الإسلام لأنهم يحكمون عليه تبعاً لأحوال أكثر البلاد الإسلامية في العصر الحاضر كما تبدو لهم ولكن الإسلام في تلك البلاد تغير عن أصله منذ وقت طويل إذ غطته طبقة من الخرافات غير المعقولة ودخل فيه تقديس الأولياء والقبور الذي يناقض أصل الدين واعتوره الجمود وعدم الاكتراث اللذان لا تقرهما تعاليم محمد صلى الله عليه وسلم الأصلية الخالصة كما لا يعرفها الغربيون الآن. وليس الإسلام هو السبب في انحطاط البلاد الإسلامية بل الحقيقة عكس ذلك تماماً فقد أفسد أهلها أصل الإسلام وهجروه دون أن يستطيعوا الإتيان بخير منه وهكذا لبسهم الروح الشرقي العتيق فهو المسؤول عن تدهور الشرق ولا يسأل سلام عن ذلك. ولو نفذ الإسلام بتمامه في نظام عملي متبع لأتى بمجتمع انساني كامل لا احتكاك فيه ولا نقص مما لم يأت به أي نظام اجتماعي آخر. وفي الامكان تحقيق ذلك

من الوجهة العلمية لأن الاسلام يوافق على كل تقدم في المدنية والحضارة ولأن تعاليمه لا تناقض الحقائق التي دلت عليها العلوم الحديثة.

وهذه الفكرة التي ترمي إلى تكوين دولة إسلامية صحيحة تكون الأولى في نوعها منذ عهد الصحابة هي الدافع لابن سعود في جميع أعماله، وهو لا يخدم نفسه ولكن يخدم فكرته ولذلك لا ينظر إلى نفسه إلا خلف عمله وهو من هذه الوجهة حاكم عصري يختلف جد الاختلاف عن سلاطين الشرق الذين يعتبرون شعوبهم كلها مجرد خدم لأشخاصهم. ولا شك ان الأجنبي الذي يرى ابن سعود لأول مرة يبتسم لبساطة هذا الملك وعدم تمدنه اذ يبصره في ثوب عادي في غرفة ذات أثاث غير أنيق واذ يشهده يقوم لكل قادم ويمد يده لتحيته وان كان بدوياً من أفقر البدو، ويأكل طعامه في حضرة وزرائه وكتابه وسائق سيارته ولكن الابتسامة لا تلبث حتى تفارق ثغر الأجنبي حين يدرس رأس هذا الرجل ويدرك العظمة الحقة الماثلة في تلك البساطة.

بدأ ابن سعود عمله في التشديد بتوطيد الأمن العام في بلاده بواسطة القوانين الصارمة وحملات التأديب القاسية. ومن قبله كانت شبه جزيرة العرب كلها شبكة من اللصوص وكانت قبائل البدو يشن بعضها الغارة على بعض وتنهب القوافل وكانت الطرق غير آمنة فلما جاء ابن سعود حرم على البدو أن يتقاتلوا وأمر بأن تحل الخلافات بين القبائل بقضائه أو قضاء أمرائه فيها وجعل المجرمين يشعرون بكل ما في الشريعة من شدة، فالقاتل يضرب عنقه والسارق تقطع يده اليمنى والسارق الذي يستعين بسلاح تقطع يده اليمنى وقدمه اليسرى وقد أجدى ذلك بعض النفع غير ان ابن سعود لم يلبث حتى أيقن أن الإكراه وحده لا يكفي ليجعل من الوحوش بشراً فشرع يبث في نفوس شعبه أخلاق الإسلام وفضائله وبعث بالمعلمين والوعاظ إلى مختلف القبائل ليعلموا البدو القراء ة والكتابة ويحثوهم على التمسك بالدين وآدابه في عزم وإخلاص. وكانت ثمرة ذلك صغيرة في السنوات الأولى ولكنها نمت تدريجاً وأينت وآتت أكلها. وهكذا تمت في بلاد العرب إحدى الغرائب وأصبحت مملكة ابن سعود ومساحتها مثل مساحة المانيا وفرنسا وايطاليا معاً وفيها الأمن العام مستتب بشكل لا يوجد في أية دولة متمدنة من الدول الغربية والآن يستطيع كل شخص أن

يسافر بمفرده في الصحراوات الواسعة وسط بلاد العرب دون أن يحمل سلاحاً أصلاً وان كان يحمل الأثقال من الذهب فلا يصيبه ضر أو أذى. وقد كان الناس قبلا لا يقطعون تلك الجهات إلا جماعات مسلحين. وقد هدأ الحروب وامتنعت المعارك بين القبائل التي في مملكة ابن سعود مع انها كانت من قبل من الحوادث التي تحدث كل يوم ولكنها لم تنقطع في سوريا أو العراق اللذين تحكمها دول غربية متمدنة.

بيد ان ابن سعود لم يقنع بكل ذلك بل وضع عمله لتحضير البلاد على أساس أكبر وكان منذ خمس عشرة سنة قد شرع يفكر في استيطان البدو اذ اتضح له ان تنقل القبائل من جهة إلى أخرى كل حين يمنع تقدم المدنية بينها ويحول دون ما هو أهم من ذلك عنده وهو تمكين الدين من نفوسها. وعلى ذلك أخذ يبث هذه الفكرة في البدو ولم تكن بلاد العرب تعرفها من قبل. وقد نجح في هذا نجاحاً أكبر مما ارتقبه وبدأت القبائل واحدة اثر أخرى تدرك فائدة المعيشة المستقرة في ناحية معلومة ومنحت أراضي ثابتة الحدود لتسكنها وبنت فيها البيوت وخططت القرى وزرعت النخل وقد أعانها الملك بكل أنواع العون في دور انتقالها من حياة الرعاة الرحالة إلى حياة الزراع اذ أعطاها الأموال والغذاء والبذور ولا يزال يبذل هذا العون للقبائل الأخرى التي تختار الاستقرار. والآن وقد مضت خمس عشرة سنة على هذه الحركة تستطيع ان تقدر على وجه التقريب عدد البدو من أهل نجد الذين استوطنوا الأراضي وتركوا حياة الرحالة بثلث مجموعهم. ولا تزال هذه الحركة سائرة في طريقها في جد وحزم.

ولا شك ان هذا العمل الذي يقوم به ابن سعود سوف تقدر أهميته من وجهة الحضارة وان التاريخ سوف يفرد لهذا الملك صفحة بين صفحات العظماء الذين خطوا بالانسانية خطوات إلى الأمام.

وهؤلاء المستقرون الذين كانوا منذ جيل واحد لصوصاً لا ضمائر لهم قد شرعوا يحسون تدريجا أنهم حاملو علم تقدم عظيم وقد أثار التعليم الديني الذي أتاهم ابن سعود به عاطفة اطلاق الدين المتغلغلة في نفوس العرب وأدركوا أن دولة إسلامية في دور النشوء في بلادهم وان عليهم أن يضعوا لها الأعمدة والأسس. وكذلك أصبحوا أصدق النصراء للإسلام بعد أن كانوا لا يعلمون إلا قشوراً منه وصاروا ينظرون إلى

نجد نظرتهم إلى معقل الإسلام وانهم لمحقون في ذلك. وقد تركوا اعتبارات العصبية المحدودة وسموا أنفسهم (اخواناً) أي إخوان كل من يسلم قلبه لله دون قيد وشرط واتخذوا شارتهم العمامة البيضاء متمثلين بالنبي ﷺ بعد أن تركوا العقال العربي المتوارث من قديم الأزمان.

وللإخوان أهمية عظيمة بالنسبة لدولة ابن سعود لأنهم في حالة الحرب يتطوع منهم كل رجل قادر على القتال ويدخل في جيش ملكهم وملء قلبه النخوة والحماسة. وإذأنهم يعتبرون أنفسهم الممثلين الصادقين للدين الحق ولا يقاتلون إلا في سبيله. فحربهم إذن هي حرب دينية ومن تعاليم الاسلام ان خير ميتة يموتها المسلم وسط الجهاد في سبيله ولذلك لا يرهب الإخوان الموت بل يرحبون به ولكن دون أن يزدروا الحياة. وهم أكثر جيوش العالم شجاعة وصبراً وسرعة في الحركة. ولو مدوا بالأسلحة الهندسية الحديثة لاستطاعوا أن يفتتحوا دولاً عظيمة. وهم في وقت السلم مشتتون في أنحاء البلاد ولكن إذا دعاهم الملك لم ينقض شهر واحد حتى يجتمعوا كلهم في المكان المعين لهم وكل منهم آت على هجينه مسلحاً بالأسلحة الحديثة التي غنمها ابن سعود في حروبه المختلفة وبالخناجر والسيوف. وكل مجاهد يحمل زاده معه وهو عبارة عن قليل من الأرز وحقيبة من البلح ولا يعطيهم الملك أجراً ولكن يمنحهم الهدايا بين وقت وآخر وانما يعتمدون على الغنائم التي يغنمونها من الأعداء وهذا الجيش المتطوع المتحمس القليل الكلفة يجعل ابن سعود أقوى من أي حاكم عربي قبله.

وهذا كله عمل رجل واحد هو عبد العزيز ابن سعود ففي رأسه تنمو جميع الخطط وعلى كتفيه مهمة تنظيم مملكته الكبيرة وتنحصر مساعدة أمرائه - ومنهم رجال ذوو شخصيات كبيرة - في حسن تنفيذهم للخطط التي يضعها فهو وحده الذي يفكر ويعمل وكلهم أيد له وانه ليحمل عبئاً عظيماً من العمل.

وهو يشتغل طول اليوم من باكورة الصباح إلى قسط من الليل ما عدا فترات يقضيها في الصلاة وبرهات قصيرة يرتاح فيها بين أهله. وهو يلتقى كل يوم مئات الخطابات والتقارير ويقرأها بنفسه ويملي مئات من أمثالها على كتابه. ويفد عليه كل يوم كثير من البدو والوفود من أنحاء الدولة يعرضون عليه شكاواهم ورغباتهم ويتلقون منه أوامره وجميعهم ينزلون ضيوفاً عليه طول مكثهم بالرياض وهو يولم الولائم لنحو

ألف نفس كل يوم ويعطي كلا منهم عند رحيله ثوباً تبعاً لعادة العرب وكذلك قطعة من النقود حسب مكانته. ونفقات الملك الشخصية جد قليلة لأنه لا يعرف الترف في حياته الخاصة وانما له عدد من السيارات لا بد منها لحسن القيام بشؤون الحكم في هذه المملكة المترامية الأطراف.

وابن سعود طويل القامة جداً ذو جمال رجولي وله جبهة عالية وأنف قليل الانحناء وثغر صغير عليه شفتان ممتلئتان تدلان على الحماسة والذكاء في آن واحد. وكل من يراه دون فكرة سابقة عنه ويشهد ابتسامته العذبة لا بد أن يحبه. وقليل جداً من الناس في مملكته الكبيرة لا يحبونه.

لقد قارن البعض هذا الملك بنابليون ذات مرة. أما أنا فأفضل أن أقارنه بكيروس[1] كما وصفه لنا (كسنوفون)[2] في روايته (كيروبايديا) فإنه مثله حاكماً متبصراً حكيماً يعمل لمصلحة شعبه لا لنفسه ويقدر الرجال حق قدرهم ويقرأ ما بقرار نفوسهم قبل أن ينطقوا ببنت شفة ويسعى دائماً لإرضاء من يعملون معه فيعطيهم أكثر مما يرتقبونه إذ يمنحهم الأمن على حياتهم والهدايا الخالصة من القلب والحب لمن يستحقه. ولكن رغم كل ذلك يبقى ابن سعود وحيداً بينهم لأن له نفسية عالية.

ان ابن سعود في وحدة عميقة وان كان حوله أناس كثيرون لأنه ليس منهم أحد يستطيع أن يستشف ما وراء ابتساماته الساحرة أو ما وراء حركات يديه حين يتحدث في شؤون الدولة أو في مسائل الدين. ولا يدري أحد ماذا سيفعل غدا بل يحيط الظلام والابهام بنواياه في المستقبل وان كان يومه وأمسه شفافين لا سر فيهما.

وتلك وحدة العظماء الذين لا يقودهم في سبيلهم غير أذهانهم المتوقدة[3].

---

(1) هو كيروس الأكبر ملك العجم ومؤسسها.

(2) مؤرخ يوناني قديم مشهور من تلاميذ سقراط

(3) ش: ج 4، م 5، غرة ذي الحجة 1347 هـ ماي 1929 م.

مناظرة بين سلفي ومعتزلي
في مجلس الواثق

ان اختلاف الأفكار والطباع ، مع اختلاط الأمم في الزمن الطويل ـ أدى الفرق الاسلامية إلى كثير من الاختلاف. وكان من بين ذلك ـ لا محالة ـ بدع دينية في الاعتقادات والأعمال. وكل ذي بدعة ـ لا بد ـ معتقد فيها صوابا، ومتلمس لها دليلا.

ولا يقف بالجميع عند حد واحد، الا دليل واحد، وهو التزام الصحيح الصريح مما كان عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكان عليه أصحابه. فكل قول يراد به اثبات معنى ديني لم نجده في كلام أهل ذلك العصر نكون في سعة من رده وطرحه واماتته واعدامه، كما وسعهم عدمه. ولا وسع الله على من لم يسعه ما وسعهم. وكذلك كل فعل ديني لم نجده عندهم وكذلك كل عقيدة . فلا نقول في ديننا الا ما قالوا، ولا نعتقد فيه الا ما اعتقدوا ولا نعمل فيه إلا ما عملوا. ونسكت عما سكتوا. فهم ـ كما قال الشافعي في رسالته البغدادية ـ: «ادوا إلينا سنن رسول الله (ص)وشاهدوه والوحي ينزل عليه فعلموا ما أراد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عاما وخاصا وعزما وارشادا وعرفوا من سنته ما عرفنا وجهلنا وهم فوقنا في كل علم واجتهاد وورع وعقل وأمر استدرك به علم واستنبط به وآراؤهم لنا احمد وأولى بنا من رأينا عند أنفسنا».

ونرى كل فتنة بين الفرق الاسلامية ناشئة عن مخالفة هذا الأصل، ومنها فتنة القول بخلق القرآن التي نقلنا في المناظرة عليها القصة التالية عن كتاب «الاعتصام» للامام الشاطبي. وقد كان الفلج فيها لمن التزم هذا الأصل على من خالفه.

ذكر ابو اسحق الشاطبي ان هذه القصة حكاها المسعودي، وحكاها الآجري ـ في كتاب الشريعة ـ بأبسط مما ذكره المسعودي. ونقلها هو عن المسعودي ـ قال ـ مع اصلاح بعض الألفاظ. قال:

«ذكر صالح بن علي الهاشمي قال: حضرت يوما من الأيام جلوس المهتدي للمظالم، فرأيت من سهولة الوصول ونفوذ الكتب عنه إلى النواحي فيما يتظلم به إليه ما استحسنته، فأقبلت أرمقه ببصري إذا نظر في القصص، فاذا رفع طرفه الي أطرقت، فكأنه علم ما في نفسي.

فقال لي: يا صالح أحسب ان في نفسك شيئاً تحب أن تذكره ـ قال ـ فقلت: نعم يا أمير المؤمنين. فأمسك. فلما فرغ من جلوسه أمر أن لا أبرح، ونهض فجلست جلوسا طويلاً، فقمت إليه وهو على حصير الصلاة فقال لي: يا صالح أتحدثني بما في نفسك؟ أم أحدثك؟ فقلت: بل هو من أمير المؤمنين أحسن.

فقال: كأنني بك وقد استحسنت من مجلسنا. فقلت: أي خليفة خليفتنا! ان لم يكن يقول بقول أبيه من القول بخلق القرآن. فقال (المهتدي): قد كنت على ذلك برهة من الدهر، حتي أقدم علي الواثق شيخا من أهل الفقه والحديث من «اذنه» من الثغر الشامي، مقيداً طوالا، حسن الشيبة، فسلم غير هائب، ودعا فأوجز، فرأيت الحياء منه في حماليق عيني الواثق والرحمة عليه.

فقال (الواثق): يا شيخ أجب أبا عبد الله أحمد بن دؤاد عما يسألك عنه. فقال: يا أمير المؤمنين أحمد يصغر ويضعف ويقل عند المناظرة. فرأيت الواثق وقد صار مكان الرحمة غضبا عليه. فقال: أبو عبد الله يصغر ويضعف ويقل عند مناظرتك؟ فقال: هون عليك يا أمير المؤمنين، أتأذن لي في كلامه؟ فقال له الواثق: قد أذنت لك.

فأقبل الشيخ على أحمد فقال: يا أحمد إلىَ مَ دعوت الناس؟ فقال أحمد إلى القول بخلق القرءان، فقال له الشيخ: مقالتك[1] هذه التي دعوت الناس إليها من القول بخلق القرآن أداخلة في الدين فلا يكون الدين تاما الا بالقول بها؟ قال: نعم. قال الشيخ: فرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دعا الناس إليها أم تركهم؟ قال: لا. قال له: يعلمها أم لم يعلمها؟ قال: علمها. قال: فلم دعوت الناس إلى ما لم يدعهم إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتركهم منه؟ فأمسك. فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين هذه واحدة.

ثم قال له: أخبرني يا أحمد، قال الله تعالى في كتابه العزيز (**اليوم أكملت لكم دينكم**) الآية. فقلت أنت: الدين لا يكون تاما الا بمقالتك بخلق القرءان، فالله تعالى عز وجل صدق في تمامه وكماله أم أنت في نقصانك، فأمسك. فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين! وهذه ثانية.

ثم قال بعد ساعة: أخبرني يا أحمد، قال الله عز وجل (**يا ايها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وان لم تفعل فما بلغت رسالاته**) فمقالتك هذه التي دعوت الناس إليها. فيما بلغه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الأمة أم لا؟ فأمسك. فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين! وهذه ثالثة.

ثم قال بعد ساعة: أخبرني يا أحمد! لما علم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مقالتك هذه التي دعوت الناس إليها: أتسـع له عن ان أمسك عنهم أم لا؟ قال أحمد: بل اتسع له ذلك. فقال الشيخ: وكذلك لأبي بكر؟ وكذلك لعمر؟ وكذلك لعثمان؟ وكذلك لعلي؟ رحمة الله عليهم. قال: نعم. فصرف (الشيخ) وجهه إلى الواثق وقال: يا أمير المؤمنين! اذا لم يتسع لنا ما اتسع لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولأصحابه فلا وسع الله علينا، فقال الواثق: نعم! لا وسع الله علينا اذا لم يتسع لنا ما اتسع لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولأصحابه فلا وسع الله علينا.

(1) «ش»: كلام الشيخ على مقالة ابن أبيدؤاد ينطبق على كل مقالة لم يدع إليها النبي صلى الله عليه وآله وسلم الناس. وقام لها من بعده دعاة.

ثم قال الواثق: اقطعوا قيوده، فلما فكت جاذب[1] عليها فقال الواثق: دعوه، ثم قال: يا شيخ لم جاذبت عليها؟ قال لأني عقدت في نيتي أن أجاذب عليها، فأذا أخذتها أوصيت أن تجعل بين يدي[2] وكفني، ثم أقول: يا ربي! سل عبدك: لم قيدني ظلما وارتاع[3] بي أهلي؟ فبكى الواثق والشيخ وكل من حضر. ثم قال له: يا شيخ! اجعلني في حل. فقال: يا أمير المؤمنين! ما خرجت من منزلي حتى جعلتك في حل اعظاماً لرسول الله ﷺ، ولقرابتك منه. فتهلل وجه الواثق وسر. ثم قال له: اقم عندي آنس بك. فقال له: مكاني في ذلك الثغر أنفع. وأنا شيخ كبير، ولي حاجة. قال: سل ما بدا لك. قال: يأذن أمير المؤمنين في رجوعي إلى الموضع الذي أخرجني منه هذا الظالم[4]. قال: قد أذنت لك. وأمر له بجائزة فلم يقبلها[5]: فرجعت من ذلك الوقت عن تلك المقالة. واحسب أيضاً ان الواثق رجع عنها.

قال ابو اسحاق الشاطبي بعد نقل ما تقدم:

«فتأملوا هذه الحكاية ففيها عبرة لأولي الألباب. وانظروا كيف مأخذ الخصوم[6] في احجامهم لخصومهم بالرد عليهم بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم»[7].

(1) «ش»: أبي أن يتركها.
(2) كذا بالأصل والظاهر بين بدني وكفني.
(3) الصواب أراع أو روع. (4) يعني ابن أبي دؤاد.
(5) هذا قول المهتدي بعد تمام الحكاية.
(6) كذا بالأصل والظاهر افخامهم.
(7) ش: ج 11. م 5. غرة رجب 1348 ديسمبر 1929.

الأمين والمأمون

في حضرة أبيهما
اثر محفوظات الصغير في أخلاقه
ظهور مخايل النجابة من الصغر

ناظر الرشيد يوماً يحي بن خالد بن برمك فيمن يعهد إليه بالخلافة من ولديه الأمين والمأمون فعلم يحي ميله إلى أم جعفر وهي زبيدة أم الأمين وتحقق انه يؤثر هواها وان لا معدل له عن ولدها فحطب[1] في حبلها فاستحضر الرشيد المأمون والأمين وهما صبيان فأغرى بينهما فأسرع الأمين إلى المأمون فكان المأمون أحلمهما. ثم انه أمرهما أن يتصارعا فوثب الأمين وسكن المأمون فقال له الرشيد مالك لا تقوم يا عبد الله أخفت ابن الهاشمية. اما انه لا يد[2] فقال المأمون هو على ما ذكر أمير المؤمنين ولكني لم أخفه وانما قبض يدي عنه ما قبض لساني حين اسمعني. قال له الرشيد وما الذي قبض يدك ولسانك قال قول الأموي[3] لبنيه:

انفوا الضغائن بينكم وتواصلوا	عند الأباعد والحضور الشهد
بصلاح ذات البين طول بقائكم	ودماركم بتقاطع وتفرد
فلمثل ريب الده الف بينكم	بتراحم وتعطف وتودد
حتى تلين جلودكم وقلوبكم	لمسود منكم وغير مسود

(1) قال للرشيد ما يوافق هواها.

(2) . قوي.

(3) هو عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي الشهير.

إن القداح إذا اجتمعن فرامها ... بالسكر ذو حنق وبطش أيد
عزت فلم تكسر وان هي بددت ... فالوهن والتكسير للمتبدد

فرق الرشيد رقة شديدة واغرورقت عيناه بالدموع فكفكفها. ثم أقبل على الأمين فقال يا محمد ما أنت صانع ان أنت صرف الله اليك أمر هذه الأمة فقال أكون مهدياً يا أمير المؤمنين. فقال الرشيد ان تفعل فأهل لذلك أنت. ثم أقبل على المأمون فقال يا عبد الله ما أنت صانع ان صرف الله إليك أمر هذه الأمة فابتدرت دموع المأمون وفطن الرشيد لما بكى فلم يملك عينيه فأرسلها وبكى يحي وبكى الأمين ثم عاد الرشيد لمسألة المأمون فقال اعفني يا أمير المؤمنين فقال الرشيد عزمت عليك لتقولن فقال: ان قدر الله ذلك جعلت الحزن شعاراً، والحزم دثارا، واتخذت سيرة أمير المؤمنين مشعراً لا تستحل حرماته، ولا تبدل كلماته. فأشار الرشيد إلى الأمين والمأمون بالانصراف فانصرفا ثم أقبل على يحي فأنشده بيت صخر ابن عمر ابن الشريد.

أهم بأمر الحزم لو أستطيعه ... وقد حيل بين العير والنزوان[1]

فقال يحي: هيأ الله لأمير المؤمنين من أمره رشدا. انتهى.

نقلنا القصة من «زهر الأفنان» للناصري
عن درر الغرر لابن ظفر[2]

---

(1) كان الرشيد تمثل بهذا البيت لأنه لا يستطيع تقديم المأمون على الأمين لأن الأمين هو الأكبر وهو ابن الهاشمية.

والبيت من قطعة لصخر قالها لما ملت زوجته مرضه وحدبت عليه أمه. وهي:

أرى أم صخر لا تمل عيادتي ... وملت سليمى مضجعي ومكاني
فأي امرئ ساوى بأم حليلة ... فلا عاش الا في شقاء وهوان
أهم بأمر الحزم لو أستطيعه ... وقد حيل بين العير والنزوان
وما كنت أخشى أن أكون جنازة ... عليك ومن يغتر بالحدثان؟
فللموت خير من حياة كأنها ... معرس يعسوب برأس سنان
لعمري لقد نبهت من كان نائما ... واسمعت من كانت له أذنان

(2) ش: ج 12. م 5. غرّة شعبان 1348هـ جانفي 1930م.

هذه نعلي ونعل آبائي

محافظة الرشيد على زي قومه

(القومية والشخصية لهما مقومات ومميزات . والمحافظة عليهما والاعتزاز بهما مما جبل عليه الناس كما جبلوا على حب البقاء. لكن قد يطرأ على بعضهم سوء ظن فيهما لجهل أو ضعف فيتخلى عنهما فيكون ذلك التخلي نذير الفناء. وفي القصة التالية نرى اعتزاز الرشيد بقوميته ومحافظته على مميزاتها حتي في أقل الأشياء كالنعل. وكان ذلك منه على قدر ما لديه من عظمة وقوة، وما عنده من علم بمجد قومه العرب الأكرمين).

★★★

قال الأصمعي تصرفت بي الأسباب على باب الرشيد مؤملاً الظفر به والوصول إليه حتى صرت حديثاً لبعض حرسه فاني في بعض ليلة قد نثرت السعادة والتوفيق فيها الأرق بين أجفان الرشيد اذ خرج أحد الخدم فقال اما بالحضرة أحد يحسن الشعر فقلت الله أكبر رب قيد مضيق قد حله التيسير. فقال لي الخادم ادخل فلعلها أن تكون ليلة في صباحها الغنى ان فزت بالحظوة عند أمير المؤمنين فدخلت فواجهت الرشيد في مجلسه والفضل بن يحي إلى جانبه فوقف به الخادم حيث يسمع التسليم فسلمت فرد علي السلام ثم قال يا غلام أرحه ليفرخ روعه ان كان وجد للروعة حسا. فدنوت قليلا ثم قلت يا أمير المؤمنين اضاءة مجدك وبهاء كرمك مجيران لمن نظر إليك من اعتراض أذية. فقال ادن فدنوت فقال أشاعر أم راوية فقلت راوية لكل ذي جد وهزل بعد أن يكون محسنا فقال تالله ما رأيت ادعاء أعظم من هذا فقلت أنا

على الميدان فاطلق من عناني يا أمير المؤمنين فقال «قد انصف القارة من راماها» ثم قال ما المعنى بهذه الكلمة بديئا فقلت فيها قولان القارة هي الحرة من الأرض وزعمت الرواة ان القارة كانت رماة للتبابعة والملك اذ ذاك أبو حسان فوافق عسكره عسكر السعد فخرج فارس من السعد قد وضع سهمه في كبد قوسه فقال أين رماة العرب فقالت العرب قد أنصف القارة من راماها فقال لي الرشيد أصبت ثم قال أتروي لرؤية بن العجاج والعجاج شيئاً فقلت هما شاهدان لك بالقوافي وان غيبا عن بصرك بالاشخاص فأخرج من ثني فرشه رقعة ثم قال انشدني: أرقني طارق هم أرقا. فمضيت فيها مضي الجواد في سنن ميدانه تهدر بها أشداقي فلما صرت إلى مديحه لبني أمية ثنيت لساني إلى امتداحه لأبي العباس السفاح في قوله «قلت لزير لم تصله مريمه» فلما رآني قد عدلت من ارجوزة إلى غيرها قال أعن حيرة أم عن عمد قلت عن عمد تركت كذبه إلى صدقه فيما وصف به جدك من مجده فقال الفضل أحسنت بارك الله فيك مثلك يؤهل لمثل هذا المجلس فلما آتيت على آخرها قال الرشيد أتروي كلمة عدي بن الرقاع.

عرف الديار توهما فاعتاذها   من بعد شمل البلى أبلادها

قلت نعم قال هات فمضيت فيها حتى إذا صرت إلى وصف الجمل قال لي الفضل ناشدتك الله أن تقطع علينا ما امتعنا به من السهر في ليلتنا هذه بصفة جمل أجرب فقال له الرشيد اسكت فالابل هي التي أخرجتك من دارك واستلبت تاج ملكك ثم ماتت وعملت جلودها سياطا ضربت بها أنت وقومك فقال الفضل عوقبت على غير ذنب فالحمد لله فقال الرشيد أخطأت الحمد لله على النعم ولو قلت أستغفر الله كنت مصيبا ثم قال لي امض في أمرك فأنشدته حتى إذا بلغت إلى قول عدي:

تزجي أغن كأن ابرة روقه   قلم أصاب من الدواة مدادها

استوى جالساً ثم قال أتحفظ في هذا ذكرا قلت نعم ذكرت الرواة ان الفرزدق قال كنت في المجلس وجرير إلى جانبي فلما ابتدأ عدي في قصيدته قلت لجرير مسراً إليه نسخر من هذا الشامي فلما ذقنا كلامه يئسنا منه فلما قال تزجي أغن كأن ابرة روقه وعدي كالمستريح قال جرير أما تراه يستلب بها مثلا فقال الفرزدق يا لكع انه يقول

قلم أصاب من الدواة مدادها فقال عدي قلم أصاب من الدواة مدادها فقال جرير أكان سمعك مخبوءاً في صدره فقال له اسكت شغلني سبك عن جيد الكلام فلما بلغ إلى قوله:

ولقد أراد الله اذ ولاكها من أمة اصلاحها ورشادها

قال الرشيد ما تراه حين أنشده هذا البيت قلت قال كذلك أراد الله فقال الرشيد ماكان في جلالته ليقول هذا لحسبه قال ما شاء الله قلت وكذا جاءت الرواية فلما أتيت على آخرها قال أتروي لذى الرمة شيئا قلت الأكثر قال فماذا أراد بقوله:

ممر أمرت قتله لسدية * ذراعية حلالة بالمصانع

قلت وصف حمار وحش اسمه بقل روضة تواشجت أصوله وتشابكت فروعه من مطر سحابة كانت بنوع الأسد ثم في الذراع من ذلك فقال الرشيد أرح فقد وجدناك ممتعاً وعرفناك محسنا ثم قال أجد ملالة ونهض فأخذ الخادم يصلح عقب النعل في رجله وكانت عربية فقال الرشيد عقرتني يا غلام فقال الفضل قاتل الله الأعاجم اما انها لوكانت سندية لما احتاجت إلى هذه الكلمة فقال الرشيد هذه نعلي ونعل آبائي كم تعارض فلا تترك من جواب ممض ثم قال يا غلام يؤمر صالح الخادم بتعجيل ثلاثين ألف درهم على هذا الرجل في ليلته هذه ولا يحجب في المستأنف فقال الفضل لولا انه مجلس أمير المؤمنين ولا يأمر فيه غيره لأمرت لك بمثل ما أمر لك وقد أمرت لك به الألف درهم فتلق الخادم صباحا قال الأصمعي فما صليت من غد إلا وفي منزلي تسعة وخمسون ألف درهم اهـ[1].

---

(1) ش : ج 2 م 6 ـ غرة شوال 1348 هـ ـ مارس 1930 م

من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه

«انما يتقدم الناس في الدنيا والآخرة بأعمالهم لا بأنسابهم وعندما يكون التقدم بالأنساب ـ كما هو الحال اليوم غالبا ـ يؤدي ذلك إلى مفسدتين عظيمتين اتكال أصحاب الأنساب على أنسابهم وتركهم للعمل، وزهد غير ذوي الأنساب في الأعمال لأنها لا تقوم لهم مقام الأنساب فيقل العمل في الأمة بقسميها وتكون أمة جاهلة خاملة وما وراء الجهل والخمول الا الذل وسوء المصير. وكل هذا فينا اليوم قد كان.

ولما كان جعل التقدم بالانساب بهذه المكانة من الضرر تتابعت نصوص الكتاب والسنة على إبطاله من مثل قوله تعالى: «**ان أكرمكم عند الله أتقاكم**» ومثل هذا الحديث الصحيح الذي جعلناه ترجمة للقصة التالية.

نعم لا ينكر ان النسب له دخل في الاعتبار ولكن بعد اعتبار الأعمال كما قال صلى الله عليه وآله وسلم. «الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام، اذا فقهوا».

ثم هذا الأصل الذي قرره الكتاب والسنة وهو اعتبار الأعمال قبل الأنساب كان هو المعروف في عهد السلف الصالح والخلفاء الراشدين رضي الله تعالى عنهم. وها نحن ننقل لك من كتاب الاستيعاب لابن عمر بن عبد البر القصة التالية في ذلك».

* *

روى ابن المبارك قال حدثنا جرير بن حازم قال سمعت الحسن (البصري) يقول: حضر الناس باب عمر بن الخطاب رضي الله عنه وفيهم سهيل بن عمرو وأبو

سفيان بن حرب وأولئك الشيوخ من قريش فخرج آذنه فجعل يأذن لأهل بدر لصهيب وبلال وأهل بدر كان يحبهم وكان قد أوصى بهم فقال أبو سفيان ما رأيت كاليوم قط، انه ليؤذن لهؤلاء العبيد ونحن جلوس لا يلتفت إلينا فقال سهيل بن عمرو ـ قال الحسن ويا له من رجل ـ ما كان أعقله ـ: أيها القوم اني والله قد أرى الذي في وجوهكم، فان كنتم غضابا فاغضبوا على أنفسكم. دعي القوم ودعيتم فأسرعوا وأبطأتم، أما والله لما سبقوكم به من الفضل أشد عليكم فوتا من بابكم هذا (يعني باب عمر«ض») الذي تتنافسون فيه. ثم قال أيها القوم ان هؤلاء القوم قد سبقوكم لما ترون ولا سبيل لكم والله إلى ما سبقوكم إليه فانظروا هذا الجهاد فالزموه عسى الله عز وجل أن يرزقكم شهادة ثم نفض ثوبه وقام ولحق بالشام. (فما زال مرابطا به حتى مات بطاعون عمواس) قال فصدق والله لا يجعل الله عبدا له أسرع إليه كعبد ابطأ عنه.أ هـ.

«تتمة»: سهيل هذا هو ابن عمرو القرشي العامري كان أحد أشراف قريش وساداتهم في الجاهلية وكان خطيبهم غير منازع وهو الذي تولى عقد صلح الحديبية عن قريش وكان أسر ببدر فقال عمر يا رسول الله أنزع ثنيته فلا يقوم عليك خطيبا أبدا (وكان أعلم مشقوق الشفة العليا فاذا نزعت ثنيته لا يستطيع الخطابة) فقال رسول الله ﷺ دعه فعسى أن يقوم مقاما تحمده. فلما مات النبي صلى الله عليه وآله وسلم وماج أهل مكة وارتد من ارتد من العرب قام سهيل فيهم بمثل ما قام به أبو بكر الصديق (ض) بالمدينة يوم الوفاة فثبت الله أهل مكة بخطبته. وكان ذلك مقامه الذي أخبر به النبي صلى الله عليه وآله وسلم[1].

(1) ش: ج 3، م 6، غرة ذي القعدة 1348 ابريل 1930 م.

الديموقراطية عند العرب

بمناسبة ما نشرناه في باب المجتمع الجزائري مما قصه الحجاج عما شاهدوه من سيرة الإمام بن سعود وامتزاجه بالأمة ـ نشرنا القصة التالية نقلاً عن «القلم الحديدي» الأغر ليطالع القراء في هذا الجزء ديموقراطية العرب قديماً وحديثاً.

يتبجح الأوربيون الجمهوريون والأميركيون الديموقراطيون بأنهم هم الذين وضعوا أسس الديموقراطية والمساواة وانهم على جانب عظيم من خفض الجناح والاصغاء للعامة وسماع مطاليب الشعب لا فرق بين الكبير والصغير والغني والفقير ومع ما في بعض هذا القول من الصواب فان الديموقراطية الحقيقية غير موجودة عندهم ولا هم يعرفونها الا بالاسم لأنك لا تقدر أن تقابل أي رئيس جمهورية أو ولاية ما لم تجز ألف حجاب ومئة حارس يحولون بينك وبينه فأين هذه الديموقراطية من ديموقراطية العرب ونعني بهم الخلفاء الذين كان الواحد منهم يحكم في تلك الأيام نصف العالم المعروف وهو الخليفة العظيم ذو الحول والطول وبين شفتيه الموت والحياة ودونك هذه القصة شاهداً على صدق قولنا هذا وهي ان الديموقراطية الحقيقية عند العرب لا في غرب القرن العشرين ......

فقد حكى أبو الفداء في تاريخه عن الخليفة المنصور ما يدهش حقيقة ويدل على اتضاع هذا الخليفة العظيم واصغائه لرعاياه وهو الملك القادر ذوالحول والطول فقد كان هذا الخليفة عادلاً كريماً لطيفاً مهذباً رغما عن قوته وسلطانه.قال أبو الفداء ـ

«بينا الخليفة المنصور يطوف بالكعبة ليلا اذ سمع قائلا يقول اللهم اني أشكو إليك ظهور البغي والفساد في الأرض وما يحول بين الحق وأهله من الطمع. فخرج المنصور إلى ناحية من المسجد ودعا القائل وسأله عن قوله فقال له يا أمير المؤمنين ان أمّنتني أنبأتك بالأمور على جليّها وأصولها فأمنه فقال ان الذي دخله الطمع حتى حال بين الحق وأهله هو أنت يا أمير المؤمنين فقال المنصور ويحك وكيف يدخلني الطمع. والصفراء والبيضاء في قبضتي والحلو والحامض عندي. فقال الرجل لأن الله استرعاك المسلمين وأموالهم فجعلت بينك وبينهم حجابا من الجص والآجر وأبواباً من الحديد وحجابا معهم الأسلحة وأمرتهم أن لا يدخل عليك الا فلان وفلان ولم تأمر بإيصال المظلوم والملهوف ولا الجائع والعاري ولا الضعيف والفقير وما أحد الا وله من هذا الأمر حق فلما رآك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك وآثرتهم على رعيتك تجبي الأموال فلا تعطيها وتجمعها ولا تقسمها قالوا هذا قد خان الله تعالى فمالنا لا نخونه وقد سخر لنا نفسه فاتفقوا على أن لا يصل إليك من أخبار الناس ألا ما أرادوا ولا يخرج لك عامل فيخالف أمرهم الا أقصوه ونفوه حتى تسقط منزلته ويصغر قدره. فلما انتشر ذلك عنك وعنهم عظمهم الناس وهابوهم فكان أول من صانعهم عمالك بالهدايا ليتقووا بهم على ظلم رعيتك. ثم فعل ذلك ذوو القدرة والثروة من رعيتك لينالوا به ظلم من دونهم. فامتلأت بلاد الله بالطمع ظلماً وفسادا وصار هؤلاء القوم شركاءك في سلطانك وأنت غافل. فان جاء متظلم حيل بينه وبين الدخول إليك فان أراد رفع قصة إليك وجدك قد منعت من ذلك وجعلت رجلا ينظر في المظالم فلا يزال المظلوم يختلف إليه وهو يدافعه خوفاً من بطانتك فإذا صرخ بين يديك ضرب ضرباً شديداً ليكون نكالا لغيره وأنت تنظر ولا تنكر فما بقاء الاسلام على هذا. فان قلت انما تجمع المال لولدك فقد أراك الله في الطفل يسقط من بطن أمه وما له في الأرض مال وما من مال الا ودونه يد شحيحة فما يزال الله يلطف بذلك الطفل حتى يعظم رغبة الناس إليه. ولست الذي يعطي وانما الله عز وجل يعطي من يشاء بغير حساب. وان قلت إنما أجمع المال لتسديد الملك وتقويته فقد أراك الله في بني أمية ما أغنى عنهم ما جمعوه من الذهب والفضة وما أعدوا من الرجال والسلاح والكراع حين أراد الله ما أراد. وان قلت إنما أجمعه لطلب غاية هي أجسم من الغاية التي أنت فيها فوالله ما فوق الذي أنت فيه منزلة الا منزلة ما تنال إلا بخلاف ما أنت عليه».

هذا ما ذكره أبو الفداء فمن لنا في هذه الأيام بملك أو رئيس جمهورية يصغي لمثل هذا الرجل وهو يكلمه بهذا الكلام ويخاطبه بمثل هذا الخطاب القاسي. بل لنتجول عن الملوك ورؤساء الجمهوريات الذين ربما الرسميات تقتضي الحؤول بينهم وبين الشعب إلى لوردات انكلترا وأصحاب الملايين في أميركا فان من المستحيل على أي رجل من العامة مخاطبتهم وإذا فعل فربما يشكونه إلى البوليس لأنه بعرفهم أتى أمرا فريا. بل نتجاوز هؤلاء إلى حديثي النعمة الذين هم في هذا المهجر فقط أبصروا للدينار شكلا ولونا فان مخاطبتهم صارت تعد ضربا من المحال وما هذا الا لكونهم «تجار..» وأشغالهم كثيرة أي تفاليس بتفاليس وخراب بيوت الناس وتسبيب انتحار للآخرين..دراهم وسخة وحياة سيئة مملوءة بالآثام ومع ذلك فلكي يظهروا بمظهر العظماء يترفعون عن مخاطبة الناس قائلين ان أشغالنا لا تسمح لنا بمخاطبة أحد أو مطالعة جرائد أوكتب عربية وهم يعيشون من العرب ويبيعون بضائعهم للعرب هذا اذا لم يسرقوهم «بكمبيالات» هوائية وطوابق شيطانية تتقزز نفس الأبي لدى الافتكار بها وبالأموال الوسخة التي تأتي بواسطتها ويا ليت شعري لـو كـان أحد هؤلاء الصعاليك الصعافيق خليفة كالمنصور ماذا كان يفعل أو في أي سماء كان يجلس؟ فالعظيم من كان مهذبا أديبا متواضعا لطيفا برا بلغته ووطنيته منشطا للصحف والأدب والعلم لا من ملأ بطنه من الطعام وصناديقه من مال السحت «وكمبيات الهواء» يصرف عمره وهو يشتغل كالآلة ثم يصير إلى التراب حيث لا يعرف له قبر ولا يحي له ذكر[1].

---

(1) ش: ج 7. م 6. غرة ربيع الأول 1349 هـ أوت 1930 م.

قص الأثر

ميزة من ميزات العرب

«الذكاء فطري في الأمة العربية وعريق فيها ثابت عنها في بيئاتها المتبدية كما هو ثابت في بيئاتها المتحضرة ومن مظاهر ذلك فيهم الحرص في الثمار والقافة في الانساب وقص الأثر في اقتفاء الأثر ومعرفة صاحبه من انسان وحيوان. وقص الأثر يعرف عندنا بقص الجرة وأصحابه كثيرون عند العرب بالقطر الجزائري وخصوصاً عند أهل الجنوب ولهم في ذلك نوادر وعجائب.

وقد اطلعنا في مجلة «مصر الحديثة المصورة» على قصة لأخواننا عرب الجزيرة في قص الأثر غريبة في بابها روتها عن أحد القادمين من نجد ونقلناها فيما يلي ليعلم قراؤنا الكرام ان العرب في ميزاتهم وذكائهم الفطري هم هم هنا وهنالك».

* * *

في شهر أيلول سنة 1929 ذهبت بمهمة إلى الحسا ونزلت ضيفاً على الأمير ابن جلوى وفي اليوم التالي لوصولي دخل أعرابي على الأمير وهو في مجلس يضمني وكثيرين من الشيوخ ورؤساء القبائل وكانت دلائل القلق والغضب والاضطراب بادية على محيا الأعرابي فسلم وقال إذا لم تنصفني في الحال قصدت إلى الشيوخ (يعني الملك ابن السعود) رأساً وأنت تعلم ماذا يكون.

ـ ما هي قصتك وممن تريد أن ننصفك؟

ـ لا أدري ولكني أريد ابنتي عليا فقد خرجت ترعى الإبل في الأسبوع الماضي على أن تعود أمس الأول وإلى الآن لم تعد وقد رجعت الإبل وحدها اليوم وبينها الناقة التي كانت تركبها عليا.

ـ ماذا تفكر بهذا الموضوع وهل لك عدو، وهل تعتقد ان ابنتك...

ـ لا أفكر في شيء ولا أريد أن أعتقد شيئا ولا أعرف لي عدوا ولكني أريد ابنتي ! !

فدعا الأمير أعرابيين كانا واقفين أمام الباب وأمرهما بالبحث عن الفتاة ومختطفيها واكتشافهم وإحضارهم إليه في الحال.

وكان هذان الأعرابيان من قبيلة المره وتقطن على حدود الربع الخالي وقد اشتهر رجالها بالمقدرة على قص الأثر واكتشاف السرقات والجنايات. ولذلك يندر أن تجد حاكماً أو أميرا في نجد لا يعتمد على ثلاثة أو أربعة أشخاص من رجال هذه القبيلة في مثل هذه الشؤون.

خرج الأعرابيان من سراديق الأمير إلى حيث كانت إبل الشيخ والد الفتاة، فدققا النظر في أثر كل منها وتعرف آثار الناقة التي كانت تركبها عليا ثم ذهبا متجهين شرقا ومتبعين الطريق التي مرت بها هذه الإبل في عودتها.

وواصلا السير على هذه الطريق مسافة ثلاثين ميلا فبلغا مكانا عرفا من تفرق آثار الإبل انها كانت ترعى فيها فأخذا يبحثان عن آثار ناقة عليا إلى أن اكتشفها فوق رابية مطلة على المرعى. وقد وجدا إلى جانبها اثر ناقة غريبة فتعقبا هذا الاثر مسافة ميلين إلى الجنوب ثم عادا مهتديين به نحو المكان الذي كانت فيه عليا. وقد اتضح لهما ان هذه الناقة ظلت تسير شمالا بشرق إلى أن رأى صاحبها الفتاة. فعدل سيره حينئذ متجها إلى الشمال الغربي وأخذ هذا الاتجاه ينحرف نحو الغرب كلما اقترب إلى الرابية حتى اذا ما وصلت الناقة الغريبة إليها وحاذت ناقة عليا شوهد من آثار اخفاف الناقتين ما يدل على ان الفتاة حاولت الابتعاد معتمدة على سرعة ناقتها وان الفتى أمسك بها وأنزلها بالقوة إلى الأرض ورأى الأعرابيان ان آثار الناقة الغريبة أصبحت

أكثر وضوحا بعد هذه الحادثة مما كانت قبلا، فاستدلا من ذلك ان صاحبها أردف الفتاة وراءه وسار نحو الشرق فاتَّبعا أثَر هذا السير وظلا يومين كاملين على هذا الحال إلى أن بلغا منازل قريبة من عتيبة كانت على وشك الانتقال إلى حدود الكويت.

وقد ظلا يقتفيان اثر هذه الناقة إلى أن بلغا إليها وعرفاها. فسألا عن صاحبها فقيل انها لشيخ القبيلة. فذهبا حينئذ إلى الشيخ وطلبا منه البدوي الذي كان يركب الناقة قبل ثلاثة أيام ومر بها في مكان كذا.

ولم يسع الشيخ رفض طلبهما بعد ما عرف انهما من رجال الأمير فدعا إليه هذا البدوي وسلمه إليهما.

وقد تظاهر البدوي بالدهشة والاغتراب في أول الأمر ولكن الأعرابيين ذكرا له كل ما فعله في الطريق بدقة مدهشة كأنهما كانا معه. ثم أمراه بأن يدلهما على مقر الفتاة فامتثل ووجدا الفتاة في مكان بعيد عن مركز القبيلة وقد كتفت وتركت بحراسة عدد من النساء قريبات البدوي.

وعاد الأعرابيان ومعهما الفتاة والبدوي مكتوف اليدين إلى مركز ابن جلوى وقصا عليه القصة كما وقعت بتفصيل أيدته الفتاة ولم يسع الفتى انكار شيء منه فأمر بمعاقبة البدوي عقابا صارما كان عبرة له ولغيره.

على ان مهمة الاعرابيين لم تنته عند هذا الحدّ بل جاءا إلى الأمير في اليوم التالي وأخبراه أن الناقة التي كان يركبها البدوي هي فصيلة ناقة من نوقه سرقت في أثناء حرب الحجاز ولما سألهما عما يثبت قولهما أظهرا له بادلة قاطعة شدة التشابه بين آثار الناقتين فأخذ في تحقيق المسألة إلى أن ثبت له صحتها باعتراف السارق الذي كان شقيق البدوي خاطف الفتاة[1].

(1) ش: ج 8، م 6. غرة ربيع الثاني 1349 هـ سبتمبر 1930 م.

العامة المتعلمة

(إذا كانت المساجد معمورة بدروس العلم فان العامة التي تنتاب تلك المساجد تكون من العلم على حظ وافر وتتكون منها طبقة مثقفة الفكر صحيحة العقيدة بصيرة بالدين فتكمل هي في نفوسها ولا تهمل ـ وقد عرفت العلم وذاقت حلاوته ـ تعليم أبنائها. وهكذا ينتشر العلم في الأمة ويكثر طلابه من أبنائها وتنفق سوقه فيها. أما إذا خلت المساجد من الدروس كما هو حالنا اليوم ـ في الغالب ـ فان العامة تعمى عن العلم والدين وتنقطع علاقتها به وتبرد حرارة شوقها إليه فتجسوا نفسها وأبناءها وتمسي والدين فيها غريب.

وقد عرف أسلافنا ـ رحمهم الله تعالى ـ هذه الحقيقة فحبسوا الأحباس الطائلة على التدريس في المساجد التدريس الديني الجامع بين العلم والتهذيب ولو دام ما أسسوه لكانت حالة عامتنا على غير ما نراها عليه اليوم.

وفيما يلي ننقل من «أحكام» الإمام ابن العربي قصة تبين ما كان عليه عامة بغداد من العلم أيام كانت مساجدها معمورة بالدروس. وكان العلم منتشراً في جميع طبقاتها).

«كان أبو الفضل المراغي يقرأ بمدينة السلام فكانت الكتب تأتي إليه من بلده فيضعها في صندوق ولا يقرأ منها واحدا مخافة أن يطلع فيها على ما يزعجه ويقطع به عن طلبه فلما كان بعد خمسة أعوام وقضي غرضاً من الطلب وعزم على الرحيل شد رحله وأبرز كتبه وأخرج تلك الرسائل وقرأ منها ما لو أن واحدة منها يقرأها في وقت

وصولها ما تمكن بعدها من تحصيل حرف من العلم فحمد الله تعالى ورحل على دابته قماشه وخرج إلى باب الحلبة طريق خراسان وتقدمه الكري بالدابة وأقام هو على عامي يبتاع منه سفرته فبينما هو يحاول ذلك معه اذ سمعه يقول لعامي آخر أي قل أما سمعت العالم يقول يعني الواعظ ان ابن عباس يجوز الاستثناء ولو بعد سنة لقد اشتغل بالي بذلك منه منذ سمعته يقول وظلت فيه متفكرا ولو كان ذلك صحيحا لما قال الله تعالى لأيوب وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث وما الذي كان يمنعه من أن يقول حينئذ قل ان شاء الله سمعته يقول ذلك قلت بلد يكون العاميون به من العلم في هذه المرتبة أخرج عنه إلى المراغة لا أفعله أبدا واقتني أثر الكري وحله من الكراء وصرف رحله وأقام بها حتى مات رحمه الله». (1)

(1) . ش: ج 11، م 6، غرة رجب 1349 هـ ديسمبر 1930 م.

حيلة لطيفة
أو
مخرقة المعزمين

تكلم الامام الجصاص[1] في كتابه «أحكام القرءان» على السحر وأقسامه بكلام حافل جليل فرأينا أن ننقل لقرائنا قطعة من كلامه، لاشتمالها على قصة غريبة فيها تمليح وتسلية. وفيها تبصرة بدسائس المحتالين والممخرقين. قال:

وضرب آخر من السحر وهو ما يدعونه من حديث الجن والشياطين وطاعتهم لهم بالرقى والعزائم ويتوصلون إلى ما يريدون من ذلك بتقدمة أمور ومواطأة قوم قد أعدوهم لذلك وعلى ذلك كان يجري أمر الكهان من العرب في الجاهلية. وكانت أكثر مخاريق الحلاج من باب المواطئات ولولا أن هذا الكتاب لا يحتمل استقصاء ذلك لذكرنا منها ما يوقف على كثير من مخاريقه ومخاريق أمثاله. وضرر أصحاب العزائم وفتنتهم على الناس غير يسير. وذلك انهم يدخلون على الناس من باب أن الجن انما تطيعهم بالرقى التي هي أسماء الله تعالى فانهم يجيبون بذلك من شاءوا ويخرجون الجن لمن شاءوا فتصدقهم العامة على اغترار بما يظهرون من انقياد الجن لهم بأسماء الله تعالى التي كانت تطيع بها سليمان بن داوود عليه السلام وانهم يخبرون

(1) هو امام الحنفية في وقته كان مشهورا بالزهد وكان من الحفاظ مات سنة 370.

بالخبايا وبالسرق. وقد كان المعتضد بالله مع جلالته وشهامته ووقور عقله اغتر بقول هؤلاء وقد ذكره أصحاب التواريخ. وذلك انه كان يظهر في داره التي كان يخلو فيها بنسائه وأهله شخص في يده سيف في أوقات مختلفة وأكثره وقت الظهر فإذا طلب لم يوجد ولم يقدر عليه ولم يوقف له على أثر مع كثرة التفتيش وقد رآه هو بعينه مراراً فأهمته نفسه ودعا بالمعزمين فحضروا وأحضروا معهم رجالاً ونساء زعموا أن فيهم مجانين وأصحاء فأمر بعض رؤسائهم بالعزيمة فعزم على رجل منهم زعم أنه كان صحيحاً فجن وتخبط وهو ينظر إليه وذكروا له أن هذا غاية الحذق بهذه الصناعة إذا طاعته الجن في تخبيط الصحيح. وانما كان ذلك من المعزم بمواطأة منه لذلك الصحيح على أنه متى عزم عليه جنن نفسه وخبط فجاز ذلك على المعتضد فقامت نفسه منه وكرهه الا انه سألهم عن أمر الشخص الذي يظهر في داره فخرقوا عليه بأشياء علقوا قلبه بها من غير تحصيل لشيء من أمر ما سألهم عنه فأمرهم بالانصراف وأمر لكل واحد منهم ممن حضر بخمسة دراهم ثم تحرز المعتضد بغاية ما أمكنه وأمر بالاستيثاق من سور الدار حيث لا يمكن فيه حيلة من تسلق ونحوه وبطحت في أعلى السور خواب لئلا يحتال بالقاء المعاليق التي يحتال بها اللصوص ثم لم يوقف لذلك الشخص على خبر إلا ظهوره له الوقت بعد الوقت إلى أن توفي المعتضد وهذه الخوابي المبطوحة على السور وقد رأيتها على سور الثريا التي بناها المعتضد فسألت صديقاً لي كان قد حجب للمقتدر بالله عن أمر هذا الشخص وهل تبين أمره فذكر لي أنه لم يوقف على حقيقة هذا الأمر إلا في أيام المقتدر وان ذلك الشخص كان خادماً أبيض يسمى يقق وكان يميل إلى بعض الجواري اللاتي في داخل دور الحرم وكان قد اتخذ لحى على ألوان مختلفة وكان إذا لبس بعض تلك اللحى لا يشك من رآه انها لحيته وكان يلبس في الوقت الذي يريد لحية منها ويظهر في ذلك الموضع وفي يده سيف أو غيره من السلاح حيث يقع نظر المعتضد. فإذا طلب دخل بين الشجر الذي في البستان أو في بعض تلك الممرات أو العطفات فإذا غاب عن أبصار طالبيه نزع اللحية وجعلها في كمه أو حزته ويبقى السلاح معه كانه بعض الخدم الطالبين للشخص ولا يرتابون به. ويسألونه هل رأيت في هذه الناحية أحداً فإنا قد رأيناه صار إليها فيقول ما رأيت أحداً. وكان إذا وقع مثل هذا الفزع في الدار خرجت

الجواري من داخل الدور إلى هذا الموضع فيرى هو تلك الجارية ويخاطبها بما يريد. وانما كان غرضه مشاهدة الجارية وكلامها. فلم يزل دأبه إلى أيام المقتدر ثم خرج إلى البلدان وصار إلى طرسوس وأقام بها إلى أن مات وتحدثت الجارية بعد ذلك بحديثه ووقف على احتياله. فهذا خادم قد احتال بمثل هذه الحيلة الخفية التي لم يهتد لها أحد مع شدة عناية المعتضد به. وأعياه معرفتها والوقوف عليها ـ ولم تكن صناعته الحيل والمخاريق، فما بالك بمن قد جعل هذا صناعة ومعاشا[1]. اهـ.

(1) ش: ج 1، م 7، غرة رمضان 1349 هـ فيفري 1931 م.

النجاة من العطب

بقليل من الأدب

خرج الإمام ابن العربي في صغره إلى المشرق مع أبيه وكاد البحر يوماً يغرقهم وكاد الجوع والبرد بعد خروجهم من البحر أن يهلكهم لولا أن الله تعالى بسبب طريف أنقذهم . وقد قصّ الإمام ذلك في كتابه «ترتيب الرحلة» ونقله عنه المقري في «نفح الطيب» ونقلناه عنه فيما يلي لما فيه من عجيب لطف الله ونفع المعرفة على كل حال في جميع المواطن. قال الإمام:

وقد سبق في علم الله أن يعظم علينا البحر بزوله [1] ، ويغرقنا في هوله. فخرجنا خروج الميت من القبر، وانتهينا بعد خطب طويل إلى بيوت بني كعب بن سليم — ونحن من السغب، على عطب. ومن العري، في أقبح زي. قد قذف البحر زقاق زيت مزقت الحجارة منيئتها [2] ، ودسمت الأدهان وبرها وجلدتها. فاحتزمناها ازرا، واشتملناها الفافا [3] تمجنا الانظار، وتخذلنا الأنصار. فعطف أميرهم علينا فأوينا إليه

(1) الزول العجب

(2) المنيئة الجلد أول ما يدبغ.

(3) الفاف ج لف بمعنى الحزب والطائفة.

فآوانا، واطعمنا الله تعالى على يديه وسقانا، وأكرم مثوانا وكسانا ـ بأمر حقير ضعيف، وفن من العلم ظريف. وشرحه: انا لما وقفنا على بابه ألفيناه يدير أعواد الشاة[1]، فعل السامد[2] أللاه. فدنوت منه في تلك الأطمار، وسمح لي ببياذقته[3] اذ كنت من الصغر في حد يسمح فيه للاغمار،[4] ووقفت بإزائهم، أنظر إلى تصرفهم من ورائهم. ـ اذ كان علق بنفسي بعض ذلك من بعض القرابة، في خلس البطالة، مع غلبة الصبوة والجهالة فقلت للبياذقة: الأمير أعلم من صاحبه. فلمحوني شزرا، وعظمت في أعينهم بعد أن كنت نزرا. وتقدم إلى الأمير من نقل إليه الكلام فاستدناني فدنوت منه وسألني هل لي بما هم فيه خبر، فقلت لي فيه بعض نظر، سيبدولك ويظهر. حرك تلك القطعة ففعل كما أشرت، وعارضه صاحبه كذلك فأمرته أن يحرك أخرى، وما زالت الحركات بينهم كذلك تترى، حتي هزمهم الأمير، فقالوا ما أنت بصغير.

وكان في أثناء تلك الحركات قد ترنم ابن عم الأمير منشداً:

واحلى الهوى مـــا شك في الوصـــل ربـــه
وفي الهجـــر فـــهو الـــدهـــر يـــرجو ويـــتقى

فقال لعن الله أبا الطيب أو يشك الرب. فقلت له في الحال. ليس كما ظن صاحبك أيها الأمير انما أراد بالرب ههنا الصاحب. يقول: ألذ الهوى ما كان المحب فيه من الوصال، وبلوغ الغرض من الآمال، على ريب. فهو في وقته كله على رجاء لما يؤمله. وتقاة لما يقطع به. كما قال:

إذا لم يـــكـن في الحب سخـــط ولا رضـــا
فـــأين حلاوات الـــرسائـــل والـــكـــتب

(1) الشطرنج.
(2) الغافل الساهي.
(3) البياذقة الرجالة والمراد خدمه وأتباعه.
(4) ج .غمر غير المجرب.

وأخذنا نضيف إلى ذلك من الأغراض . في طرفي ابرام وانتقاض، . ما حرك منهم إلى جهتي دواعي الانتهاض. واقبلوا يتعجبون مني، ويسألونني كم سني، ويستكشفونني عني. فبقرت[1] لهم حديثي، وذكرت لهم نجيثي[2]. واعلمت الأمير أن أبي معي فاستدعاه، واقمنا الثلاثة[3]. إلى مثواه فخلع علينا خلعه، وأسبل علينا أدمعه[4]. وجاء كل خوان، بافنان وألوان[5]. فانظر إلى هذا العلم[6] الذي هو إلى الجهل أقرب، مع تلك الصبابة اليسيرة من الأدب، كيف انقذا من العطب. وهذا الذكر يرشدكم - ان عقلتم - إلى المطلب[7] اهـ[8] .

(1) فتحته ووسعته. (2) ما بطن من امري.

(3) هو وأبوه والأمير. (4) اسال علينا خيراته.

(5) ذكر هنا صاحب النفح ان الامام وصف ما نالهم من كرم الأمير ولم يذكره هو.

(6) علم الشطرنج. (7) هو الرغبة في العلم والحرص على تحصيله.

(8) ش: غرة شوال 1349 هـ مارس 1931 م.

أباة الضيم

(أباة الضيم هم الممتنعون من الذل الذين يختارون المنية على الدنية يستطيبون الموت في العز على الحياة في الذل يعلمون أن الموت في العز راحة وشرف وان الحياة في الذل عذاب ومهانة. وقد كان هؤلاء في رجالات العرب والإسلام كثيرا عددهم، مشهورة مواقفهم بل كاد يكون هذا الخلق يكون عاماً في العرب والاسلام، في تلك الأيام.

لرجالات هذا الخلق العظيم أخبار محفوظة في كتب التاريخ وكلمات من نظم ونثر مدونة في دواوين الأدب وان في تلك الأخبار والكلمات لخير مرب للنفوس، ومنم للأدب، ومكمل للعلم ولذا أردنا أن ننشر شيئاً من تلك الأخبار والكلمات في هذا الباب من المجلة لما فيه من القصة والتربية والعبرة. وقد اعتمدنا فيما نقلناه على شرح الامام عبد الحميد بن أبي الحديد لكتاب نهج البلاغة المنسوب إلى الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه).

علي بن أبي طالب

رضي الله تعالى عنه

قال لأصحابه لما غلب أصحاب معاوية على شريعة الفرات بصفين ومنعوا أصحابه من الماء: «الموت في حياتكم مقهورين، والحياة في موتكم قاهرين» فهذه الكلمة هي الحقيقة التي من فقهها وتشرب قلبه معناها كان من أُباة الضيم. فان حياة

المقهور آلام متوالية وغصص متتابعة وهو في كل لحظة يتجرع من مرارة شعوره بالقهر ما هو أعظم بكثير مما يذوقه من سكرات الموت أو الضربة التي توقع به الموت مع أن ما يذوقه من الموت ينقضي سريعاً وما يتجرعه من مرارة القهر متجدد في اللحظات.

وان موت القاهر يشعر عندها بعزة وكرامة ، فيهما من اللذة للروح والنعيم للقلب ما يساوي حياة الادهار. فلا جرم كانت موت القاهر حياة.

الحسين بن علي

عليهما السلام

ذكر الحافظ بن حجر في «الاصابة» ان حسينا ـ رضي الله تعالى عنه ـ قال لعمر بن سعد بن أبي وقاص وهو أمير الجيش الذي وجهه عبيد الله بن زياد لقتاله: قال له اختر مني احدى ثلاث اما أن ألحق بثغر من الثغور واما أن أرجع إلى المدينة واما أن أضع يدي في يد يزيد بن معاوية (يعني مبايعة يزيد نفسه مباشرة دون واسطة ابن زياد) فقبل ذلك عمر منه وكتب به إلى عبيد الله فكتب إليه: لا أقبل منه حتى يضع يده في يدي (يعني أن يبايعه حسين (ض) فامتنع الحسين فقاتلوه فقتل معه أصحابه وفيهم سبعة عشر شاباً من أهل بيته اهـ فأبى ـ عليه السلام ـ من الذل لابن زياد واختار الموت عليه. ولم يكن سبب القتال امتناعه من مبايعة يزيد وانما كان ابايته من ذل المبايعة لابن زياد كما هو صريح ما نقله الحافظ وكما هو مستفاد من الكلام التالي لابن أبي الحديد. قال:

«سيد أهل الأباء الذي علم الناس الحمية والموت تحت ظلال السيوف اختياراً له على الدنية ـ أبو عبيد الله الحسين بن علي بن أبي طالب عليهما السلام. عرض عليه الأمان وأصحابه فأنف من الذل وخاف من ابن زياد أن يناله بنوع من الهوان مع أنه لا يقتله فاختار الموت على ذلك. وسمعت النقيب أبا زيد يحي بن زيد العلوي البصري يقول كأن أبيات أبي تمام في محمد بن حميد الطامي ما قيلت الا في الحسين عليه السلام.

وقد كان فوت الموت سهلا فرده
إليه الحفاظ المر والخلق الوعر
ونفس تعاف الضيم . كأنه
هو الكفر يوم الروع أو دُونَهُ الكفر
فاثبت في مستنقع الموت رِجْلَه
وقال لها من تحت اخمصك الحشر
تردى ثياب الموت حمرا فما أتي
لها الليل إلاَّ وهي من سندس خضر

ومن كلام الحسين عليه السلام يوم الطف (يوم قتله) المنقول عنة نقله عنه زين العابدين علي ابنه عليه السلام: الا وان الدعي ابن الدعي (عبيد الله بن زياد) قد خيرنا بين اثنتين السلة (استلال السيوف عند القتال) أو الذلة وهيهات منا الذلة. يأبى الله ذلك لنا ورسوله والمؤمنون وحجور طابت، وحجر طهرت وأنوف حمية ونفوس أبية اهـ».

فرحم الله تلك النفس الطاهرة الكريمة التي سنت للكرام كيف يموتون[1].

(1) ش : ج 3 م 7 ـ غرة ذى القعدة 1349 هـ ـ مارس 1931 م

قتيبة بن مسلم

(نرى في هذه القصة وفيما قبلها كيف كانت خاتمة كبار القواد العرب الفاتحين في خلافة بني أمية وكيف كان أولئك الخلفاء يسيؤون جزاءهم بعوامل التنافس والتحاسد بين الخلفاء وأقربائهم وقد كان هذا أحد الأسباب في ضعف الخلافة الأموية وانحلال قوة الدفاع عنها من أبطال العرب).

ومن أباة الضيم قتيبة بن مسلم الباهلي أمير خراسان وما وراء النهر لم يصنع أحد صنيعه في فتح بلاد الترك وكان الوليد بن عبد الملك أراد أن ينزع أخاه سليمان ابن عبد الملك من العهد بعده ويجعله في ابنه عبد العزيز بن الوليد فأجابه إلى ذلك قتيبة بن مسلم وجماعة من الأمراء فلما مات الوليد قبل اتمام ذلك وقام سليمان بالأمر بعده وكان قتيبة أشد الناس في أمر سليمان وخلعه عن العهد علم أنه سيعزله عن خراسان ويوليها يزيد بن المهَلَّب لوِدٍّ كان بينه وبين سليمان فكتب قتيبة إليه كتاباً يهنيه بالخلافة ويذكر بلاءه وطاعته لعبد الملك وللوليد بعده وانه على مثل ذلك ان لم يعزله عن خراسان وكتب إليه كتاباً آخر يذكره فيه بفتوحه وآثاره ونكايته في الترك وعظم قدره عند ملوكهم وهيبة العجم والعرب له وعظم صيته فيهم ويذم آل المهلب ويحلف له بالله لئن استعمل يزيد بن المهلب على خراسان ليخلعنه وليملأنها عليه خيلاً ورجلاً وكتب كتاباً ثالثاً فيه خلع سليمان وبعث بالكتب الثلاثة مع رجل من قومه من باهلة

يثق به وقال له ادفع الكتاب الأول إليه فان كان يزيد بن المهلب حاضراً عنده فقرأ الكتاب ثم دفعه إلى يزيد فادفع إليه هذا الثاني فإن قرأه وألقاه إليه أيضاً فادفع إليه الثالث وان قرأ الكتاب الأول ولم يدفعه إلى يزيد فاحتبس الكتابين الآخرين معك فقدم الرسول على سليمان ودخل عليه وعنده يزيد بن المهلب فدفع إليه الكتاب الأول فقرأه وألقاه إلى يزيد فدفع إليه الكتاب الثاني فقرأه وألقاه إلى يزيد أيضاً فدفع إليه الكتاب الثالث فقرأه وتغير لونه وطواه وأمسكه بيده وأمر بإنزال الرسول وإكرامه ثم أحضره ليلاً ودفع إليه جائزته وأعطاه عهد قتيبة على خراسان وكان ذلك مكيدة من سليمان يسكنه ليطمئن ثم يعزله وبعث مع رسوله رسولاً فلما كان بحلوان بلغه خلع قتيبة سليمان بن عبد الملك فرجع رسول سليمان إليه فلما اختلفت العرب على قتيبة حين أبدى صفحته لسليمان وخلع ربقة الطاعة بايعوا وكيع بن أبي سود التميمي على إمارة خراسان وكانت أمراء القبائل قد تنكرت لقتيبة لإذلاله إياهم واستهانته بهم واستطالته عليهم وكرهوا امارته فكانت بيعة وكيع في أول الأمر سراً ثم ظهر لقتيبة أمره فأرسل إليه يدعوه فوجده قد طلا رجله بمغرة وعلق في عنقه حرزاً وعنده رجلان يرقيان رجله فقال للرسول قد ترى ما برجلي فرجع وأخبر قتيبة فأعاده إليه فقال: قل له ليأتيني محمولاً قال لا أستطيع فقال قتيبة لصاحب شرطته انطلق إلى وكيع فأتني به فإن أبى فاضرب عنقه وأتني برأسه ووجه معه خيلاً فقال وكيع لصاحب الشرطة إلبث قليلاً تلحق الكتائب وقام فلبس سلاحه ونادى في الناس فأتوه فخرج فتلقاه رجل فقال ممن أنت؟ فقال من بني أسد فقال ما اسمك؟ فقال ضرغام فقال ابن من؟ قال ابن ليث فتيمن به وأعطاه رايته وأتاه الناس ارسالاً من كل وجه فتقدم بهم وهو يقول:

شيخ قوم إذا حمل مكروهة شد الشراسيف لها والحزيما

واجتمع الي قتيبة أهله وثقاته وأكثر العرب ألسنتهم له وقلوبهم عليه فأمر قتيبة رجلاً فنادى أين بنو عامر وقد كان قتيبة جفاهم في أيام سلطانه فقال له مجفر ابن جزء الكلابي نادهم حيث وضعتهم فقال قتيبة أنشدكم الله والرحم وذاك لأن باهلة وعامراً من قيس عيلان فقال مجفر أنت قطعتها قال فلكم العُتْبَى فقال مجفر لا أقالنا الله إذاً فقال قتيبة:

يا نفس صبراً على ما كان من ألم إذ لم أجد لفضول العيش أقرانا

ثم دعا ببرذون له مدرب ليركبه فجعل يمنعه الركوب حتى أعيا فلما رأى ذلك عاد إلى سريره فجلس وقال دعوه فان هذا أمر يراد وجاء حيان النبطي وهو يومئذ أمير الموالي وعدتهم سبعة آلاف وكان واجداً على قتيبة فقال له عبد الله بن مسلم أخو قتيبة احمل يا حيان فقال لم يأن بعد فقال له ناولني قوسك فقال حيان ليس هذا بيوم قوس ثم قال حيان لابنه إذا رأيتني قد حولت قلنسوتي ومضيت نحو عسكر وكيع فمل بمن معك من العجم إلي فلما حول حيان قلنسوته ومضى نحو عسكر وكيع مالت الموالي معه بأسرها فبعث قتيبة أخاه صالح بن مسلم إلى الناس فرماه رجل من بني ضبة فأصاب رأسه فحمل إلى قتيبة ورأسه مائل فوضعه على مصلاه وجلس عند رأسه ساعة وتهايج الناس وأقبل عبد الرحمن بن مسلم أخو قتيبة نحوهم فرماه الغوغاء وأهل السوق فقتلوه وأُشير على قتيبة بالانصراف فقال الموت أهون من الفرار وأحرق وكيع موضعاكانت فيه إبل قتيبة ودوابه وزحف بمن معه حتى دنا منه فقاتل دونه رجل من أهله قتالاً شديداً فقال له قتيبة انج بنفسك فان مثلك يضن به عن القتل قال بئسما جزيتك به أيها الأمير إذا وقد أطعمتني الخردق وألبستني النمرق وتقدم الناس حتى بلغوا فسطاط قتيبة فأشار عليه نصحاؤه بالهرب فقال إذاً لست لمسلم بن عمرو ثم خرج إليهم بسيفه يجالدهم فجرح جراحات كثيرة حتى ارتث وسقط فاكبوا عليه فاجتزوا رأسه وقتل معه من إخوته عبد الرحمن وعبد الله وصالح والحصين وعبد الكريم ومسلم وقتل معه جماعة من أهله وعدة من قتل معه من أهله واخوته احد عشر رجلاً وصعد وكيع بن أبي سود المنبر وأنشد:

من ينك العيـ ـر ينك نياكا

ان قتيبة أراد قتلي وأنا قتال الأقران ثم أنشد:

قد جـربونى ثم جربونى من غلوتـين ومن المئـين

حتى اذا شبت وشيبـونى خلوا عنـانى ثم سيبونى

حذرا مـــنى وتنكبـــونى فانـــنى رام لمن يرميـــنى

ثم قال أنا أبو مطرف يكررها مرارا ثم قال:

أنا ابن خندف وبنو قبائلها للصالحات وعمي قيس عيلانا

ثم أخذ بلحيته وقال اني لأقتلن ثم لاقتلن ولأصلبن ثم لأصلبن ان مَرْزُبَانَكُمْ هذا ابن الـ..... قد أغلى أسعاركم والله لئن لم يصير الفقير بأربعة دراهم لاصلبنه صلوا على نبيكم ثم نزل وطلب رأس قتيبة وخاتمه فقيل له ان الازد أخذته فخرج مشهراً وقال والله الذي لا إله إلا هو لا أبرح حتى أوتى بالرأس أو يذهب رأسي معه فقال له الحصين بن المنذر يا أبا مطرف فانك تؤتى به ثم ذهب إلى الأزد فأخذ الرأس وأتاه به فسيره إلى سليمان بن عبد الملك فأدخل عليه ومعه رءوس إخوته وأهله وعنده الهذيل بن زفر بن الحارث الكلابي فقال أساءك هذا يا هذيل قال لو ساءني لساء ناساً كثيراً فقال سليمان ما أردت هذا كله وانما قال سليمان ذلك للهذيل لأن قيس عيلان تجمع كلاباً وباهلة قالوا ما ولى خراسان أحد كقتيبة بن مسلم ولو كانت باهلة في الدناءة والضعة واللؤم إلى أقصى غاية لكان له بقتيبة الفخر على قبائل العرب قال رؤساء خراسان من العجم لما قتل قتيبة يا معشر العرب قتلتم قتيبة والله لو كان منا ثم مات لجعلناه في تابوت فكنا نستفتح به إذا غزونا وقال الأصبهبد يا معاشر العرب قتلتم قتيبة ويزيد بن المهلب لقد جئتم شيئاً إداً فقيل له أيهما كان أعظم عندكم وأهيب قال لو كان قتيبة بأقصى حجر في المغرب مكبلاً بالحديد والقيود ويزيد معنا في بلدنا وال علينا لكان قتيبة أهيب في صدورنا وأعظم وقال عبد الرحمن بن حمانة الباهلي يرثي قتيبة شعر:

كأن أبا حفص قتيبة لم يسـر بجيش الى جيش ولم يعل منبرا

ولم تخفق الرايـات والجيش حولـه

صفـوفا ولم يشهد له الناس عسكرا

دعتـه المنـايا فاستجـاب لربـه
وراح الى الجنـات عفـا مطهـرا

فما رزىء الاسـلام بعد محمـد
بمـثل أبى حفـص فبكيـه عبهرا(1)

(عبهر أم ولد له).

(1) ش : ج 6 م 7 ـ غرة صفر 1350 هـ ـ جوان 1931 م

صدق الدين وصحة القومية

(نرى في القصة التالية مثالا من أمثلة التضحية بالنفس في سبيل سلامة الاخوان ونصرتهم ويمثل هذا الرجل فتح المسلمون العالم الكثير بالعدد القليل فنسوق القصة عبرة لمن لا يبالون اذا سلموا أن يهلك الناس أجمعون. والحقيقة انه لا سلامة للفرد الا بسلامة المجموع لو كانوا يعقلون).



حاصرت الترك مدينة برذعة من أعمال أذربيجان في أيام هشام بن عبد الملك حصاراً شديدا واستضعفتها وكادت تملكها وتوجه إليها لمعونتها سعيد الحرشي من قبل هشام بن عبد الملك في جيوش كثيفة وعلم الترك بقربه منهم فخافوا وأرسل سعيد واحدا من أصحابه إلى أهل برذعة سرا يعرفهم وصوله ويأمرهم بالصبر خوفا أن لا يدركهم فسار الرجل ولقيه قوم من الترك فأخذوه وسألوه عن حاله فكتمهم فعذبوه فأخبرهم وصدقهم فقالوا ان فعلت ما نأمرك به أطلقناك والا قتلناك فقال ما تريدون قالوا انت عارف بأصحابك ببرذعة وهم يعرفونك فإذا وصلت تحت السور فنادهم انه ليس خلفي مدد ولا من يكشف ما بكم وانما بعثت جاسوسا فأجابهم إلى ذلك فلما صار تحت سورها وقف حيث يسمع أهلها كلامه وقال لهم أتعرفونني قالوا نعم أنت فلان بن فلان قال فان سعيدا الحرشي قد وصل إلى سكان كذا في مائة ألف سيف وهو يأمركم بالصبر وحفظ البلد وهو مصبحكم أو ممسيكم فرفع أهل برذعة أصواتهم بالتكبير وقتلت الترك ذلك الرجل ورحلوا عنها ووصل سعيد فوجد أبوابها مفتوحة وأهلها سالمين[1].

(1) ش: ج 7، م 7. غرة ربيع الأول 1350 جوليت 1931.

ضلال شيخين

واهتداء غلام

كانت مدينة الطائف ـ وما زالت ـ مصطاف أهل مكة وكان بين البلدين صلة وقرابة. حتى قرنتا في قول المشركين الذي حكاه الكتاب: «**لو أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم**» فخرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم إليها بعد وفاة أبي طالب واشتداد الأذى من قريش عليه. يدعو أهلها ثقيفا ويلتمس عندهم النصرة والمنعة بهم من قومه فلقي من أذاهم أشد مما كان يلقى فأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس والجأوه إلى حائط مصطاف لعقبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة القرشيان الأمويان وهما فيه ينظران إليه ويريان ما لقيه من سفهاء ثقيف لم يغيرا من ذلك شيئا وكأن ذلك الجمع من العبيد والسفهاء لما رأوه التجأ إلى حائط فيه رجلان من قومه قريش ومن بني عبد مناف رجعوا عنه فعمد إلى ظل حَبْلة (كرمة) من عنب فجلس فيه.

رأى ابنا ربيعة ما لقي النبي ﷺ ـ وهما من بني عبد مناف ـ فتحركت له رحمهما فدعوا غلاما لهما نصرانيا اسمه عَدَّاسٌ فقالا له خذ قِطْفا (عنقودا) من العنب فضعه في هذا الطبق واذهب به إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه.

جاء عداس بالقطف في الطبق فوضعه بين يدي النبي ﷺ فقال النبي ﷺ باسم الله وتناول منه فسمع عداس ما لم يكن يسمعه في تلك الأرض من المشركين فنظر في وجه النبي ﷺ وقال له: والله ان هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد

فعرف النبي ﷺ انه ليس من تلك الأرض فسأله عن بلده وعن دينه فقال له انه نصراني وانه من أهل قرية نِينَوى من قرى الموصل فقال له النبي ﷺ : من قرية الرجل الصالح يونس بن متّىً فدهش عداس وقال له: وما يدريك ما يونس بن متّىً وانني فارقت نينوى وما يعرفه من أهلها الا قليل فمن أين عرفت أنت هنا هذا وأنت أمي في أمة أمية فقال النبي ﷺ ذلك أخي كان نبيا وأنا نبي.

كان عداس على يقين ـ بما خَبَر من أهل تلك الأرض وعرف من جهلهم وأميتهم ـ من أنهم بعداء كل البعد عما شاهده من أدب النبي ﷺ عند الأكل بذكر اسم الله، وما سمعه منه من العلم بيونس وبلدته فتحقق ان هذا ما وصل إليه الا بوحي من الله فلم يتردد في تصديقه والايمان به وأَكبَّ على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه.

لم يكن عند عداس مال يطغيه ولا جاه ينفخه ولا رئاسة يتعالى ويتعاظم بها ولا سلطة كهنوتية تفسد عليه ادراكه وتغل فكره فلذلك نظر نظرا صحيحا وفكر تفكيرا مستقيما فاستنتج من علم النبي ﷺ ما لم يعلمه الناس في ارض جهل وأمية انه نبي موحى اليه من الله وكل من سلم من تلك القواطع التي سلم منها عداس فهو أقرب الناس إلى قبول الحق واتباعه وما يتباطؤ من يتباطؤ عن قبول الحق والإذعان لأدلته من تلك الموانع ويكون تباطؤه بقدر ما عنده منها.

بينما كان الغلام الصحيح العقل النقي القلب السليم الصدر الحر الضمير يستعمل فكره فيشرح الله صدره فيهتدي إلى الاسلام ـ كان ذانك الشيخان الضالان اللذان أطغاهما المال ونفخهما الجاه وأعماهما الحرص على الرياسة: عتبة وشيبة ـ يقول أحدهما للآخر «أما غلامك فقد أفسده عليك».

رجع عداس ـ وقد اهتدى ـ إلى الشيخين الضالين فقالا له: ويلك يا عداس مالك تقبل رأس هذا الرجل (يتجاهلانه) ويديه وقدميه فقال لهما: يا سيدَيَّ ما في الأرض شيء خير من هذا لقد أخبرني بأمر لا يعلمه إلا نبي فقالا له: «ويحك يا عداس لا يصرفنك عن دينك ـ وقد كان عداس نصرانيا ـ فان دينك خير من دينه».

لا يسوءهما أن يكون عداس على أي ملة وانما يسوءهما أن يتبع محمدا ﷺ الذي يحسدانه ويخافان منه على رياستهما فحاولا أن يصرفاه عنه ويصداه عن اتباعه بما قالاه له. لكن عداسا الذي عرف الحق بالدليل، وذاق حلاوة الايمان وبرد اليقين، لم يُقم لكلامهما وزنا ولم يُحِر لهما جوابا، وأعرض عنهما كما يُعرَض عن الجاهلين وثبت على الدين الحق. وكذلك الايمان اذا خالطت بشاشته القلوب[1].

---

(1) ش: ج 2 م 11. غرة صفر 1354 هـ مارس 1935 م.

لا أثر للعبودية مع الأحرار

أغارت خيل بني القين على أبيات بني معن فاحتملوا فيما غنموا زيد بن حارثة الكلبي وقد جاء مع أمه سعدى عند أخواله وهو غلام يَفَعَ فسبَوه وباعوه في سوق عكاظ فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة بنت خويلد فلما تزوجت بمحمد ﷺ وهبته له فصار عبداً لمحمد ﷺ بتلك الهبة.

قدم ناس من قوم حارثة مكة فرأوا زيدا فعرفوه فلما رجعوا أخبروا أباه وكان قد وجد على فقده وسبيه وجداً شديداً وكان دائم البحث عنه فما أن بلغه نبأ وجوده بمكة حتى خرج هو وأخوه كعب قاصدين إلى مكة ليفتديا زيدا من مالكه بما استطاعا من المال.

قدما مكة وسألا عن محمد ﷺ الذي يملك ابنهما فدلا عليه في المسجد بفناء الكعبة فدخلا عليه فقالا: «يا بنَ عبد المطلب يا بن سيد قومه أنتم أهل حرم الله وجيرانه تفكون العاني وتطعمون الأسير. جئناك في ابننا عندك تمن علينا وتحسن إلينا في فدائه قال ـ من هو ـ قالا زيد بن حارثة، فقال فهلاغير ذلك، قالا ما هو الا ذاك، قال ادعوه فاخبره فان اختاركم فهو لكم وان اختارني فوالله ما أنا بالذي اختار على من اختارني أحدا، قالا قد رددتناإلى النصف وأحسنت، فدعاه فقال هل تعرف هؤلاء، قال نعم هذا أبي وهذا عمي قال فأنا من قد علمت وقد رأيت محبتي فاخترني أو اخترهما قال زيد ما كنت بالذي اختار عليك أحدا أنت مني مكان الأب والعم، فقالا ويحك يا زيد أتختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك قال: نعم قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذي اختار عليه أحدا أبدا.

كان زيد بحكم العادة عبداً مملوكا ولكنه لم يشعر مع محمد سيد الأحرار ـ وهذا قبل نبوته ـ بشيء من آثار العبودية. انه لا يستبد بالناس ويمتهنهم ويدوس كرامتهم إلا من لم يستكمل معنى الانسانية ولم يكن هو في نفسه حرا أما من كملت انسانيته وخلصت حريته فإنه لا يستطيع أن يمتهن الإنسانية ولا يذل كرامتها وان الوصايا التي أوصى بها الإسلام في شأن المملوك والخادم لا يشعر معها المملوك والخادم بشيء من العبودية وانحطاط المقام ومحمد ﷺ المفطور على الرحمة والإحسان سيد الناس وسيد الأحرار لم يشعر معه زيد بشيء من أثر العبودية واختار البقاء معه على الأب والعم والأقارب.

جازى محمد ﷺ زيدا على اختياره له على أبيه وعمه وأهله. فأعلن بتبنيه فصار يدعى زيد بن محمد حتى أبطل الله التبني بقوله تعالى: «أُدعُوهم لِآبائهم هو أقسطُ عند الله فان لم تعلَموا آباءَهم فاخوانُكُم في الدين ومَواليكُم».

وزيد أحد السابقين للإسلام وما ظنك بمن رُبِّي تحت جناح محمد صلى الله عليه وآله وسلم[1].

(1) ش : ج 6 م 11 ـ غرة جمادى الثانية 1354 هـ ـ سبتمبر 1935 م

من خان قوماً فليس منهم

ضربت الجيوش المحمدية نطاق الحصار على بني قريظة بعدما كانت نقضت عهدها يوم الأحزاب ورأت قريظة أنها مأخوذة وانه نازل بها من الله عقاب الخائنين .

بعثوا إلى رسول الله ﷺ ان ابعث إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر الأوسي ـ وقد كانوا حلفاء الأوس ليستشيروه في أمرهم فلما جاءهم أبو لبابة قام إليه الرجال وجهش إليه النساء والصبيان بالبكاء وكانت عليهم منه رقة وبعث مشهدهم في قلبه رحمة أنسته ما كان منهم من خيانة لعهد رسول الله والمسلمين، وموازرة العدو عليهم حتى احيط بالمسلمين من فوقهم ومن أسفل منهم وحتى زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر.

استشار بنو قريظة أبا لبابة في النزول من حصنهم على حكم محمد ﷺ فقال لهم نعم. وعلم انهم استحقوا بخيانتهم القتل وانهم مقتولون فأشار لهم بيده إلى حلقه إشارة فهموا منها انهم يذبحون.

قال أبو لبابة: «فو الله ما زالت قدماي من مكانهما حتى عرفت اني قد خنت الله ورسوله» وذهب على وجهه وقد عرف عظم الجرم الذي ارتكب فذهب إلى المسجد النبوي وربط نفسه بسلسلة إلى عمود من عمده وأقسم لا يبرح كذلك حتى يتوب الله عليه وأقام على ذلك لا يذوق طعاماً ولا شراباً حتى يخر مغشياً عليه وكانت تأتيه زوجته أو ابنته فتحله إذا حضرت الصلاة ثم يعود.

مضت عليه بضع عشرة ليلة أو سبعة أيام ورسول الله ﷺ يراه فيقول لو جاءني لاستغفرت له فاما إذا قد فعل ما فعل فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه.

ففي سحر ليلة نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم توبة الله التواب الرحيم على أبي لبابة وهو في بيت أم سلمة (ض) فبشر بالتوبة وثار الناس إليه ليطلقوه فأبي حتى يطلقه رسول الله ﷺ بيده فلما مر به رسول الله ﷺ عند خروجه لصلاة الصبح أطلقه.

فرح أبو لبابة بتوبة الله عليه وجعل من توبته أن عاهد الله أن لا يطأ أرض بني قريظة أبدا ـ وكانت له بها أموال ـ وان لا يرى في بلد خان فيه الله ورسوله وقال لرسول الله ﷺ ان من توبتي ان اهجر الدار التي أصبت فيها الذنب وان انخلع من مالي فقال له رسول الله ﷺ يجزئك الثلث يا أبا لبابة.

العبرة

إشارة خفيفة لقوم مغلوبين فيها بيان ما يقصد بهم ـ عدها هذا الصحابي البدري النقيب الجليل في هذه المنزلة من الخيانة حتى فزع لها هذا الفزع وخاف منها هذا الخوف وما اطمأن حتى تحقق توبة الله عليه فشكر ذلك بهجران موطن الخيانة وتصدق بثلث ماله. ذلك لأنها خيانة في أمر عام وفي موقف حربي بين المسلمين وعدوهم وأعظم الخيانة ما كان في مثل ذلك وكأن أبا لبابة رأى نفسه بتلك الخيانة للمسلمين لم يبق كواحد منهم فربط نفسه منفرداً عنهم حتى يُطَهَّر بالتوبة. وفي الحق أن من خان قوماً فليس منهم بل هو شر عليهم من أعدائهم. فرضي الله عن أبي لبابة عدد سخطه ومقته للخائنين[1].

(1) ش: ج 9، م 11، غرة رمضان 1354 هـ دبسمبر 1935 م.

حماس الشباب

[1] قال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: «بينا أنا واقف في الصف يوم بدر فنظرت عن يميني وشمالي فإذا أنا بغلامين من الأنصار حديثة أسنانُهما تمنيت أن أكون بين[2] اضلَعَ منهما[3]. فغمزني أحدهما فقال يا عم هل تعرف أبا جهل قلت نعم، ما حاجتك إليه يا ابن أخي قال أُخبرت أنه يسب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق[4] سوادي سواده حتى يموت الأعجلُ[5] منا فتعجبت لذلك. فغمزني الآخر فقال لي مثلها[6]. فلم انشب أن نظرت إلى أبي جهل[7] يجول في الناس قلت ألا إن هذا صاحبُكما الذي سألتماني، فابتدراه[8] بسيفيهما يضربانه حتى قتلاه ثم انصرفا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأخبراه فقال أيكما قتله قال كل واحد منهما أنا قتلته فقال هل مسحتما سيفيكما قالا لا فنظر في السيفين فقال كلاكما قتله[9]، سلبُه لِمُعاذ بن عمرو بن الجموح. وكانا معاذَ بن عفراء ومعاذَ بن عمرو بن الجموح».

---

(1) القصة رواها الشيخان.

(2) أقوى وأشد.

(3) أشار له بطرفه أو وضع عليه يده.

(4) شخصي شخصه

(5) الأقرب أجلا.

(6) ألبث.

(7) يتنقل بينهم لا يثبت في موضع يتفقدهم لأنه كان رأسهم.

(8) أسرعا إليه فناجزاه.

(9) ما عليه من ثياب وسلاح.

بيان وإيضاح

شابان ملأ الإيمان قلوبهما، وغظمت على النبي ﷺ غيرتهما، واشتد على مؤذيه حنقهما فهانت عليهما في سبيل الانتصار له والانتقام من عدوه الظالم نفوسهما. وكل واحد منهما يريد أن يفوز بهذا المقام من إرضاء الله ورسوله فيسأل الرجل الكهل الواقف بينهما ويكتم سؤاله عن صاحبه ويقسم أنه لو رأى عدو الله أبا جهل لما فارقه حتى يقتل أحدهما صاحبه. فيقف هذا الرجل الكهل الذي كان استصغرهما واستضعفهما وود لو كان بين رجلين أقوى منهما ـ متعجباً من أمرهما وما ظهر له من قوة قلبهما وتواردهما في السؤال على غاية واحدة لا يبالي كل واحد منهما في سبيلها بالموت الزؤام. وأراد الله أن يبلغهما تلك الغاية وأن يرى ذلك السيد الكهل تصديق فعلهما لقولهما فرأى أبا جهل يتنقل في الناس فأراهما إياه اراءة واحدة فانقضا عليه كبازيين على الفريسة فاغمدا فيه سيفيهما وشفيا ـ في الله ـ منه غيظهما وجاءا النبي ﷺ يخبرانه بقتل رأس الكفر وأعظم الأعداء وأشدهم أذى يدخلان الفرح عليه ويبتغيان مرضاة الله ورسوله. وكل واحد منهما يرى أنه قد قتله لما علم من أثر سيفه فيه وصدق رسول الله ﷺ دعوى كل واحد منهما لما رأى من أثر دم عدو الله على سيفيهما وأعطى السلَب أحدهما ولم يكن للسلب قصدهما فخص ـ باختياره ـ من شاء منهما فذهبا طيبة بما صنعا نفوسهما راضية برضى الله ورسوله عنهما.

هذا هو الشباب الحي وهذا هو حماسه الدال على قوة حيويته وصدق عقيدته وهذا هو اندفاعه الذي ميزه الله به عن الكهول والشيوخ وهذه مظاهر حزمه ونشاطه في الانجاز والتنفيذ. فنعم الشبان أولئك الشبان، ينقضون كالصواعق، ونعم الكهول أولئك الكهول، يثبتون كالجبال [1].

---

(1) ش: ج 1، 1 (1) ش: ج 11، م 11، غرة ذي القعدة 1354 لهجري 1936.

بئس حامل القرآن أنا إذا

كان يوم اليمامة في حرب بني حنيفة قوم مسيلمة الكذاب ـ من أشد أيام حروب الردة. وكان للقراء حملة القرآن فيه المواقف المشهودة. وكان القائد الأعلى سيف الله خالد بن الوليد رضي الله عنه ـ يختار منهم من يعطيه على قسم من الجيش الراية. وحامل الراية لا تسقط من يده حتى يسقط ميتاً، ولا تؤخذ منه حتى تؤخذ روحه دونها، وكانت راية المهاجرين مع عبد الله بن حفص بن غانم القرشي فثبت معها حتى قتل، فاعطيت الراية لسالم مولى ابي حذيفة (ض) فقال لهم: ما أعلمني لأي شيء أعطيتمونيها؟ قلتم صاحب قرآن وسيثبت كما ثبت صاحبها قبله حتى مات؟ قالوا: أجل، فانظر كيف تكون أتخشي علينا من نفسك شيئاً؟ قال: بئس حامل القرآن أنا إذاً. تناول سالم الراية وهو يرى تناولها عهداً بينه وبين الله والمسلمين أن لا يفر حتى يصرع دونها، فصدق ما عاهد الله عليه وجرى على سنة حملة القرآن اخوانه من قبله. فأمسكها بيمينه حتى قطعت يمينه، فأخذها بيساره حتى قطعت يساره، فاعتنقها حتى صرع، فسأل أصحابه وهو صريع: ما فعل أبو حذيفة؟ يعني مولاه، فقالوا قتل فقال: أضجعوني بجنبه، فجمعهما بطن الأرض شهيدين كما عاشا على ظهرها على الاسلام والهجرة والنصرة مجتمعين رضي الله عنهما.

العبرة

القرآن راية الإسلام فحامل القرآن حامل راية الإسلام فلذلك كان يتقدم حملته لحمل الرايات تحت بارقة السيوف، يجودون بأنفسهم، والجود بالنفس أقصى

غاية الجود، في جميع مواطن البلاء والشدة ومواقف الفزع والمحنة، هم أهل التقدم إلى الأمام. هؤلاء هم حملة القرآن الذين حملوه حمل فهم وعلم وعمل فاعتزوا به وأعزوا به الإسلام فأعزهم الله. وخلَفت من بعدهم خلوف اتخذوه حرفة وتجارة، وجاءوا بقراءته على الأموات بوجوه من البشاعة والمهانة والحقارة فأذلوا أنفسهم وأذلوا اسم حامل القرآن بقبح أعمالهم فأذلهم الله. على أن الله ـ ولله الحمد ـ لا يخلي الأرض من قائم لله بحجة، ومستجيب لداعي الله في سلوك المحجة، فقد أخذ كثير من حملة القرآن يعرفون قيمة ما حمَلوا. وينهضون بما حُمِّلوا، ويعملون لعز الإسلام ورفع راية القرآن: راية الحق والعدل والأخوة والاحسان لبني الانسان. أيدهم الله وأنقذ بهم الانسانية ومد بهم رواق السلام[1]

(1) ش: ج 1، م 13. محرم 1356 هـ مارس 1937 م.

هكذا تكون النزاهة

رضي الله عنك يا عمر !

كان أبو موسى الأشعري (ض) أميراً بالبصرة من طرف عمر (ض) فمر به عبد الله وعبيد الله ابنا عمر قافلين من الغزو في جيش كان بالعراق فرحب بهما وسهل وقال وددت لو أقدر على شيء أنفعكما به. ثم اهتدى إلى وجه نفعهما فقال عندي مال من مال الله أريد أن أبعثه إلى أمير المؤمنين فأُسَلِّفُكُمَاهُ فتبتاعان به متاعا من متاع العراق ثم تبيعانه بالمدينة فيكون لكما الربح وتوديان رأس المال لأمير المؤمنين فقبلا ذلك منه وكتب لعمر يعلمه. فلما قدما المدينة باعا ما اشتريا من العراق واربحا وجاءا لأمير المؤمنين برأس المال وأمسكا ربحها.

رأى عمر أن أبا موسى حاباهما وانه راعى جانب عمر أمير المؤمنين فيهما ولذا خصصهما بذلك دون غيرهما. وما كان عمر ليرضى أن يستغل مركزه في الأمة لنفعه الخاص ولا أن يستغله أحد من أهله فأراد أن يأخذ من ابنيه رأس المال والربح ويعرفهما ان أبا موسى حاباهما فقال لهما: أكلّ الجيش أسفله مثل ما أسلفكما؟ قالا: لا فقال: ابنا أمير المؤمنين فأسلفكما ! إِدّيا المال وربحه فأما عبد الله وهو أفقه الابنين - فسكت، وأما عبيد الله - وهو أشدهما - فقال: ما ينبغي لك يا أمير المؤمنين هذا، لو هلك هذا المال أو نقص لضمناه فقال عمر: اديا‌ه فراجعه عبيد الله. ورأى أحد جلساء عمر أن يقطع النزاع بوجه يرضي عمر ويبعده عن المحاباة فقال: يا أمير المؤمنين اجعله قراضا. فقال عمر قد جعلته قراضا فأخذ رأس المال وشطر الربح لبيت مال المسلمين وأخذ أبناه - كعاملين في القراض - الشطر الآخر.

كل ذي علم أو إمارة أو منزلة عند الناس، ترى الناس يسرعون في مرضاته فينجر إليه وإلى من إليه فوائد ما كانت لتنجر لولا مكانه الخاص. فعلى الذين لا يحبون أن يأخذوا من الناس أكثر مما يعطونهم، ولا يحبون أن يستغلوا مراكزهم - أن يحتاطوا من هذه الناحية حتى لا ينالوا ولا يُنال باسمهم شيء زائد على ما يناله كل أحد من الناس مثلما كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه. وليس هذا من الورع الذي قد يكون المقصر فيه معذورا بعض العذر. بل هو من الواجب الذي يتحتم على كل ذي منزلة. وقدر بين الناس فان استغلال المنزلة والاختصاص بالمنافع العامة دون سائر الناس من الأكل بالباطل.

نسأل الله أن يجعل فينا ما ينفع عباد الله وأن يجعل ما نعطي أكثر مما نأخذ وما نعمل أكثر مما نقول آمين يا رب العالمين[1].

(1) ش: ج 2، م 13، غرة صفر 1356 هـ ابريل 1937 م.

نعوذ بالله من السلب بعد العطاء

كان ممن قدم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم من بني حنيفة سنة الوفود الرَّجَّال بن عُنْفُوَه فأسلم وقرأ وفقه في الدين. وكان يُرى عليه من الخشوع والخير وملازمة قراءة القرآن شيء عجيب. حتى بعثه معلماً لأهل اليمامة. وبينما هو جالس يوما من الأيام في رهط من الصحابة منهم أبو هريرة خرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: «لضرس أحدكم - أيها المجلس - في النار يوم القيامة أعظم من أحد».

فلما ارتدت بنو حنيفة باليمامة وتبعت مسيلمة الكذاب أرسل أبو بكر إلى الرَّجَّال فأوصاه بوصيته وبعثه يشغب على مسيلمة وهو يظن منه الصدق فلما لحق باليمامة لحق بمسيلمة وشهد له أن النبي ﷺ أشركه في الأمر وأن هذا نبي وهذا نبي فاستجاب له من كان أسلم من بني حنيفة وصدقوه وكان أشد وأعظم فتنة عليهم من مسيلمة نفسه، بما كانوا يعلمون من حاله وثبت على ردته حتى قتل - قتله زيد ابن الخطاب.

قال أبو هريرة: «مضى أولئك الرهط لسبيلهم وبقيت أنا والرَّجَّال فما زلت لها متخوفا حتى سمعت بمخرج الرَّجَّال فأمنت وعرفت أن ما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حق».

هذا سلف الناكصين - وبئس السلف لبئس الخلف - وهذه عاقبتهم بحكمة الله وعدلة فيهم، يسلبهم ما أعطاهم وهو أعلم بهم، ويجعلهم فتنة لمن عداهم ليميز الله الخبيث من الطيب، ويعلم الصادقين ويعلم الكاذبين ثم تكون العاقبة للمتقين[1].

(1) ش: ج 2 م 15 - صفر 1358 هـ - مارس 1939 م

وأنا أغتنمها ..

المصلحة العمومية، فوق الحزازات الشخصية

رجل عظيم له أثر جليل في فتح الجزائر (المغرب الوسط)، فهو أول من وطئت معه خيول الإسلام هذه الأرض. ولكنه مغمور في التاريخ، لا يجري ذكره على الألسنة، ولا تعني بتفصيل حياته الكتب. ذلك هو أبو المهاجر دينار مولى مسلمة ابن مخلد الانصاري رحمه الله.

استعمله مولاه مسلمة ابن مخلد والي مصر من قبل معاوية على فتح افريقيا وعزل عقبة بن نافع عنها. كان المغرب الأدنى قد تم فتحه فوجه أبو المهاجر همه إلى فتح المغرب الأوسط. بعد أن تولى الأمر من يد عقبة وأساء عزله ولكنه خلاه حراً طليقاً.

كان كسيلة من ملوك الأمازيغ بالمغرب الأوسط قد جمع جموعاً كثيرة وزحف بها لقتال المسلمين فكانت بينه وبين أبي المهاجر معارك انتهت بانتصار المسلمين وانهزام كسيلة وجموعه وظفر أبي المهاجر به.

أسلم كسيلة فاستبقاه أبو المهاجر وقربه. وانتهى أبو المهاجر من غزوه إلى تلمسان وقفل راجعا إلى القيروان العاصمة الإسلامية التي كان أسسها عقبة. فبنى مدينة أخرى قربها نقل إليها مركز الجيش والامارة، فصارت القيروان في حكم الخربة.

أفضت الخلافة إلى يزيد بن معاوية فأعاد عقبة إلى امارة افريقيا فقدمها سنة 62 فتناول الامارة من يد أبي المهاجر وعزله وزاد فاعتقله ونكب صاحبه كسيلة الذي كان اعتصم بالإسلام ورجع مركز الجيش والامارة إلى القيروان.

سار عقبة في جيشه في المغرب الأوسط وكانت له فيه حروب، اذ لم تكن غزوة أبي المهاجر الا تمهيدا للفتح، ثم توجه إلى المغرب الأقصى حتى انتهى إلى المحيط الانطلانطيقي. ولم يكن هذا الفتح السريع المدهش قد استأصل قوة جموع الوطن أيضا. فني عودة عقبة إلى القيروان من هذا الفتح هبطت إليه كاهنة جبل أوراس في جموع كثيرة وهو في قلة من أصحابه فكانت الوقعة الكبرى التي استشهد فيها عقبة وصحبه وقال فيها أبو المهاجر كلمته الكبيرة الخالدة التي جعلناها عنوانا لهذه القصة.

كان عقبة في فتوحه مستصحبا معه أبا المهاجر وصاحبه كسيلة معتقلين، وكان يذيق كسيلة أنواع الإهانة والإذلال وكان أبو المهاجر يحذره عاقبة تلك المعاملة المخالفة لما كان عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم في معاملته للأسرى ولعظماء الناس.

لقد صدق ظن أبي المهاجر فان كسيلة لما رأى قلة جماعة عقبة لرجوع الجيوش قبله إلى القيروان أرسل إلى قومه يعلمهم بذلك فجرأهم ذلك على ملاقاته والنزول إلى قتاله بعد ما كان الخوف والرعب قد ألجأهم إلى شعاف الجبال. فكانت تلك الوقعة.

علم عقبة انه مُستشهد لا محالة فسرح أبا المهاجر من معتقله وأمره باللحوق بالقيروان ليتولى أمر الناس لعلمه بسهولة الوصول عليه لحسن علاقته مع كسيلة وحسن سمعته عند قومه ويغتنم عقبة الشهادة فنسي أبو المهاجر كل ما كان فيه وكل ما لحقه من عقبة وقال له: «وأنا أغتنمها أيضا» ونزل المعترك كأصحابه واختاروا الموت الشريف على الأسر والهوان[1] فاستشهدوا عن آخرهم وكانوا زهاء ثلاثمائة من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم.

العبرة

عندما تكمل في القادة أخلاق الرجولة ويتحدون في الإيمان بالمصلحة المشتركة العليا، وفي السعي لغاية واحدة ـ لا يحول بينهم وبين القيام بجلائل أعمالهم والبلوغ

(1) راجع «تاريخ الجزائر في القديم والحديث» للاستاذ الميلي.

إلى غاياتهم، ما تقل السلامة منه بين البشر من الحزازات الشخصية وان نالهم من ذلك ما لا بد منه من أثره السيء في طريق سعيهم وسرعة وصولهم.

فسوء معاملة أبي المهاجر لعقبة كانت نتيجته معاملة عقبة له التي تجاوزتها في الإهانة، حتى ارتكب عقبة ذلك المركب القبيح الوخيم العاقبة في معاملة كسيلة. لكن القائدين العظيمين كانا يؤمنان إيمانا واحدا بالمصلحة المشتركة العليا، ويعملان لغاية واحدة هي اعلاء كلمة الاسلام واغتنام الشهادة في سبيله. فلم يأل أبو الهاجر في نصح عقبة وهو تحت قيود الاعتقال ولم يتوقف عقبة في سراح أبي المهاجر ليتولى الامارة بالقيروان ولكن الغاية الكبرى عند أبي المهاجر ـ كما هي عند مثله ـ هي الموت في سبيل الله والفوز بالشهادة فقال: «وأنا أغتنمها أيضا» وما كانت تلك الوقعة التي خسر بها الجيش الاسلامي أولئك الأبطال إلا أثرا لازما لتلك الحزازات الشخصية والنقائص البشرية. ولكل شيء أثره في هذه الحياة.

القدوة

ضرب أبو المهاجر القائد العظيم أسمى مثل في نسيان النفس، والزهد التام في الحياة الدنيا ورئاستها، والرغبة الصادقة في نيل الشهادة، كما ضرب أسمى مثل في الشجاعة والإقدام والتضامن التام مع الأصحاب في وقت الشدة؛ وطرح كل أمر شخصي ازاء الصالح المشترك العام. فرحمه الله وجازاه الله وجازى من معه عن الاسلام وعنا خير الجزاء[2].

(2) ش: ج 3، م 15، ربيع الأول 1358 هـ ابريل 1939 م.

مصرع ظالم

ولي يزيد بن أبي مسلم مولى الحجاج بن يوسف وكاتبه إمارة افريقية، من قبل يزيد بن عبد الملك الخليفة الأموي. فقدمها سنة إحدى ومائة، فأراد أن يسير في الأمازيغ سيرة مولاه الحجاج فيمن أسلم من أهل سواد العراق. فإن الحجاج ردهم من الأمصار إلى قراهم، ورساتيقهم ووضع الجزية على رقابهم كما كانت تؤخذ منهم قبل أن يسلموا. فلما عزم يزيد على ذلك في أهل افريقية تآمروا على قتله فقتلوه. وولوا مكانه عليهم محمد بن يزيد مولى قريش الذي كان عاملا عليهم قبل يزيد. وكتبوا إلى أهل يزيد بن عبد الملك! « إنا لم نخلع أيدينا من الطاعة ولكن يزيد ابن أبي مسلم سامنا ما لا يرضى به الله والمسلمون فقتلناه وأعدنا عاملك»

إباء وعدالة

سيم خطة خسف شنيعة هؤلاء الأفارقة، فيما أرادهم به هذا العامل الظالم فأبوا وأوردوه مورد الظالمين أمثاله.

ورأى الخليفة صدق طاعتهم وعدل حكمهم فقرهم على ما فعلوا، في قتل من قتلوا وولاية من ولوا.

ولقي هذا الظالم من الأفارقة ما لم يلقه مولاه وأستاذه الحجاج بالعراق.

عبرة في مقتله

كان الوضاح بن أبي خيثمة حاجب عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي الراشد. فلما مرض عمر أمره باخراج المحابيس فأخرجهم سوى يزيد بن أبي مسلم مولى

الحجاج وكان إذ ذاك سجينا. فلما مات عمر هرب الوضاح إلى افريقية خوفا من يزيد بن عبد الملك الخليفة بعد عمر . فبينما هو بافريقية اذ قيل، قدم يزيد بن أبي مسلم والياً فهرب منه الوضاح لما يعلم من حقده عليه من يوم تركه في السجن دون سائر المحابيس فطلبه يزيد حتى ظفر به فلما حمل إليه ورآه قال له طالما.سألت الله أن يمكنني منك فقال له الوضاح : وأنا والله لطالما سألت الله أن يعيذني منك. فقال له يزيد : ما أعاذك الله والله لأقتلنك، ولو سابقني فيك ملك الموت لسبقته. ثم دعا بالسيف والنطع فأتي بهما وأمر بالوضاح فأقيم بالنطع وكتف وقام وراءه رجل بالسيف وأقيمت الصلاة فخرج يزيد إليها فلما سجد أخذته السيوف سيوف أولئك الأباة من الأفارقة فقتلوه جزاء ظلمه وخروجه فيهم عن حكم الإسلام . ثم أدخل على الوضاح من قطع كتافه وأطلق سراحه.

وهكذا جاء الفرج بعد الشدة، وقلب الله أمر الرجلين في فترة قصيرة جدا، فأمسى الأمير قتيلا، والمكتوف في النطع حراً طليقاً. ونجى الله حاجب الإمام العادل، وأهلك الظالم مولى الظالم. والحمد لله رب العالمين[1] .

(1) ج 4 م 15 ــ ربيع الثانى 1358 هـ ــ ماى 1939 م

السر كل السر في الأرواح

قد ينبثق الفرعان من أصل واحد ويهبط الأخوان من صلب واحد وتجمعهما رحم واحدة ويعيشان عيشة واحدة ـ ثم يكون هذا في مستوى وهذا في مستوى دونه بمنازل.

ما ذلك الاختلاف مع ذلك الاتفاق إلا لسر في النفس هو خفي كحقيقة النفس.

وهذه القصة التي ننقلها عن ابن أبي الحديد في الأخوين الكريمين الشريفين العظيمين: أبي الحسن الرضى وأبي القاسم المرتضى ـ عبرة بالغة في ذلك. قال:

«حكى أبو حامد أحمد بن محمد الاسفرايني الفقيه الشافعي قال كنت يوما عند فخر الملك أبي غالب محمد بن خلف وزير بهاء الدولة وابنه سلطان الدولة (من بني بويه) فدخل عليه الرضى أبو الحسن فأعظمه وأجله ورفع من منزلته وخلى ما كان بين يديه من القصص والرقاع وأقبل عليه يحادثه إلى أن انصرف. ثم دخل بعد ذلك المرتضى أبو القاسم رضي الله عنه فلم يعظمه ذلك التعظيم ولا أكرمه ذلك الإكرام وتشاغل عنه برقاع يقرأها وتوقيعات يوقع بها فجلس قليلا وسأله أمراً فقضاه ثم انصرف.

قال أبو حامد فتقدمت إليه وقلت أصلح الله الوزير هذا المرتضى هو الفقيه المتكلم صاحب الفنون وهو الأمثل والأفضل منهما، وانما أبو الحسن شاعر. قال فقال لي: اذا انصرف الناس وخلا المجلس أجبتك عن هذه المسألة. وكنت مجمعاً على الانصراف فجاءني أمر لم يكن في الحساب فدعت الضرورة إلى ملازمة المجلس إلى أن تقوض الناس واحدا فواحدا فلما لم يبق الا غلمانه وحجابه دعا بالطعام فلما أكلنا

وغسل يديه وانصرف عنه أكثر غلمانه ولم يبق عنده غيري قال لخادم له هات الكتابين اللذين دفعتهما إليك منذ أيام وأمرتك أن تجعلها في السفط الفلاني فأحضرهما، فقال هذا كتاب الرضي، اتصل بي انه قد ولد له ولد فنفذت إليه ألف دينار وقلت هذه للقابلة فقد جرت العادة أن يحمل الأصدقاء إلى أخلائهم وذوي مودتهم مثل هذا في مثل هذه الحال. فردها وكتب إلي هذا الكتاب فاقرأه.

قال أبو حامد فقرأته فإذا هو اعتذار عن الرد ومن جملته: «اننا أهل بيت لا يطلع على أحوالنا قابلة غريبة وانما عجائزنا يتولين هذا الأمر من نسائنا ولسن ممن يأخذن أجرة ولا يقبلن صلة».

قال الوزير فهذا هذا. وأما المرتضى فاننا كنا قد وزعنا وقسطنا على الأملاك ببادوريا (بالجانب الغربي من بغداد) تقسيطا نصرفه في حفر فوهة النهر المعروف بنهر عيسى فأصاب ملكا للشريف المرتضى بالناحية المعروفة بالداهرية من التقسيط عشرون درهما ثمنها دينار واحد، وقد كتب إلي منذ أيام في هذا المعنى هذا الكتاب - فاقرأه.

قال أبو حامد فقرأته فإذا هو أكثر من مائة سطر يتضمن من الخضوع والخشوع والاستمالة والهز والطلب والسؤال في اسقاط هذه الدراهم عن أملاكه المشار إليها ما يطول شرحه.

قال الوزير فخر الملك: فأيهما ترى أولى بالتعظيم والتبجيل، هذا العالم المتكلم الفقيه والأوحد ونفسه هذه النفس أم ذلك الذي لم يشهر الا بالشعر خاصة ونفسه تلك النفس؟ فقلت وفق الله تعالى سيدنا الوزير فما زال موفقه، والله ما وضع سيدنا الوزير الأمر إلا في موضعه، ولا أحله إلا في محله. وقمت فانصرفت».

وفي هذه القصة إلى ما قصدناه منها نموذج من مجالس الوزراء وآدابهم ومعاملتهم للناس على منازلهم وضبطهم لمكاتبهم والعناية بالري وحفر الأنهار مما ازدهر به عمران العراقي من الناحية في تلك العصور أي ازدهار وآثار تلك العناية باقية على الزمان إلى اليوم[1].

(1) ش: ج 5، م 15، جمادى الأولى 1358 هـ جوان 1939 م.



القسم الرابع

الفتاوى ومسائل فقهية



« فما كل ما نسمعه وما كل ما نراه نطوى عليه عقد قلوبنا ، بل علينا ان ننظر فيه ونفكر فاذا عرفناه عن بينة اعتقدناه ، والا تركناه حيث هو فى دائرة الشكوك والاوهام او الظنون التى لا تعتبر ٠ ولا كل ما نسمعه او نراه او نتخيله نقوله ، فكفى بالمرء كذبا ان يحدث بكل ما سمع ، كما جاء فى الصحيح ؛ بل علينا ان نعرضه على محك الفكر فان صرنا منه على علم قلناه ـ مراعين فيه آداب القول الشرعية ومقتضيات الزمان والمكان والحال ، فقد امرنا ان نحدث الناس بما يفهمون ، وما حدث قوم بحديث لا تبلغه عقولهم الا كان عليهم فتنة ـ والا طرحناه ٠ ولا كل فعل ظهر لنا نفعله ، بل حتى نعلم حكم الله تعالى فيه لنكون على بينة من خيره وشره ونفعه وضره ٠

فما امر تعالى الا بما هو خير وصلاح لعباده ، وما نهى تعالى الا عما هو شر وفساد لهم او مؤد الى ذلك ٠ واذا كانت من المباحات نظرنا فى نتائجه وعواقبه ووازنا بينها ، فاذا علمنا بعد هذا كله من امر ذلك الفعل ما يقتضى فعله فعلناه والا تركناه » (*) ٠

عبد الحميد بن باديس

(*) الشهاب : م 6 ، ج 9 ٠ جمادى الاولى 1349 هـ ـ أكتوبر 1930 م ٠

رسالة جواب سؤال عن سوء مقال

عقائد نقية، أدلة جلية. كلمات نبيلة، نقول جليلة بيان لعظيم مقام النبوة والرسالة، لضلال من خاطب ذلك المقام بخطاب الجهالة، قرظها عشرة من كبار العلماء بتونس والجزائر والمغرب الأقصى، وعلق على مواضع منها العلامة الجليل القاضي الشيخ شعيب التلمساني.

بسم الله الرحمن الرحيم
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

سؤال:

ما قول ساداتنا العلماء ـ رضي الله عنهم ـ وأدام النفع بهم في رجل يزعم انه قطب الزمان الفرد، وان الكل دونه، وانه العارف المسلك، إلى غير ذلك من أعلى صفات العارفين، وأسمى درجات الكاملين، ثم يقول مخاطبا للنبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بما نصه:

إنْ مت بالشوق منك ما عذر ينجيك

ان تبق فى هجري زائد للمولى ندعيك

من هو بـــالملك موحـــد يـــنـــظـــر في أمـــرك
عـبس بـالـقـول تسـاعـد مـــا نـــرجوه فـــيك

ولما قيل له في هذه الأبيات قال: ألسن المحبين أعجمية. فهل يعد خطابه هذا سوء أدب وهل تجوز مخاطبة النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بمثله، وهل صدور مثله من شأن العارفين الكاملين، وهل يقبل منه ما اعتذر به من عجمة ألسن المحبين، أفيدونا مأجورين ان شاء الله تعالى من رب العالمين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. انتهى.

الجواب:

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد الذي أدبه الله فأحسن تأديبه، ووفر من كل خير وكمال على جميع العالمين نصيبه، وعلى آله الطاهرين، وأصحابه الهادين والمهتدين، والتابعين لهم باحسان إلى يوم الدين ـ أما بعد ـ فقد وقفت على سؤالكم وتأملت من جميع فصوله، وأحطت خبرا ان شاء الله ـ تعالى ـ بلفظه ومدلوله، وهممت أن لا أجيبكم عنه بحرف واحد، لما أعلم من تصميم أكثر العامة على العناد فيما اعتقدوه من الباطل، وسكوت أكثر الخاصة عن التصريح بالانكار عليهم، والارشاد لهم، وتهافت بعض الطلبة القاصرين، على تسويد صحفهم وصحائفهم بشبهات يسمونها بأفواههم دلائل وأجوبة عن متبوعيهم من الجاهلين، يحشونها بالأحاديث الضعيفة والموضوعة والتاويلات الباطلة الممنوعة، والروايات المدخولة عمن ليس قوله حجة على الناس في الدين وانما غايته اذا ثبت عنه ذلك وحسن به الظن أن يؤول على وجه صحيح يقبله الشرع. ثم يردون بمثل هذا على الآيات البينة والأحاديث الثابتة وعمل السلف الصالح المشهود لهم بالخيرة على لسان المعصوم. أفمع هؤلاء ينفع الكلام أو يحسن الجواب. لكنني تذكرت ما جاء في وعيد الكاتبين، وفي وعد من بذل الجهد في نصح لإخوانه المسلمين، ورجوت أن لا أعدم أنصارا على الحق، وإخوانا متكاتفين في

نصرة الدين، من عدول حملة العلم الذين ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتاويل الجاهلين، فاستخرت الله تعالى وحزرت لكم هذا الجواب في مقدمة وأربعة فصول وخاتمة، غير قاصد ـ علم الله ـ شخص أحد بالنقص، ولا خارج بعون ـ الله تعالى ـ عن جادة الفهم من دلالة الظاهر والنص، والله أسأل أن ينفع به المسترشدين ويهدي به في المعاندين ويفت به أعضاء المفسدين آمين.

المقدمة

في وجوب الأدب مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إجماعا وأبدا وعلى كل حال

أجمع علماء الملة من جميع الفرق على وجوب الأدب مع النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ حياً وميتاً كما يجب الإيمان به حياً وميتاً للنصوص القطيعة في ذلك كقوله تعالى: «**إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً لِتُؤمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوه وَتُوَقِّرُوهُ**» الآية. وقوله تعالى: «**يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ**» وقوله تعالى «**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ**» الآية. وعلى هذا كانت سيرة السلف الصالح معه ـ عليه الصلاة والسلام ـ في الحياة وبعد المات. روى الترمذي عن أنس ـ رضي الله عنه ـ كان يخرج على أصحابه من المهاجرين والأنصار وهم جلوس فيهم أبو بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ فلا يرفع أحد منهم إليه بصره إلا أبو بكر وعمر فانهما كانا ينظران إليه وينظر إليهما ويبتسمان إليه ويبتسم إليهما. وجاء من غير وجه أن أصحابه كانوا حوله كأنما على رؤوسهم الطير حتى كانوا من تعظيمه وتوقيره يهابونه فلا يسألونه فيحبون أن يأتي الأعرابي الجاهل فيسأله، ولما ناظر أبو جعفر المنصور مالكا في المسجد النبوي ورفع صوته، قال له مالك: لا ترفع صوتك في هذا المسجد فإن الله تعالى أدبَ قوماً فقال: «**لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ** ...» الآية. ومدح قوماً فقال: «**إِنَّ الذينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ** ...» الآية. وذم قوماً فقال: «**إِنَّ**

«الَّذِين يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ»[1] وان حرمته ميتاً كحرمته حياً. فاستكان لها أبو جعفر[2] وقد كان مالك ـ رحمه الله تعالى ـ إذا ذكر النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يتغير وينحني حتى يصعب ذلك على جلسائه.

وكان جعفر الصادق كثير الدعابة والتبسم وإذا ذكر عنده النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ اصفر. والواقف على سير السلف الماضيين والعلماء المتقدمين يجد فيها كثيرا من هذا في مراعاة حرمته ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وشدة التأدب مع جنابه الشريف، ومن أكثر الناس محافظة على الأدب وتحريضا عليه ووصاية به شيوخ الزهد والعلم من أئمة التصوف العارفين كرجال الرسالة القشيرية الذين أبقى الله بعظيم فضله على الاسلام وجميل صنعه لنصرة الدين كلامهم حجة على كل من ينتسب إلى طريقتهم في مثل هاته الأزمان، قال في الرسالة عن عبد الله بن المبارك: نحن إلى قليل من الأدب أحوج منا إلى كثير من العلم، وعن أبي علي الدقاق: من صاحب الملوك بغير أدب أسلمه الجهل إلى القتل، وقال أبو حفص الحداد: التصوف كله أدب لكل وقت أدب ولكل حال أدب ولكل مقام أدب فمن لازم الأدب بلغ مبلغ الرجال. ومن حرم الأدب فهو بعيد من حيث يظن القرب ومردود من حيث يرجو الوصال، وقال: حسن الأدب في الظاهر عنوان حسن الأدب في الباطن[3].

---

(1) أي فيما فعلوه محلك الرفيع وما يناسبه من التعظيم، الجلال المحلي. ومعنى الرفيع: العلي القدر والمحفوظ من اساءة الأدب، اهـ. صاوي. نعم إذا كان من يقول لشيخه لم لا يفلح فكيف بالتجاسر على خير الخلق على الاطلاق بالاطباق صلى الله عليه وآله وسلم.

(2) وقال تعالى: «لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا» بأن تقولوا يا محمد بل قولوا يا نبي الله يا رسول الله في لين وتواضع وخفض صوت، اهـ. محلي. قوله: لا تجعلوا دعاء الرسول أي نداءه بمعنى لا تنادوه باسمه فتقولوا يا محمد ولا بكنيته فتقولوا يا أبا القاسم بل نادوه وخاطبوه بالتعظيم والتكريم والتوقير بأن تقولوا يا رسول الله يا نبي الله يا امام المرسلين يا رسول رب العالمين يا خاتم النبيين. واستفيد من الآية أنه لا يجوز نداء النبي بغير ما يفيد التعظيم لا في حياته ولا بعد وفاته. فبهذا يعلم أن من استخف بجنابه ﷺ فهو كافر ملعون في الدنيا والآخرة. قوله: وخفض الصوت أي لقوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ». صاوي محشي الجلالين بالحرف. وفي الشفا مـا نصه قال: قال ابراهيم التيمي: واجب على كل مؤمن متى ذكره ﷺ أو ذكر عنده أن يخضع ويخشع ويتوقر ويسكن من حركته ويأخذ في هيبته وفي جلاله بما كان يأخذ به نفسه لو كان بين يديه ﷺ ويتأدب بما أدبه الله، مثل قوله تعالى: «لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ ... الخ. وَلَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُم ....» وغيره كما تقدم. اهـ.

(3) وقيل: من يتادب ساد. ومن لم يتادب طرد من الباب.

الفصل الأول

في بيان خروج كلامه عن دائرة الأدب المرعية وتهجمه على الحضرة النبوية قال:

إنْ مت بالشوق منكد ما عذر ينجيك

أي حق للعبد الحقير، على السيد الجليل الكبير، حتى يطالبه بالاعتذار إليه إذا لم يأته، أم كيف ساغ لهذا المسكين أن يقول له لا عذر ينجيك، مم ينجيه هذا العذر؟ ان لو كان ينجيه، أمن اللوم في شأنك والعتاب لأجلك؟ من أنت يا هذا حتى يعتذر سيد الأولين والآخرين لك، ثم لا ينجيه من التقصير في حقك عذر عندك، لقد وضعت نفسك والله في غير محلها وجهلت مقام النبوة وجلالة منصبها.

قال:

ان تبق في هجري زائد للمولى ندعيك
من هو بالملك موحد ينظر في أمرك

أي حق لك على النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ حتى صرت تخوفه بأنك تدعوه وتشكو به إلى الله ـ تعالى ـ لينظر في أمره، وهل يتصور منه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ تقصير في حق أحد حتى يشكو به إلى الله ـ تعالى ـ حاشا ذلك الجناب الكريم، والنبي الرؤوف الرحيم[1] أن يقصر في خير لأحد في حال حياته وبعد مماته وكيف ذلك وهو الذي قال له الله تعالى: «**لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**»[2]. وهو الذي لما تعرض عليه في قبره أعمال أمته يستغفر للمذنبين، لكنك يا مسكين توهمته كعظماء الدول الذين يقصرون مع من دونهم فيخوفون بمن يفوقهم على انه لم يكن من أدب العبيد أن يهددوا الوزير بسلطة الأمير فأين أنت يا هذا حتى من آداب الوزراء والسلاطين بله الأنبياء والمرسلين.

---

(1) القائل انما أنا قاسم والله يعطي... الخ.
(2) وقال تعالى: «لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ».

قال :

عبس بالقول تساعد ما نرجوه فيك

هذا تعريض للنبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بما خاطبه الله تعالى في سورة ابن أم مكتوم، وتخويف له بما يلحقه إن قصر مع هذا المسكين من العتاب واللوم، واحتجاج عليه بالقرآن، والزام له بالقبول والاتيان، وهذا تهجم عظيم، وتجاسر شديد، لا يقدم عليه عامة المؤمنين، فكيف بمن يزعم انه خاصة العارفين.

الفصل الثاني

في بيان حرمة مخاطبة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمثل هذا الخطاب

قد اشتمل صدر هذا الكلام على نفي قبول العذر من النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وذلك يستلزم أن له عليه حقا ان وقع فيه تقصير احتيج معه إلى العذر ثم لا يقبل منه. وعلى أنه يرفع به دعوى لينظر في أمره، وهذه التهجمات القبيحة التي لا تصدر من العبيد إلى السادة ، هي لا شك أقوى في سوء الأدب من مجرد رفع الصوت الذي نهى الله تعالى عنه وجعله سببا في حبوط الأعمال فتكون قطعا أحق بالمنع والتحريم، وما أشبه طلب هذا الرجل القبول والاتيان بهذا الخطاب المزعج الغليظ بأولئك الذين نادوه من وراء الحجرات ولم يصبروا حتى يخرج إليهم. بل هو أشد ، لأن القوم كانوا حديثي عهد بجاهلية لم يخالطوا المسلمين ولا تأدبوا بآداب الاسلام. وهذا يدعي منزلة الأولياء والصالحين، ثم يأتي بما لا يصدر من العامة الجاهلين فيا ليته :

تأدب في الخطاب، ووقف ذليلا على الأعتاب ، فيكون في إسلامه وأدبه. خير شفيع لوصل سببه، لكن الغرور والغفلة، أعظم أسباب المحنة، عياذاً بالله: وأما آخر كلامه فقد اشتمل على طامة عظمى وجرأة كبرى بتعريضه للنبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ في سورة عبس على ما تقدم بيانه في آخر الفصل الأول، وهذا في سوء الأدب أدخل، وفي الحرمة أشد، لأن صاحبه قد اعتقد تقصيرا من النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ليم عليه فعرض له هو به، وخوفه من أن يقصر معه مثل ذلك التقصير فيلام

عليه مثل ذلك اللوم. كبرت كلمة والله خرجت من فِي هذا المغرور المسكين، ولا حول ولا قوة الا بالله ولا توفيق الا به. فازقلت هذه قصة جاءت في القرآن وخبر ذكره الله تعالى. قلنا فالجواب عن ذلك ما قاله الإمام الحافظ خزانة العلم وقطب المغرب أبوبكر بن العربي في سورة «ص» من كتاب الأحكام. قال: للمولى أن يذكر ما شاء من أخبار عبيده ويستر ويفضح ويعفو ويأخذ، وليس للعبد أن ينبز في مولاه بما يوجب عليه اللوم، فكيف بما عليه في الأدب والحد، وان الله تعالى قد قال في كتابه لعباده في بر الوالدين: «**وَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ**» فكيف بما زاد عليه، فما ظنك بالأنبياء وحقهم أعظم، وحرمتهم آكد، وأنتم تغمسون ألسنتكم في أعراضهم، ولو قررتم في أنفسكم حرمتهم لما ذكرتم قصتهم، اهـ. وما بعد هذا البيان بيان، وان هذا الكلام لكاف وحده عند اللبيب المنصف في جواب ما تقدم من السؤال، ومن عقائد الإيمان مما يجب علينا في حق الأنبياء والمرسلين ـ عليهم الصلاة والسلام ـ أن لا نخاطبهم بما خاطبهم الله تعالى به ولا نذكر في كلامنا شيئا مما عوتبوا عليه لا بالتلويح ولا بالتصريح الا بحكاية لفظ القرآن والحديث، وأما الله تعالى فانه يخاطبهم بما شاء، لأنهم عباده وصفوته من خلقه، لهم من كمال المعرفة به ما ليس لغيرهم، وله عليهم من الفضل العظيم ما لا مطمع فيه لسواهم، وأما نحن فوقفنا معهم موقف العبيد مع السادة، فيجب علينا معهم اعتقاد الحرمة، واكبار الجانب، ولزوم الأدب، في الأقوال والأفعال، وجميع الأحوال ولا يجوز لنا ونحن خدامهم وأتباعهم أن نذكرهم أو نخاطبهم بما خاطبهم به ربهم ومالكهم، فما أبعدنا والله عن ذلك المقام، وقد ذكر هذه العقيدة الإمام الحافظ أبو بكر بن العربي في كتبه منها قوله في سورة «الأحزاب» من كتاب الأحكام: وعهدنا إليكم عهدا لن تجدوا له ردا، ان أحدا لا ينبغي أن يذكر نبيا إلا بما ذكره الله لا يزيد على ذلك. اهـ. وقال الإمام الصوفي أبو عبد الله بن الحاج في كلامه على المواسم من كتاب المدخل: وقد قال علماؤنا ـ رحمة الله عليهم ـ ان من قال عن نبي من الأنبياء في غير التلاوة والحديث انه عصى أو خالف فقد كفر نعوذ بالله من ذلك، اهـ. ونقل هذا الكلام عنه الشيخ محمد الزرقاني في قسم الخصائص من شرحه للمواهب وسلمه: ولا يخفى ان حكم التعريض في هذا المقام حكم التصريح. فنعوذ بالله بالدين وتوقع في سوء الأدب مع سيد المرسلين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

الفصل الثالث

في أن هذا المقال لا يصدر من العارفين

اعلم ان السادة العارفين هم أرسخ الناس قدما في محبة النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وتعظيم حرمته، ومراعاة شريف جانبه، وتعزيزه وتوقيره وبره. تجد ذلك في صلواتهم عليه، وفي أدعيتهم لله تعالى عند ذكره، والتوسل به، وفي مناجاتهم له عند الشوق إليه، وفي تأليفهم عند الكلام في حقه. وهذه أشياء مروية عنهم، معروفة منهم، لا تحتاج إلى شاهد ولا تخفى على طالب بل هم أكثر الناس أدبا مع شيوخهم ومربيهم ومريديهم، بل هم آدب الناس من جميع الناس، قال قائلهم: من لا أدب له لا شريعة له ولا إيمان له ولا توحيد له، وكتبهم بهذا طافحة وسيرهم أصدق شاهد عليه فمعاذ الله أن يكون مرتكب ما تقدم مع الاصرار عليه من عامة عامتهم فضلاً عن ان يكون ممن فوق ذلك اذ لا نشك ان ذلك الخطاب الغليظ الجافي لا يقوله المؤمن العامي الباقي على فطرة الإيمان ، فضلا عن أهل الخصوصية والعرفان ومن لا يراعي الأدب في خطاب سيد المرسلين. كيف يصلح أن يكون من العارفين المسلكين، اذ من لا يؤدب نفسه كيف يؤدب غيره. ومن لم يؤمن على آداب الخطاب كيف يؤمن على ما يدعيه من مقامات الكاملين. قال أبو يزيد البسطامي ـ رحمه الله تعالى ـ لبعض أصحابه: قم بنا حتى ننظر إلى هذا الرجل الذي قد شهر نفسه بالولاية وكان رجلا مقصودا مشهورا بالزهد. فمضينا إليه فلما خرج من بيته ودخل المسجد رمى ببصاقة تجاه القبلة، فانصرف أبو زيد ولم يسلم عليه، وقال: هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فكيف يكون مأمونا على ما يدعيه، أهـ. فانظر يا أخي رحمك الله بانصاف إلى هذا العارف الكبير كيف وزن الرجل بميزان الشرع فطرحه لإخلاله بأدب واحد من الآداب ـ فكيف بنا لا نطرح هذا المتهجم على رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بقبيح التعريض وسوء الخطاب. قال أبو اسحاق الشاطبي في كتاب الاعتصام أثر كلام أبي يزيد المتقدم: هذا أصل، أصله أبو يزيد ـ رحمه الله تعالى ـ للقوم، وهو أن الولاية لا تحصل لتارك السنة وان كان ذلك جهلا منه[1] لما ظنك به اذ كان عاملا بالبدعة كفاحا

(1) يعني أن الولي من لا يكون للشرع عليه اعتراض.

اهـ. ونقول: فما ظنك به اذا كان يتهجم على الحضرة النبوية بمثل ذلك الخطاب الذي لا نظير له في كلام صغار المتنسبين، وعامة المداحين الجاهلين فضلا عن كلام العارفين ؟ وقال الشيخ عبد الغني النابلسي في شرحه لكتاب الطريقة المحمدية ، عند كلام أبي يزيد المتقدم: ان الله ـ تعالى ـ لا يؤمن على أسراره وأنواره إلا من أمنه أولا على الأخلاق المرضية، والآداب المحمدية، ـ اللهُ أَعْلَمُ حيثُ يَجعَلُ رسالتِهِ ـ والحكمة وضع الشيء في موضعه، وهي ملازمة لأفعال الله ـ تعالى ـ لا ينفك عنها فعل من أفعاله تعالى البتة، وليس من الحكمة وضع الولاية والكمال في المنتهك للحرمة والتارك للآداب، بل الحكمة تقتضي عقابه لا ثوابه أو العفو عنه لا المدح منه اهـ فلا نشك بعد هذا في بطلان دعواه الواسعة المضادة لتهجمه وإصراره على سوء الأدب مع رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ولا دليل على حال المرء مثل كلامه ولا أصدق على قلبه من ترجمان لسانه[1].

الفصل الرابع

في بطلان عذره بعجمة ألسُن المحبين

اعلموا ان خير هذه الأمة هم أحبها في نبيها وهم أهل القرون الثلاثة المشهود لهم بالخيرية على لسان المعصوم وعلى قدر حبهم فيه كان تعظيمهم له وأدبهم معه.

لما نزل قوله تعالى: «**لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ** ... » الآية، قال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ : والله لا أكلمك بعدها الا كأخي السرار، وصار عمر ـ رضي الله تعالى عنه ـ لا يسمعه حتى يستفهمه ولزم ثابت بن قيس ـ رضي الله تعالى عنه ـ بيته وكان جهير الصوت مخافة أن يحبط عمله حتى اعتذر للنبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فعذره وبشره بالجنة فأنزل فيهم وفي أمثالهم: «**إنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ** ... » الآية. هؤلاء هم الحجة على الخلق وهم الذين لا يبلغ من جاء بعدهم مد أحدهم ولا نصيفه، وهذا أدبهم وهم سادات المحبين، وقد كانت ألسنتهم ـ والله ـ فصيحة في العلم والآداب، منزهة عن كل ما يعاب، فما بال هذا المسكين يركب ذلك المركب

---

(1) ما فيك يظهر على فيك   وكل اناء بالذي فيه يرشح

الصعب ويخرق سياج الأدب، ويعتذر بعجمة ألسن أهل الحب، كلا والله، لقد تجاسر على أهل المحبة الحقيقيين وافترى عليهم، وادعى عليهم ما ليس فيهم ثم لا يجد أبدا نظيرا لكلامه عند واحد منهم، وان اقتدى ببعض المغرورين المتعجرفين ممن لم نعلمهم حتى الآن فالحجة من الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح وشيوخ الطريقة المتقدمين قاطعة به وبأمثاله أجمعين والحمد لله رب العالمين.

الخاتمة

في نصيحة نافعة ووصية جامعة

اعلموا جعلكم الله من وعاة العلم، ورزقكم حلاوة الإدراك والفهم، وجملكم بعزة الاتباع، وجنبكم ذلة الابتداع، ان الواجب على كل مسلم في كل مكان وزمان أن يعتقد عقدا يتشربه قلبه وتسكن له نفسه، وينشرح له صدره، ويلهج به لسانه ، وتنبني عليه أعماله، ان دين الله تعالى من عقائد الإيمان، وقواعد الإسلام، وطرائق الإحسان إنما هو في القرآن والسنة الثابتة الصحيحة وعمل السلف الصالح من الصحابة والتابعين وأتباع التابعين وان كل ما خرج عن هذه الأصول ولم يحظ لديها بالقبول ـ قولا كان أو عملا أو عقدا أو احتمالا فانه باطل من أصله ـ مردود على صاحبه ـ كائنا من كان في كل زمان ومكان ـ فاحفظوها واعملوا بها تهتدوا وترشدوا ان شاء الله تعالى، فقد تضافرت عليها الأدلة ـ من الكتاب والسنة ـ وأقوال أساطين الملة ـ من علماء الأمصار ـ وأئمة الأقطار ـ وشيوخ الزهد الأخيار ـ وهي لعمر الحق لا يقبلها الا أهل الدين والإيمان ـ ولا يردها الا أهل الزيغ والبهتان، والله أسأل التوفيق لي ولكم ولجميع المسلمين والخاتمة الحسنة والمنزلة الكريمة في يوم الدين آمين والحمد لله رب العالمين. قال مؤلفه عبد الحميد بن باديس عفا الله عنه: فرغت من تحريره بين عشية يوم الاثنين وصبيحة يوم الثلاثاء السادس والعشرين والسابع والعشرين من ذي الحجة الحرام عام 1340[1].

(1) رسالة: جواب سؤال عن سوء مقال ص 1 ـ 20. ـ المطبعة الجزائرية الاسلامية بقسنطينة (دون تاريخ).

التقاريظ

نثبتها هنا على حسب ورودها في التاريخ

تقريظ محمد النخلي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله، أما بعد: فاني اطلعت على الرسالة التي حررها الفاضل العالم ابننا الشيخ عبد الحميد بن باديس أحد المتطوعين بجامع الزيتونة (عمره الله) جوابا عن سؤال في حق من خاطب النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ خطاب جفاء وغلطة فوجدتها رسالة حافلة بالنصوص الصحيحة المطابقة لما سئل عنه مطابقة العام لبعض أفراده أيد الله بروح منه وأعانه على القيام بوظيفة الإرشاد في تلك البلاد المتعطشة لكثير من نظرائه الناسخين على منواله.

ولنا مقالة فيما وقفنا عليه من تآليف هذا الرجل الذي ظهر بتلك الناحية والله المسؤول أن يجعلنا من الفرقة الناجية وكتبه فقير ربه محمد النخلي خادم العلم الشريف لطف الله به في 5 صفر الخير عام 1334 هـ.

تقريظ بلحسن النجار:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد أفضل المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين هذا وقد وقفت على الجواب الذي حرره العلامة الفاضل السري الكامل ابننا الشيخ عبد الحميد بن باديس في شأن الأبيات التي سئل عنها فإذا هو لباب الحق الذي لا يرهقه نزاع وما على الشمس غطاء ولا على الصبح قناع كثر الله من أمثاله في العلماء العاملين وألهم ذلك المتعجرف رشده كي يستبين سبيل المهتدين وإلى الله المشتكى من أناس يتنكبون الواضحة السمحاء ويتتبعون بنيات الطريق ويتطرفون في مجاهل السبل بغير علم ويتدهورون في مهواة الضلال. فان أولئك من

الذين عيرهم الله بقوله: «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا» والله المسؤول أن يوفقنا لصالح الأعمال. حرره فقير ربه بلحسن النجار في 6 ربيع الأنوار سنة 1341 هـ.

تقريظ محمد الطاهر بن عاشور:

الحمد لله مؤيد الحق بالحجج الساطعة. ومزهق روح الباطل بالصوارم القاطعة. والمضيء بشمس العلم مهامه الجهالة الشاسعة. والصلاة والسلام على سيدنا محمد المرسل بالدعوة النافعة، والواجب تعظيمه على كل من آمن به وتابعه، وعلى آله وصحبه وكل من ذاد صاحب بدعة ودافعه، أما بعد فاني طالعت هاته الرسالة الحافلة التي ألفها العالم الفاضل نبعة العلم والمجادة، وقرنع التحرير والإجادة ابننا الذي أفتخر ببنوته إلينا، وأتمثل فيها بقول الساعة: «ولا هو بالأبناء يشرينا» الشيخ سيدي عبد الحميد بن باديس في تقويم من جرأه جهله على خطاب الحضرة النبوية، بما تجاوز حدود الآداب الدينية وأخطأ الباب الذي رام التطفل عليه من أبواب الصوفية، فوجدتها رسالة قد أودعها مؤلفها صريح الحق ومحضه، وأكثر فيها من المعاني ما أوجز لفظه، أكثر الله أمثاله في المسلمين، من العلماء المرشدين، وكتب في 17 صفر سنة 1341 هـ محمد الطاهر بن عاشور قاضي تونس لطف الله به.

تقريظ محمد الصادق النيفر:

الحمد لله ملهم الحق من اجتباه من المرشدين. ومدحض الباطل بهديه المستبين، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد روح العالمين، ومحور دائرة عباد الله المخلصين، وباب الله الموصل لجميع السالكين القائل: لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين، وعلى آله وأصحابه والتابعين، أما بعد، وفي كل حي بنو سعد فقد أتحفني الابن الروحي، والأخ النصوحي، العلامة المدقق، ومن هو بكل فضيلة متصف ومتعلق، عمدة المغرب الأوسط والصاعقة على الدجاجلة الطراريس، الاستاذ

سيدي عبد الحميد بن باديس، أتحفه الله بكل فضيلة، وأزاح بعلومه وتحريراته كل رذيلة، بالاطلاع على هاته الرسالة الحافلة التي هي بتحقيق جواب ذلك السؤال الكافلة، ولا يخامر عقل مسلم فضلا عن عالم أو سالك أن ينال قيد أنملة من ولاية أو سعادة، دون ترام على الأعتاب النبوية، وتفان بأدب في حب الطلعة المحمدية، ولكنها الأهواء أعمت، وتفنن في الأراجيف والتدجيل أضمت، أهكذا تكون الشطحات ان كان لك ذوق يا صاحب الأبيات الباردات، واما أنا وان كنت لست مطلعا على حالك ولا ما أنت فيه، ولكن كلام الشخص عنوان على ما انطوى عليه فارجع لرشدك وأفق من حال سكرك، واسلك طريق سادات مضوا، واقبل نصيحة الشيخ عبد الحميد، فما بالك والله عنها محيد، وأنت أيها المجيب كثر الله من نصراء الحق أمثالك، وأحسن عقبي حالنا وحالك بحوله وطوله لا رب غيره.

حرره: خادم العلم محمد الصادق النيفر في أشرف الربيعينْ سنة 1341 هـ.

تقريظ معاوية التميمي:

أطلعت رعاك الله أيها الأخ الغيور على ما أساله يراعكم، ذائدا عن الملة الحنيفة، وعلى ما نسجته ألمعيتكم الصائبة العبقرية، في الرد على من وجه الخطاب للطلعة المحمدية، بتلك الأبيات، وما حوته من الترهات، فنعتصم به سبحانه من الوقوع في الزلات، فوجدته من العمل المبرور، والصنيع المشكور.

ناهيك به من صنيع يذب عن حمى المصطفى، ويزيد الذين اهتدوا هدى، فلله أنت من عالم نحرير، ومحام خبير، ولكن عذيري يا أخي من أهل هذا الزمان فانه ما جرأ هؤلاء الناس على التفوه بمثل هذه الأباطيل بكل قحة ودعارة إلا رؤيتك السواد الأعظم من الأمة الإسلامية المسكينة في انقياد تام لهم ـ وأظنها دسيسة قديمة تمكنت حلقاتها ـ يتحرون خطاهم ، ويرون رضا الخالق مقرونا برضاهم فيزيدون في الاستغراق، ويخلقون من ضروب الدجل والنفاق، ما تهتز له السبع الطباق.

وبقدر انقيادهم لهؤلاء القوم تراهم يبتعدون من أولي العلم ابتعاد السليم من ذي العاهة أو الخطيب من الفاهة ويستنهض بعضهم بعضا في الابتعاد،وزد على ذلك

ما استفحل من الداء الدفين في أهل العلم من الولوع بالتشاكس وهو الانتقاد، في كل عمل ما كانت صبغته. وبهذا ومثله تسنى لأولئك الانتصار وراجت بضاعة القوم.

فقلت أدعوك للجلى لتنصرني　　وأنت تخذلني في الحادث الجلل

كتبه معاوية التميمي تحريراً في ربيع الثاني عام 1341 هـ.

تقريظ شعيب بن علي بن عبد الله:

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وسلم تسليما، الحمد لله على جميل التوفيق،والشكر لله على الهداية لأقوم طريق، والصلاة والسلام على أشرف من وحده وعبده القائل من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين ويلهمه رشده وعلى آله وأصحابه أولي العناية بدين الله وتابعيهم من العلماء العاملين وكل العارفين المؤيدين بتأييد الله، أما بعد: فقد أطلعني الجهبذ الإمام وأحد الأئمة الأعلام المحرر المجيد ذو الخلق السني الحميد أنيس كل جليس الشيخ سيدي الحاج عبد الحميد بن باديس على ما علقه على أبيات من خاطب ـ النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقوله:

ان مت بالشوق منكد　　ما عذر ينجيك

فألفيته الحق الذي فيه لا يستراب، والمنهج الأقوم الذي لا شك فيه ولا ارتياب فحمدت الله على أن وفقه لذلك وأرشده لسلوك تلك المسالك فانه مشى على أصول سليمة وقواعد مستقيمة يجب الرجوع إليها والاعتماد عليها فمن حاد عنها ضل وهلك وخرج عن نهج السلف الصالح. وغير سبيلهم سلك. فجزاه الله عن الاسلام والمسلمين خيرا ووقاه والمحبين وأنصار الدين سوء وضيرا بحرمة أكمل المرسلين سيدنا ومولانا محمد عليه وعلى آله أفضل الصلوات وأزكى التسليمات إلى يوم الدين آمين والحمد لله رب العالمين.

عبد ربه شعيب بن علي بن عبد الله وفقه الله

تقريظ محمد المولود بن الموهوب:

الحمد لله الذي جعل الأدب الصادق مع سيدنا المصطفى دليلا على الحب - وجعل حبه الكامل علامة على رسوخ الايمان والقرب - والصلاة والسلام التامان عليه كما يليق به من الله - ما تلي ويتلى: «قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ» وعلى آله وأصحابه الذين حازوا به عظيم الجاه - أما بعد فقد أطلعني الأخ في الله العلامة فرع الكمال وزبدة الأصول ذو الأنس والتأنيس السيد عبد الحميد بن باديس على جوابه الشافي ونقله الصافي وكيله الوافي بل ونعم الحسام الكافي لقطع رقبة ذلك الذي قاده الخناس بزمام الوسواس حتى نطق بتلك العبارة المحزنة الدالة على أنه ذو إفلاس - وزين له ان إقبال الجهال عليه لا يكمل الا بتلك الجسارة العظمى على الجناب الأحمى - وأفضل المخلوقات قدما - فوجدته سلسبيلا معين - كالعسل المصفى للعلماء العاملين - من بحر شريعة الأمين يجري - فلله در الباديسي المؤيد بما قاله الكمل كالإمام الأخضري:

وقال بعض السادة الصوفية ... مقالة جليلة صفية
اذا رأيت رجلا يطير ... أو فوق ماء البحر قد يسير
ولم يقف عند حدود الشرع ... فانه مستدرج وبدعي
واعلم بأن الخارق الروحاني ... لتابع السنة والقرآن
والفرق بين الأفك والصواب ... يعرف بالسنة والكتاب
والشرع ميزان الأمور كلها ... وشاهد بفرعها وأصلها
والشرع نور الحق منه قدْبَدا ... وانفجرت منه ينابيع الهدى
وقال بعض أولياء الله ... السالكين لطريق الله
من ادعى مراتب الجمال ... ولم يقم بأدب الجلال
فارفضه انه الفتى الدجال ... ليس له التحقيق والكمال
ومن تحلى بحلى المعالي ... ولحدود الله لم يبال
ففر منه انه شيطان ... مخادع ملبس خوان

قال البيهقي في مناقب الشافعي - رضي الله عنه - المحدثات ضربان: ما أحدث مخالفا كتابا أو سنة أو أثرا أو إجماعا فهذه بدعة الضلالة. وما أحدث من الخير لا

يخالف شيئاً من ذلك فهذه محدثة غير مذمومة، وقال الأستاذ البكري ـ رضي الله عنه ـ في الوصية الجليلة: ان أهل الطريق يجب عليهم أن لا يخطوا خطوة ينكرها الشرع عليهم فان من خالف الشريعة المحمدية تاه وضل عن الطريقة المرضية فالشريعة أصل والحقيقة فرعها فمن لم يحكم الأصل لا ينتفع بالفرع، اهـ.قال سيدي عبد القادر الجيلاني ـ رضي الله عنه ـ: كل حقيقة ردت شريعة فهي زندقة وكل ظاهر يخالف باطنا فهو باطل، اهـ. وقال سيدي ابراهيم الدسوقي ـ رضي الله عنه ـ : طريقنا هذا مضبوط بالكتاب والسنة، فمن أحدث فيه ما ليس في الكتاب والسنة فليس هو منا ولا من إخواننا ونحن بريئون منه في الدنيا والآخرة ولو انتسب إلينا بدعواه، اهـ. وقال أبو زيد ـ رضي الله عنه ـ : لو أن رجلاً بسط مصلاه على الماء وتربع في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي، اهـ. وفي مناهج السعادات: قيل للرسول ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ متى أكون مؤمنا، وفي لفظ آخر: مؤمنا صادقا، قال: اذا أحببت الله. قيل: ومتى أحب الله، قال: اذا أحببت رسوله، فقيل: ومتى أحب رسوله، قال: اذا اتبعت طريقته واستعملت سنته وأحببت بحبه وأبغضت ببغضه وواليت بولايته وعاديت بعداوته. وقال سهل التستري: عليكم بالاقتداء بالأثر والسنة فاني أخاف أنه سيأتي عن قليل زمان إذا ذكر إنسان النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ في جميع أحواله ذموه ونفروا عنه وتبرأوا منه وأذلوه وأهانوه، اهـ. فأين هذا مما نحن فيه من إساءة الأدب مع سيد الكائنات.اللهم لا حول ولا قوة الا بك، فبشراك يا أيها الباديسي لقد أسعدك الله بالدفاع عن حرمة الرسول كسيدنا حسان بن ثابت وغيره من الفحول، وبعدا لمن تشبه بالسالكين كذباً وما قرع الباب بيد اداب مع سيد الأحباب.

هيهات أن تدرك المنى بشقشقة
طوراً إليك وطورا طوع تلقين
ان السيوف سيوف الله قاطعة
والمصطفى حبه فرض من الدين
الا انشدوا عرف المركوب معتبر
لدى السباق حفائر الميادين

نسأله تعالى أن يحفظنا من دسائس الدجالين في حصن سنة سيد المرسلين صلى الله عليهم أجمعين آمين، حرره الفقير إلى رحمة علام الغيوب محمد المولود بن الموهوب المفتي المالكي والمدرس بقسنطينة في الخامس عشر من شعبان 1341 هـ.

تقريظ العابد بن أحمد بن سودة:

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى، أما بعد فقد طالعت السؤال والجواب فنعم الجواب وبئس السؤال لأن التعظيم والمحبة الكاملة كلها في اتباع سنة مولانا رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ قال تعالى : **«وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ»** وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ:تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها الا هالك. ولما طالعت رسالة الشيخ الإمام فخر الأقران رئيس علماء قسنطينة العلامة الجامع مولانا السيد عبد الحميد بن باديس القسنطيني ألفيتها البحر الزاخر، ونقولها كالأنجم الزواهر، والله يديم حفظه وارتقاءه.

وعليه يوافق عبد ربه سبحانه العابد بن أحمد بن سودة القرشي لطف الله به.

تقريظ محمد بن العربي:

حمداً لمن جعل الحق مع أهل التحقيق، ومن على من شاء بالتوفيق والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والرسل والملائكة، القائل تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، وعلى آله وأصحابه الأعلام، ما قال قائل ربي الله ثم استقام، أما بعد فالذي أدين الله به وأعتقده هو ما سطره سيدنا العلامة المشارك الدر النفيس السيد عبد الحميد بن باديس لأنه مؤسس المبنى صحيح اللفظ والمعنى لم يبق فيه قول لقائل، ولا تشنوف لمراجعة مجيب أو سائل.

وعليه يوافق عبد ربه محمد بن العربي لطف الله به.

تقريظ عبد القادر بن محمد بن عبد القادر:

حمداً لمن جعل البيان سحرا، ورفع بالفصاحة أقواما فكان لهم بين الناس قدرا، نحمده سبحانه على أن أرسل إلينا رسله تترا ونصلي على سيدنا محمد بحر البحور الزواخر، وعلى آله وأصحابه وعترته وحزبه أهل النصوص[1] الزواجر ـ أما بعد ـ فقد أوقفني خلنا الحميم الصادق الخل الموافق المنور العالم جميل الأخلاق والأوصاف سيدي عبد الحق بن وطاف، على رسالة الشيخ الإمام الهام عالم الديار القسنطينية الايوان النفيس، السيد عبد الحميد بن باديس فألفيتها فريدة في بابها جمعت النقول الصحيحة والاستدلالات اللطيفة:

العلم قال الله قال رسوله ☆ قال الائمة ذوو العرفان

فما العلم الا الكتاب والسنة لا الشطحات الكاذبة والادعاءات الفاسدة:

والدعاوى ما لم يقيموا عليها ☆ بينات أبناؤها أدعياء

فما لنا الا اتباع سنة مولانا الرسول ومن خالف سنة مولانا الرسول فالسيف مسلول (فما لنا الا اتباع أحمدا) وغاية المقول فيها:

ذي المعالي فليعلون من تعالى ☆ هكذا هكذا وإلا فلا لا

ولما فاح مسك الختام قلت بلفظ قريب شامل من بحر مجزوء الكامل:

جـــاءت إلي رسالـــة	عني بها الـكـدر انـتـفـا
جـمـعت أمورا جـمـة	قـلبي إليهـا قـد هـفـا
ألــفــاظـهـا دريـة	سعي بها قـد شنـفـا
ولها مـعـانٍ أصـبـحت	بـالـفـعـل تحكي الـقـرقـفا
من قـاسـهـا بـالـبـدر و	شمس الضـحى مـا أنصفا
شكـــرا لحضرة سيـــدي	عـبـد الحمـيـد المقـتـفـا
علاّمـــة الـدنـيـا الـذي	أضـحى شريـفـا مشرفـا
ولـــه على الشـكـر فـر	ض عـنـه لـن أتخلـفـا

(1) هذا أقرب ما ظهر من محو.

قاله وكتبه خديم الحديث الأستاذ عبد القادر بن محمد بن عبد القادر السودي القرشي الله وليه ومولاه، حرره بفاس حامدا ومصليا.

* * *

المقرظون : أسماؤهم ووظائفهم وبلدانهم:

1 ـ العلامة النظار المفكر المستقل زعيم النهضة الفكرية لجامع الزيتونة الشيخ محمد النخلي رحمه الله.

2 ـ العلامة الأصولي البحاث الجامع الشيخ بلحسن النجار المفتي المالكي حفظه الله.

3 ـ العلامة المحقق الغواص النقاد الشيخ الطاهر بن عاشور عميد مجلس الشورى المالكي بتونس وقاضي الجماعة بها سابقا حفظه الله.

4 ـ العلامة المحقق الفقيه النوازلي المتفنن الشيخ الصَّادق النيفر قاضي الجماعة بتونس حفظه الله.

5 ـ العلامة المشارك الأديب البارع الشيخ معاوية التميمي المدرس بالزيتونة حفظه الله.

6 ـ العلامة الفقيه المشارك الشيخ شعيب بن عبد الله القاضي سابقا بتلمسان والمتقاعد الآن حفظه الله.

7 ـ العلامة المتفنن الألمعي المفكر الشيخ المولود بن الموهوب المفتي المالكي بقسنطينة والمدرس بمدرستها حفظه الله.

8 ـ العلامة الكبير المؤلف الشيخ العابد بن أحمد بن سودة القرشي خطيب المسجد الادريسي بفاس وقاضي الجديدة سابقا حفظه الله.

9 ـ العلامة المشارك الشيخ محمد العربي المدرس بالقرويين حفظه الله.

10 ـ العلامة المحدث المسند الرحالة الشيخ عبد القادر بن محمد بن عبد القادر السودي القرشي المدرس بالقرويين بفاس حفظه الله.

تبيان:

هذه الأبيات المسؤول عنها لم تزل إلى اليوم في ديوان ناطقها شيخ الطريقة العليوية بين أتباعه بعلمه ورضاه وتقريره مع ما فيه مما هو مثلها أو أشد في معاني أخرى. والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم[1].

(1) رسالة: جواب سؤال عن سوء مقال.ص 21 ـ 33.

زيارة القبور

[جاءتنا المقالة التالية من العلامة الأستاذ صاحب الامضاء جواباً عن سؤال الفاضل «بيضاوي» الذي نشرناه في عدد سابق].

لا يخلو اليوم قطر من أقطار الاسلام في الغالب من ضريح أو أضرحة تزار وتشد إليها الرحال.

فإذا تكلمنا في شأنها فإنما نتكلم على عمومها لاشتراكها كلها في الوصف الذي يوجب اشتراكها في الحكم: (1) من العلماء من يقف في باب التعبد عند النص الوارد والعمل الثابت ولا يتوسع فيه بوجه من وجوه الالحاق فهؤلاء يقولون إن زيارة القبور إنما تكون لتذكر الموت والآخرة كما جاء في الحديث المشهور، والسلام على الميت والدعاء له كما جاء في خروج النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأهل البقيع وسلامه عليهم ودعائه لهم ويرون أن زيارة القبور لانتفاع الحي بالميت بدعة لم ترد في نص ولم تثبت في عمل. ومن هؤلاء أبو محمد الجويني والقاضي حيسي والقاضي عياض والقاضي أبو بكر ابن العربي قال في كتاب القبس على الموطأ: «ولا يقصد الانتفاع بالميت فإنها بدعة وليست لأحد على وجه الأرض إلا لواحد وهو قبر نبينا ﷺ» والإمام الفقيه أبو محمد الشارمساحي المالكي قال في كتابه: «نظم الدر» «وقصد الانتفاع بالميت بدعة إلا في زيارة قبر المصطفي ﷺ وقبور المرسلين صلوات الله عليهم أجمعين» والإمام ابن تيمية الحنبلي وكلامه في هذه المسألة مشهور معروف حتى ان أكثر الناس لا ينسبون هذا القول إلا إليه، وإنما استثنى ابن العربي القبر الشريف

للأحاديث الواردة فيه المرتقية بمجموعها إلى رتبة الحسن والصحيح، واستثنى الشارمساحي قبور الأنبياء بطريق القياس فكان ابن العربي أوقف منه مع الوارد، على أنه لا يعرف قبر نبي غير نبينا على اليقين.

(2) ومن أهل العلم من يتوسع في باب التعبدات فيلحق النظير بالنظير إذا قوي عنه وجه الإلحاق فيرى هؤلاء أن أصل البركة والخير والنفع الموجود في القبر الشريف موجود في جميع قبور الصالحين على تفاوت فيه بحسب تفاوت المنازل والرُتَب فقال تزار القبور الصالح أهلها للتبرك ويسافر للرجل الصالح بعد مماته كما كان يسافر إليه في حياته ومن أشهر من ذهب هذا المذهب الإمام الغزالي قال في الإحياء: «وإذا جوز ذلك (شد الرحال إلى قبور الأنبياء ،فقبور الأولياء والعلماء الصالحين في معناها فلا يبعد أن يكون ذلك من أغراض الرحلة كما ان زيارة العلماء في الحياة من المقاصد» وقال في موضع آخر «وكل من يتبرك بمشاهدته في حياته يتبرك بزيارته بعد وفاته».

وقال الإمام النووي: «والصحيح عند أصحابنا وهو الذي اختاره إمام الحرمين والمحققون أنه (الذهاب إلى قبور الصالحين) لا يحرم ولا يكره» وذهب ابن السبكي إلى زيارة التبرك والسفر إليها غير أنه لم يعممها ثم اختلف كلامه فمرة قال: «ولا تشد الرحال في هذا القسم إلى قبر أحد غير الأنبياء» ومرة قال «فينبغي أن يخرج منه (بدعة السفر لانتفاع الحي بالميت) من يتحقق صلاحه كالعشرة المشهود لهم بالجنة وغيرهم» من كتابه (شفاء السقام) هذا تلخيص الأقوال في هذه المسألة ووجه نظر الخلاف فيها.

وأما حديث «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد» فإن تقديره لا تشد الرحال إلى مسجد إلا إلى ثلاثة مساجد فمعناه أن السفر إلى المساجد مقصور على هذه الثلاثة. فالسفر إلى غير المساجد من الأشياء والأغراض غير داخل في لفظ الحديث كما ذكره النووي وابن السبكي والأبي، وغيرهم. هذا كلام الناس في الزيارة لأجل التبرك، وأما الزيارة بقصد طلب قضاء الحاجات من الميت ودعائه والتمسح بقبره وضرب الدفوف عند رأسه وسوق النذور إليه فإن هذه كلها لم يفعلها أحد من السلف ولا أباحها أحد من علماء الخلف.

وكذلك التزامها في وقت مخصوص بشكل مخصوص كما تلتزم الطاعات التي فرضها الشارع وجعل لها أوقاتا فإن هذا ليس مما يتسع له صدر الدين ولا مما كان في عهد السلف الصالحين ولا سيما مع التكلف الذي كثر من يرتكبه بإلزام وبغير إلزام، ومع الجهل الذي يلتبس على صاحبه القصد الحلال بالقصد الحرام فلربما أفضى به جهله إلى ما لا يقول به عالم وأوقعه ـ وهو يحسب نفسه في طاعة ـ في نشر المآثم، فخير لمن يريد السلامة بدينه أن يقتصر على المتفق عليه وحده أو مع إتيان المختلف فيه مع مبالغته في تحسين قصده وتمام تحريه.

إلى هنا أحسبني قد أديت واجب الأمانة في البيان، فإن أصبت فهو من فضل الله وإن أخطأت فهو مني ومن الشيطان وأما عملي في خاصة نفسي في هذا الباب فالله يعاملني فيه على حسب نيتي وقصدي والله عالم بقصد كل عامل ومجازيه عليه.[1]

عبد الحميد بن باديس

(1) (الشهاب الاسبوعي) عدد 4 تاريخ 16 جمادى الأولى 1344 هـ و 3 ديسمبر 1925 م.

جمعية احباس الحرمين الشريفين
و
مهمتهـا الدينيـــة

تعد فرنسا دولة اسلامية كبرى بما لها من النظر على أمم اسلامية كثيرة بوجه الحماية أو الانتداب أو الاستعمار · ولهذا كان من واجبها السيـــاسي والادبي احترام الاسلام واعتباره ، ومراعاة الشواعر الدينية مـــن رعاياها المسلمـــين ·

ولقد كان من نتائج هذا تاسيس « جمعية » احباس الحرمين الشريفين وتشييد مسجد باريس وملحقاته ·

كان لتاسيس هذه الجمعية وقع جميل عند المسلمين بالاقطار الثلاثـة ، اذ هي أول جمعية عامة بينها أسست لغاية دينية كبيرة · فانتظروا منها القيام بمهماتهم الدينية الكبرى التي تكون بالقيام بها قد خدمت المسلمين في مصالحهم الدينية، وخدمت الدولة الفرنسوية في مصلحتها السياسية وسمعتها الخارجية·

قد اجتمعت هذه الجمعية مرات عديدة بتونس والجزائر والمغرب الاقصى ، وانتجت هذه الاجتماعات كلها مواصلة العمل في معهد باريس الذي هو اليوم على وشك التمام · نتيجة حسنة· ولكنها وحيدة، وليست وحدها هي المقصودة·

سيصدر هذا العدد والجمعية منعقدة بـ « الجزائر » فنغتنم هذه الفرصة لتنبيه أعضائها الموقرين الى مهمات دينية يجب عليهم القيام بها والفصل فيها في هاته الايام التي هي ايامها :

المهمة الاولى : تسهيل الحج الى بيت الله الحرام ، باستصدار الاذن العام من الحكومة ومفاوضة شركات البواخر واختيار احسنها عناية بالحجاج ، وايجاد طرق العناية بهم فى تلك الديار باتفاق مع حكومتها ·

قد تألفت بالشام لجنة من سوريين وافرنسيين لتدرس مسالة تسهيـــل الحج · فلجمعيتنا اسوة حسنة بها ·

المهمة الثانية : تكوين بعثة من اعضاء الجمعية ومن غيرهم لتحضر المؤتمر الاسلامى الذى سيفصل فى أمر الاماكن المقدسة الاسلامية الذى سيبدأ بعقد جلساته فى مكة المكرمة فى الخامس عشر من ذى الحجة القادم الى بعد موسم الحـــج ·

المهمة الثالثة : تكوين بعثة كذلك لتحضر مؤتمر الخلافة الذى سيعقـــد بالقاهرة فى أول ذى القعدة القادم · مؤتمر الخلافة دينى محض يهم المسلمـين اجمعين وقد اعربت الامم الاسلامية المستقلة وغيرها بالسنة جرائدها على اعتنائها به واعلنت حضور وفودها اليه ، والامة الجزائرية كذلك قد اظهرت اهتمامـها على لسان صحيفتيها : « الشهاب » و « النجاح » ·

ونشر « الشهاب مقالا ضافيا فى عدد 17 من المؤتمر وفيه نص الدعوة التى وجهتها لجنة المؤتمر ومشيخة الازهر الى عموم الامم الاسلامية ، ولم يبق بعـد هذا الا العمل ·

ونحن نرى « الجمعية » احق من يقوم به لصفتها الدينية وحيثيتها الرسمية· فتخاطب الحكومة ثم تنتقى وفدا من العلم والدين بالاقطار الثلاثة يكون ممثلا لها بالمؤتمر ونائبا عن سكانها المسلمين · ان عدم حضور نواب عـن مسلمى شمال افريقيا لهذا المؤتمر زيادة تكدر كثير من الخواطر منه ــ غير لائق بسمعة مسلمى شمال افريقيا ، ولا سمعة حكومتهم ، فلهذا نرجو من « الجمعية » ان تسعى فى هذه المهمة سعى الجد ولا نشك ان الحكومـــة تجيبها وتسهل لها السبيـــل (1) ·

(1) الشهاب : 11 رمضان ، سنة 1344 هـ ــ 25 مارس 1926 م ·

سؤال

ورد علينا من بجاية كتاب فيه ما حاصله (ان شيخا من أهل العلم عندهم أنكر[1] الثور الذي بنيت عليه الدنيا ولم يكن هذا الثور ولا الحوت ولا غيرهما بل[2] الأرض كورة قد مدها الله فقط[3] والأرض واحدة[4] والسماء واحدة) وطلبوا جوابنا عن ذلك.

الجواب

تمهيد: مما ينبغي أن يعلم في هذا المقام ـ أولاً ـ أنه لا يجوز الاعتماد على كل قول ينقل في كتب التفاسير لأنها أكثرها لم تلتزم الاقتصار على الصحيح بل قصدت إلى جمع كل ما قيل. وخصوصا التفسير المشهور عند عامة وطننا وهو تفسير الشيخ محمد الخازن رحمه الله فلقد جمع من الاسرائيليات فأوعى. فمن اعتمد على كل ما فيه من ذلك واتخذه عقيدة ونسبه إلى الاسلام فقد أخطأ في عقيدته ونسبته خطأ كبيرا وضل ضلالا بعيدا ـ ثانيا ـ ان ما دل عليه ظاهر من آية أو حديث هو على ظاهره وما يوجب تأويله دليل عقلي قطعي فيجب حينئذ تأويله بما يحتمله ـ ثالثا ـ انه عند تكافؤ الاحتمالات لا يجوز لنا الترجيح الا بدليل صالح للترجيح لصحة متنه وظهور أو قطعية دلالته.

اذا علم هذا فالجواب عن:

(1) ان قصة الحوت والثور والصخرة قصة اسرائيلية محضة لا سند لها في السنة لا قوي ولا ضعيف وقد عرف الاسلام منذ أجيال أن الأرض منعزلة في الفضاء لا تمسكها الا قدرة الله الذي يمسك السموات والأرض ان تزولا وأما قوله تعالى«ن»فهو حرف من الحروف المقطعة التي افتتحت بها السور كـ«ص و ق ونحو ذلك فما قيل فيها يقال فيه مما هو مذكور في محله.

وعن (2) ان ظاهر قوله تعالى وهو الذي يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل ان الأرض كورة وقد قامت أدلة هي يقينية عند من يعرفها على كورية الأرض فصار الأخذ بذلك الظاهر متعينا ووجب حمل النصوص الأخرى المحتملة على ما يوافقه.

وعن (3) ان الأرض جاء في القرآن ما ظاهره تعددها بسبع وهو قوله تعالى «**خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن**». والظاهر ان المثلية في العدد وقد أيد هذا الظاهر الصريح قوله صلى الله عليه وآله وسلم: من اغتصب شبرا من أرض طوقه من سبع أرضين ومن ذلك الظاهر وهذا الصريح علمنا أن الأرضين سبع فقيل انها سبع أقاليم وقيل انها سبع طبقات وهذا الثاني هو الظاهر من قوله طوقه من سبع ارضين لأن المعنى ان ذلك الشبر في غاية الغلظ لأنه يوخذ من الطبقة السفلى إلى الطبقة العليا ويجعل في عنقه كالطوق فلا معدل عن هذا الظاهر لأنه لا قاطع يصرف عنه.

وعن (4) ان السموات سبع بالنص القاطع من قوله تعالى:الذي خلق سبع سموات طباقا. وخلقنا فوقكم سبع طرائق. إلى ما جاء في حديث الإسراء والمعراج المشهور فدليل تعدد السموات من القطعيات. فلا تجوز مخالفته(1).

(1) ش: ج 1، م 7، غرة رمضان 1349 هـ فيفري 1931 م.

الفتاوى والاحكام
في مجلة نور الاسلام

كنا ننتظر من مجلة يحررها كبار العلماء بالأزهر الشريف أن تأتينا في باب الفتاوى والأحكام منها بأدلة المسائل ومستندات الأقوال مع ابدائها رأيها في الترجيح بالطرق المعتبرة عند أهله وكنا ننتظر كذلك انها لا ترجع في استدلالها الا إلى الكتاب والسنة الثابتة. فكنا نخرج منها ـ لو كان ما انتظرناه ـ بمسائل محررة وأدلة معتبرة وأحاديث ثابتة. وفي ذلك ـ زيادة على العلم الصحيح ـ تعبيد لطريق النظر والاستدلال وربط الأحكام بأدلتها وهو ما لا تزال معاهدنا الدينية الكبرى في العالم محرومة منه إلى اليوم.

لكن قد خاب أملنا في كل ما انتظرناه فهذا فضيلة الاستاذ الشيخ ابراهيم الجبالي المدرس بقسم التخصيص بالأزهر كتب عن سؤال فيه هل يجوز للمرأة أن تظهر صورتها ووجهها ويديها وغيرها أمام الرجال الأجانب والأطباء فقال: واما جسمها فكله عورة على الرجل الأجنبي» هكذا بهذا التعميم دون أي دليل ولا التفات إلى قوله تعالى«**الا ما ظهر منها**» بابداء فهم أو بيان فيه. وهل هذا الا ما نشكو منه من قطع الأحكام عن آيات القرآن حتى اتخذناه مهجورا.

وهذا فضيلة الاستاذ الشيخ يوسف الدَّجوي من هيئة كبار العلماء بالأزهر كتب على سؤال ورد على إدارة المجلة هذه صورته باختصار: «جاء في كتاب السيرة النبوية لدحلال في إجابة دعائه صلى الله عليه وآله وسلم انه دعا على صبي قطع عليه صلاته أي مر بينه وبين سترته أن يقطع الله أثره فاقعد. فكيف يتفق هذا مع قوله ﷺ رفع القلم عن ثلاث وعد منهم الصبي حتى يبلغ وكيف يليق هذا بمكارم أخلاقه عليه أفضل الصلاة والسلام» فقال: الحديث ضعيف على ما صرح به الشهاب الخفاجي في شرح الشفا بل مال الحافظ الذهبي إلى أنه موضوع واذا ينهار الأشكال من

أساسه» وهذا وان كان كافيا في الجواب لكن المنتظر من عالم من هيئة كبار العلماء أن يذكر سنده ويبين المطعون فيه من رجال ويرجح ضعفه أو وضعه ثم يتكلم على حديث رفع القلم عن ثلاث عن المجنون حتي يفيق وعن النائم حتى يستيقظ وعن الصبي حتى يحتلم ويبين احتجاج السلف والخلف به لأنه منقول بطريق الاستفاضة وان كان له سند قوي ثم يبين انه باطل من ناحية أخرى على سبيل القطع وهي مخالفته للثابت بالنصوص القرآنية القطعية من رأفته ورحمته بالمؤمنين وللثابت المستفيض من سيرته في حلمه وعفوه وقد أدميت ساقاه وشج وجهه وكسرت رباعيته وهو في ذلك كله يعفو ويصفح ويدعو بالمغفرة والهداية. وليت فضيلته اقتصر على الجواب الذي تقدم من كلام الخفاجي والذهبي ولكنه زاد على ذلك فقال: «على ان العلماء أجابوا عنه على فرض صحته بأجوبة عديدة» وأخذ ينقل في تلك الأجوبة دون بحث ولا مناقشة ولا تصحيح الا من قال وقيل، ودعاوي ليس عليها لمن قالها ولا لمن نقلها من دليل. ثم ختم ذلك كله بقوله «وقد رأينا ان نقف السائل على ما قيل أو ما يمكن أن يقال وله الرأي فيما يرجح أو يضعف وفيما يقبل أو يرد فليس من غرضنا مناقشة الأجوبة ولا الموازنة بينها ولا داعي للاسترسال في ذلك بعد ما عرفت أن الحديث ضعيف أو موضوع».

لا والله ما مثل فضيلته مع سائله الا مثل طبيب قدم لمريضه زجاجات من الأدوية والعقاقير منها السام القاتل ومنها المسكّن ومنها المهيج ومنها غير ذلك ثم قال لذلك المريض: ها أنا قدمت لك ما تداوي به أو ما يمكن أن يتداوى به ولك ـ أيها المريض ـ الرأي في اختيار ما شئت منها فليس من غرضي أن أبين لك ما يصلح لمداواتك وما لا يصلح . وما هي حينئذ قيمة أمانة ذلك الطبيب ونصحه لمريضه وأين هي ثمرة علمه؟! ومن العجيب أن يقول فضيلته ـ بعد ما نقل أكثر من صفحة من تلك الاحتمالات الواهية والأقوال المسمومة ـ «لا داعي للاسترسال» وأي استرسال أكثر من هذا؟.

أما جواب فضيلته على دعاء غير الله والتوسل به وعدم تفريقه ما بينهما فموعدنا بها العدد الآتي ان شاء الله تعالى[1].

---

(1) ش: ج 4، م 7، غرة ذي الحجة 1349 هـ أفريل 1931 م.

ما في عنايتنا برمضان الكريم

من مغزى لو تفهمناه؛ ولولا الإسراف

ما أحرانا بالاكتفاء في تأدية هذه العبادة الشريفة بالفائدة الدينية الروحية المحضة، ألا وهي؛ تقديس أمر الله وتعظيمه، وابتغاء مرضاته؛ لكن نزوع الفكر الجديد إلى تعليل كل ظاهرة دينية أو فنية قد لا يقتنع بغير اظهار ما يرمي إليه غرض الشارع في مثل هذه الشعيرة المقدسة، معتمداً في ذلك على ان الاسلام من مباديه تدعيم تعاليمه بالعقل والتفكير، ونحن مع تقديرنا لجانب من يكتفي بالفائدة الروحية، ولجانب من يسمو بفكره إلى الفوائد الأخرى مما يتصل بالأخلاق والاجتماع لا غنى لنا عن بحث هذه الظاهرة الدينية، سواء من ناحيتها الاخلاقية؛ أو الاجتماعية، وعن الالمام بما يكتنفها من منافع ربما رءاها المتجددون مضارا، ومن مضار ربما حسبها البسطاء منافع أو جهلوها بالمرة.

ان الظهور بمثل هذه المظاهر الدينية لمايزيد في أحكام الرابط الملي وتوثيقه، وان الشعب كلما كان دءوباً على القيام بمقدساته كان بعيداً عن الاندغام، وقويا على مقاومة العوامل الهدامة وعلى الجواذب المادية البحتة التي أمعنت في اغراء الشبان الناشئين؛ وحسب الشعب في ذلك ان يدلل على أن فيه حياة قومية سامية، وقوة ملية دافعة، وهذا؛ ما يحدو بنا إلى اليقين بأن التمسك بالمقدسات والقيام بها جميعها مما يرضي الرب، ويجلب الخير العميم للشعب، ويقوي الشعور، ويحي ميت الآمال، بل هذا مما يستحث همم الشبان على التمسك بمقدساتهم دون أن تأنف أنفسهم، أو تعاف الوقوف بجانب المحافظين المتمسكين بها المتصلبين فيها، وحسبهم في التغلب على

تيار المادة الجارف وعلى سلطان الفكر الجديد الجبار النازق أن يلقوا نظرة فاحصة على انكلترا التي لا تأنف نفسها - رغم تفوقها في مضمار المدنية - من تخويل القانون قسيس لندن أن يفتتح جلسة البرلمان البريطاني في كل دورة بالدعوات الدينية؛ ان كلا من قوتها المادية والعلمية لم تحل بينها وبين ما تريد من التدليل للعالم على أن تمسكها بعرفها وتقاليدها رمز وحدتها المِلِّية التي تتوسل لاظهارها بكل وسيلة. ولعلنا لا نخطئ المرمى إذا قلنا، ان قيامنا بمقدساتنا - كيفما كان شأنها وخطرها وشأننا معها - لمن أسمى الأغراض في مثل هذا العصر الذي طغى فيه تيار الغرام بالاندغام، والكفر بالقومية، والجحود لمزايا الماضي، وكثر الزيغ عن تعاليم الإسلام، وهذا التمسك هو البقية الباقية بأيدينا - ولنعمت الباقية الصالحة هي - زيادة على البقية الأخرى التي شعر بها شاعر النيل حافظ ، فعبر عنها في بيته:

لم يبق شيء من الدنيا بأيدينا * الا بقية دمع في مآقينا

أجل، ان محافظة المسلم عموما، أو صلابته الدينية وقوة شكيمته أمام مقدساته - رغم ما في محافظته وما إليها في بعض الدعائم من ايغال وشطط حينا، وسخافة خرافية أحيانا - لما يجهد عليه وينال من يعرفون ويدركون مغازي الصلابة والمحافظة، حتى في العرف الشائع والتقاليد الوراثية.

ان محافظة المسلم الجزائري خصوصا، وصلابته الدينية في جميع مقدساته - رغم ما يكتنف ذلك من أوضاع أكثرها قشور وعزاء، ورغم اننا لا نحمد له كل غلو يضيع الغرض الأسمى - لما ينبغي أن يكون مثلا أعلى لكل أمة لم يبق بيدها سوى تلك القوة الروحية، ولمن موجبات التفاؤل بالمستقبل السعيد، أو ببقاء الروح الملية وخلودها على الأقل. ان الجزائري متشبع بهذه الروح الوثابة أمام شعائره الدينية عموما، ربما بلغت به هذه الروح إلى حد التطرف، لكن ربما حلت روح التساهل محل روح ذلك التطرف في غير فريضة الصيام؛ أما فيها فلا هوادة ولا مساومة، ولا تأويل ولا تحوير، ولا منزلة بين الكفر والإيمان، ولا يقتنع الجزائري بدون هذا التصلب، ولو كان في مكان من السذاجة، والانهماك والدعارة والإباحية؛ فإذا رأيته دءوبا على غشيان المساجد في شهر رمضان فثق بأنه غدا يصلي اكراما لرمضان؛ على ان هذه الصلاة تنتهي بانتهاء شهر رمضان، وإذا شاهدته في الحمام فتيقن انه راح

يتطهر إجلالا لرمضان؛ بيد انه على نية العودة إلى الطهارة؛ لكن عند ما يدور الحول؛ بل لا يفتأ يرفه البخيل نفسه ويسخو عليها وعلى المعوزين، ويهجر المدمن المستهتر الخمر أم الخبائث، ويتعفف الحشاش، ويتواضع المتحذلق الشامخ بأنفه؛ وغاية كل واحد من هذه الطهارة والقداسة تعظيم جانب رمضان، واعتبار القائم به قائما بالاسلام كله، واعتبار المنتهك حرمته وحرمة أية شعيرة فيه منتهكا لحرمة الاسلام بتمامه. ولعل الوصول إلى هذا الحد في تمجيد فريضة الصيام والاحتفال به عندنا دون ما هو أوكد من الدعائم الاسلامية الأخرى، وفي العناية في الشرق بفريضة الصلاة أكثر من العناية بفريضة الصيام؛ لعل مثل ذلك ناشئ عن تغلب العرف والعادة، أو عوامل أخرى نحن في غنى عن بحثها لبيان موقف المسلم العارف الذي يجب أن يقفه إزاءها.

حقاً؛ ان القيام بشعيرة رمضان على المنوال الذي سارت عليه مثل بلادنا مما يدل على وجود استعداد فطري لمصادمة ومقاومة ما هو أكبر من آلام الجوع اللاذعة، وعلى وجود قوة روحية؛ بيد أن الكثير يجهلون كل ذلك تبعا لجهلهم ما يترتب عليه من الفوائد الاجتماعية التي يغنمها الصائم، منها؛ تلقيه درسا حكيما في الصبر والجلد والثبات وقوة العزيمة، وفضيلة الدأب على العمل وقد عرف ذلك النبي ﷺ في حديث رواه الترمذي: «الصبر نصف الصوم». ومنها شعوره ـ إذا كان مثريا ـ بالألم الذي يلذع الجائع حينما يقف الفقير المطعون بالخصاصة أمامه. ومنها شعوره عند انتهاء رمضان بجفاف الرطوبات البدنية وتضاؤل المواد الرسوبية التي وقع الاكتشاف عليها في الغرب حديثا، وما إليها مما ينهك وينشئ أمراضا؛ وتلك الرطوبات ونحوها متولدة ـ كما قال ابن سينا الحكيم الاسلامي ـ من الطعام؛ بل وبابراء المصابين بأمراض مستعصية، مثل المرض السكري والحصى، ونحو ذلك مما ألف فيه كثير من علماء الغرب بعد اجراء تجارب عملية في أنفسهم. ومنها؛ قسر المترفين والجاؤهم إلى مساواة البائسين في فقدهم معا متع الحياة وشهواتها ولذائذها.

ان سير المسلم الجزائري على ذلك النحو مما يحمد عليه، لو كان بصيرا خبيرا بما دون ذلك من المرامي، ولولا ما يتخلل سلوكه في هذا الشهر من مفاسد ربما كان أثرها السيء يفوق ما توخاه من المثوبة، ومن عواقب لا تحمد، ونتائج قد تعسر

معالجتها؛ والسبب في الانحراف عن طريق التوفيق هو جهل الصائم الهدف الذي هدانا الله إلى معرفته من طريق العقل والتفكير، وعدم تفهمه ما ينطوي عليه تعريف الصوم من انه؛ «الإمساك عن شهوتَي الفرج والبطن»، وغفاده عن معنى حديث رواه البخاري ومسلم وغيرهما من ان كمال الصوم في كف جميع الجوارح عن شهواتها ولذائذها، وإليك الحديث؛«انما الصوم جنة، فإذا كان أحدكم صائما فلا يرفث ولا يجهل، فان امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل؛ إني صائم اني صائم».

ان الصائم عندنا قد وطن نفسه حقا على هجران الشهوتين؛ لكن لم يقو على هجران ما هو أشد خطورة وأسوأ نتيجة؛ انه يعنى بالصلاة والطهارة الحسية، ويسخو بكل عزيز؛ لكن لا كعنايته بما هو أسمى لديه، ولا كسخائه بما هو أنفس في نظره؛ انه يريد الظهور بمظهر المسلم الصميم في هذا الشهر، ولا يريد أن يعرف ان الخير بتمامه يتطلب شيئاً من التضحية، يروم أن يكون صائما بكل ما في الكلمة من قوة، لكن الرعونة، وقلق النفس، والنزق والطيش، والقذع، وما إلى ذلك مما يتخلق به في هذا الشهر شأن مأجور منتظر مزية، كل ذلك لا يدعه أن يحقق كل أو بعض ما يروم ويصبو إليه.

ومن السخف أن يظل الانسان صائما، ثم يفطر على الحرام؛ الزاني والزانية على السفاح، والمقامر على الميسر، والنهم على مائدة لا يفارقها مدى الليل؛ يلتهم فيها ما لا قبل لمعدته به. بل ما يرهقها والأمعاء. ومن المخجل أن نرى المترفين لا يغيرون في هذا الشهر سوى مواقيت الأكل بجعلها في الليل. وأن يمعن العامل خصوصا في السهر المضني ، وأن لا يتحرج الصائمون من الإسراف في رمضان إلى حد الإنفاق بما لا يطاق. وبما يدعه مدينا مدى السنة. وأن يلهوا عما تكظمه أقلام العناصر الأخرى من النقد المر لكل ما لا يتفق ومبادئ الحياة. وعما يصرح به بعض أقلامهم النزيهة في زعمهم من أن الصيام أصبح لا جدوى له؛ اعتمادا على سلوك الصائمين الذي ألمعنا إلى بعض آثاره السيئة. أخطرها ارتكاب ما ينافي مبدأ التوفير، وإنهاك القوى الجسمانية. والإسراف والإسفاف. واستهلاك دخل العام برمته في نفقات شهر واحد؛ ونحن لئن شايعنا النقدة في حملاتهم بتلك اللهجة فاننا لا نشايعهم بحال فيما يكظمون في أنفسهم من المرامي البعيدة. أقربها للفهم الحيلولة بين الصائمين وبين ما يرمي إليه

غرض الشارع الأساسي. أو بين ما تعتز به الملية وتتدعم. كما لا نشايعهم في نني كل فائدة طبية عن الصوم. ومعتمدهم ان الضعف والذبول الناجمين عن الجوع لا يمكن أن نسميهما صحة. وان ما ينشد من العلاج بالجوع ينشد في هذا العصر العلمي بدون ذلك من الوسائل الطبية الكيماوية. وتنظيم الأكل تنظيما علميا؛ كما ان معتمدنا ـ اذا لم نشايعهم في هذه الناحية وما إليها ـ أن ما يعقب الضعف والذبول من القوة وسرعة النمو نظرا لقاعدة رد الفعل أكثر مما ذهب ضحية الجوع.

ونزيد ؛ ان من أمانينا أن ينشد الصائم ما يتفق وغرض الوازع الديني، وما يمكن أن يكون كمثل عليا للعالم. وان يتخطى الصائم المحتسب ما يصادمه، وما يقضي على كل ما فيه من حيوية، وأن يصومه صوم مسلم صميم يراعي المغزى والغاية ويتطلبهما عن اقتناع صحيح وإيمان صادق ، وأن يكتني في مثل بلادنا على الأقل ولو بما ينجم عن القيام بهذه المقدسة من أحكام الرباط الملي، وجعل الوحدة القومية في حرز حريز وفي نجوة مما يلتهمها ويدمجها في غيرها. وأن يناضل الافكار المسمومة التي يناوينا بها من أرصد قلمه لنقد كل حركة تبدو منا حتى ينتصر عليها ويستعيض عنها بأفكار نيرة يستثمرها وامته ماديا وأدبيا. وأن يؤمن بأن وصولنا إلى هذه الغاية النبيلة متوقف على القيام بشعائرنا ومقدساتنا بتمامها؛ فهلموا إليها وجددوا عهدكم بأن تقوموا بها أتم قيام. وان تلاحظوا دائما أن ذلك هو رمز الإسلام الذي يهدي الله إليه من يشاء من الأنام[1].

(1) ش: ج 2، م 7، غرة شوال 1349 مارس 1931.

الفتاوى والأحكام

في مجلة نور الإسلام

كنا نشرنا في الجزء الرابع مقالا في الرد على فضيلة الاستاذ الشيخ يوسف الدجوي من هيئة كبار العلماء بالأزهر. وقلنا في آخره: وأما جواب فضيلته على دعاء غير الله والتوسل به وعدم تفريقه ما بينهما فوعدنا به العدد الآتي. وضاق نطاق العدد الماضي فلم نف بما وعدنا واليوم نفي به في هذا الجزء بإعانة الله.

الاستغاثة بالمخلوق

ذهب الأستاذ إلى جواز الاستغاثة بالمخلوق فقال: (فالمستغيث لا يعتقد ان المستغاث به من الخلق في أمر من الأمور غير مستمد من الله أو راجع إليه، وذلك شيء مفروغ منه، ولا فرق في ذلك بين الأحياء والأموات، فان الله خالق كل شيء ولا تأثير عندنا لشيء في شيء بنفسه فهذا هو ما عليه جماعة أهل الحق، وقد قال الله تعالى «**فاسْتَغَاثَهُ الذي من شِيعَتِهِ على الذي منْ عَدُوِّهِ**» وقال تعالى «**وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّين فعَلَيْكُمُ النَّصْرُ**» وقال تعالى «**فَارْزُقُوهُم مِنْهُ**» الخ.. ما في الكتاب والسنة وهو كثير في لسان الشرع ومعروف في بديهة الفطر).

يجب أن نمهد لمناقشته بيان معنى الاستغاثة وتقسيمها. فالاستغاثة هي طلب الغوث وهو تخليص من شدة أو إعانة على دفع مشقة فهي من أقسام النداء والدعاء وتكون من المخلوق لخالقه عبادة وتكون من المخلوق لمثله عادة فيدعو المخلوق ويستغيث به فيما هو من مقدوره كقولك يا زيد اسقني ماء ويا عمر ادعوك لتنصحني وانني في عسر مالي فأغثني وفرج عني بما تقرضني وعلى هذا جاء قوله تعالى «**فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ**» فقد طلب منه أن ينصره عليه بما عنده من القوة البدنية «فوكزه موسى فقضى عليه» ولم يطلب منه أن «يتصرف» له فيه بتصرف باطن وعليه جاء قوله تعالى «**وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ**» أي طلبوا منكم النصرة بالقوة التي في يدكم من العدد والعدة لا انهم طلبوا منكم أن تنصروهم بطريق الغيب و«التصرف».

ويدعو المخلوق خالقه ويستغيثه في تيسير الأسباب العادية وفيما هووراء تلك الأسباب من الالطاف الخفية وما هو فوق الطاقة البشرية وعلى هذا جاء قوله تعالى «**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ**» فتوجهوا إليه بالدعاء وطلب التخليص من المكروه بالنصر على الأعداء وقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم بين ظهرانهم فلم يستغيثوه لعلمهم ان الاستغاثة فيما وراء الأسباب لا تكون الا لله.

فعلم من هذا ان الاستغاثة قسمان: استغاثة بما هو في طوق البشر ودائرة الأسباب وهذه تكون للمخلوق لأنها عادة،واستغاثة فيما هو خارج عن طوق البشر ودائرة الأسباب وهذه لا تكون الا للخالق لأنها عبادة. وعلى هذين القسمين نزلنا آيات التنزيل.

أفخفي هذا على فضيلته حتى أخذ يستدل بآية الاستغاثة العادية التي تكون بين المخلوقين على الاستغاثة التعبدية التي لا تكون إلا لله. ان خفاء هذا على مثله لعجيب.

ثم هذا التقسيم الذي ذكرنا في الاستغاثة هو بنفسه يجري في الدعاء،وما الاستغاثة الا نوع منه فما كان منه لشيء معظم ليطلب منه ما هو وراء الأسباب العادية وفوق الطاقة البشرية فهو عبادة ولا يكون من المخلوق الا لخالقه وإذا لم يكن كذلك فهو عادة وهو دعاء المخلوقين بعضهم لبعض لغرض من الأغراض . ومن

الأول قوله تعالى «فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ» فنصره الله تعالى بما ليس من صنع البشر. ومن الثاني قوله تعالى «يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ» فدعا موسى قومه وطلب منهم ما هو في مكنتهم.

وهنا قد انتهينا من ابطال دليله على جوار الاستغاثة بالمخلوق وهو الآيات التي ذكرها اذ بينا انه حملها على غير وجهها وأوردها غير موردها. ونريد أن نعرض لإبطال دعواه من ناحية أخرى. وذلك ان قوله (فالمستغيث لا يعتقد ان المستغاث به من الخلق مستقل في أمر من الأمور غير مستمد من الله تعالى أو راجع إليه) - يقتضي ان من كان يعتقد ان المخلوق مستمد من الخالق غير مستقل في أمر من الأمور جاز له أن يستغيث بالمخلوق مطلقاً وهذه دعوى بالنسبة للاستغاثة التعبدية باطلة لوجـوه؛ الأول ان الاستغاثة دعاء والدعاء لا يكون الا لله فأما الأول فمرجعه اللغة وايمتها متفقون عليه وأما الثاني فلأن الدعاء عبادة لقوله صلى الله عليه وآله وسلم «الدعاء هو العبادة ثم قرأ:وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ» رواه أحمد والترمذي وأبو داوود والنسائي وابن ماجه ، عن النعمان بن بشير رضي الله تعالى عنه ولحديث أنس المرفوع «الدعاء مخ العبادة» رواه الترمذي. واذ كان الدعاء عبادة بنص الشارع فلا يكون الا لله اذ العبادة لا تكون الا لله. الوجه الثاني ان ما جعله الشرع من العبادات القولية أو الفعلية لا يجوز ان يتوجه به لغير الله ولو مع العلم بأن ذلك الذي وجهت إليه العبادة مخلوق لا يستقل بشيء فالسجود مثلا لما كان عبادة لا يجوز أن يكون لغير الله بحال. أفيقول فضيلته ان من اعتقد في مخلوق انه مستمد من الله وغير مستقل في أمر من الأمور جاز له أن يسجد له. فإذا كان لا يقول هذا في السجود فكذلك يجب أن يرجع عما قاله في الاستغاثة التي هي نوع من الدعاء اذ كلاهما عبادة. الوجه الثالث ان هذا لو كان جائزا لفعله أهل بدر فإنهم لم يستغيثوا بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو بين ظهرانيهم واستغاثوا ربهم كما ذكره القرآن.

فبطلت بما تقدم كله دعواه جواز الاستغاثة بالمخلوق ودعائه كما بطل استدلاله عليها . وأما عدم تفريقه بين دعاء المخلوق والتوسل به فإلى الجزء الآتي ان شاء الله تعالى[1].

(1) ش: ج 4، م 7، غرة ذي الحجة 1349 هـ أفريل 1931 م.

ما هكذا يكون الاستدلال

وعدنا في الجزء الماضي بأننا سنكتب على كتاب : «القول المعتمد في مشروعية الذكر بالاسم المفرد» للشيخ أحمد بن عليوة المستغانمي ما لا يجوز لنا السكوت عليه. وها نحن نفي اليوم بذلك الوعد والله المستعان.

لا نريد أن نتعرض لما في الكتاب من المباحث النظرية التي من شأنها أن تختلف فيها الفهوم حسب المذاهب والمشارب. ويعسر التراجع فيها ما دام كل واحد من المتعارضين يبني على أصول غير الأصول التي يبني عليها الجانب الآخر سيما وتلك المباحث في أغلبها ترجع إلى أمر عملي اجتهادي لا إلى أمر اعتقادي قطعي.

وانما نريد أن نعرض لما هو من باب النقل الذي لا يعدو أن يطابق الواقع فيصدق أو لا يطابقه فلا يصدق.

ولا نريد أن نتعرض من هذا لما كان نقلا عن العلماء باطلا كقول المؤلف: «وهذا الفخر الرازي. فقد التزم على نفسه وصرح باختياره لذكر هذا الاسم حسب ماذكره في تفسيره الكبير عند الكلام على البسملة حيث يقول: واعلموا أيها الناس اني أقول طول حياتي (الله) وإذا مت أقول (الله) واذا اخذت الكتاب أقول (الله) واذا وزنت أعمالي أقول (الله) واذا جزت على الصراط أقول (الله) واذا دخلت الجنة أقول (الله) واذا رأيت الله أقول (الله) الخ اهـ. وهذا لا وجود له في تفسير الرازي فليراجعه في المحل المذكور من شاء.

وانما نريد أن نعرض لما نقل عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي تواتر عنه انه قال: من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار.

ولا نريد أن نتعرض من هذا لما نقله عن غيره كقوله نقلا عن كتاب «مفيد الراوي: «وجاء في الحديث أن العبد اذا قال (الله) صعد من فيه عمود من نور فينتشر في الأفق ثم يصعد إلى عنان العرش فيملأ الكون طرا فيقول له الله كف فيقول وعزتك وجلالك لا أكف (انظر) حتى تغفر لمن ذكر هذا الاسم فيقول وعزتي وجلالي لقد آليت على نفسي قبل أن أخلق الدنيا لا أجريه على لسان عبد من عبادي (انظر) الا وقد غفرت له» لأن نقل الموضوعات والمجاهيل عن كل كتاب فشا عند أكثر الكتاب في هذه المواضيع حتى صار كأنه عندهم غير منكر.

وانما نريد أن نعرض لما قاله هو من عند نفسه ونسبه لكتب الصحاح ليعتقد الناس صحته فقال في ص 13: «اخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه رأى مريضا يئن في حضرته عليه الصلاة والسلام فنهاه بعضهم وأمره بالصبر «فقال النبي ﷺ ذروه يئن فانه يذكر اسما من أسماء الله تعالى» وهذا لا وجود له في صحيح مسلم أصلا ولا ذكر له فيه أبدا. وقال اثر ما تقدم: «وأخرج البخاري والترمذي ايضا عن أبي هريرة رضي الله عنه (دعوه يئن فان الأنين اسم من أسماء الله يستريح إليه العليل» وهذا لا وجود له أيضا في صحيح البخاري ولا في جامع الترمذي ولا ذكر له فيهما ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

والحقيقة ان هذا اللفظ: «دعوه يئن إلى قوله العليل» انما أخرجه الرافعي أمام الدين في تاريخ قزوين عن عائشة قالت دخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعندنا عليل يئن فقلنا اسكت فذكرته باللفظ المتقدم. وقال المناوى في شرحه الكبير للجامع الصغير للسيوطي رحمهم الله تعالى: «لكن هذا لم يرد في حديث صحيح ولا حسن. واسماؤه تعالى توقيفية» فلم يكف انه استدل على اثبات اسمية هذا اللفظ بما ليس بصحيح ولا حسن كما يعرف بالوقوف على كلامه في الصفحة المذكورة، ولأنه ذكر الحديث الضعيف دون اشارة إلى ضعفه حتى جاء بما لا ينتهي منه العجب ولا يفرغ منه الاستفظاع وهو نسبته لصحيح البخاري ومسلم وجامع الترمذي ما ليس فيها ليحمل قراء كلامه على اعتقاد صحة ذلك الحديث ان من يضع حديثا أو ينقل حديثا موضوعا دون أن ينسبه لهذه الكتب الصحيحة المعتمدة يترك الأمر محتملا

وباب التوقف للقارئ مفتوحا واما الذي ينقل مثل هذا الحديث وينسبه لمثل هذه الكتب فهو يريد أن يحملك على الاذعان والتسليم والاعتقاد بأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد قاله وتحركت به شفتاه. فانا لله وانا إليه راجعون.

ثم مهما كان عجبنا من المؤلف وانكارنا عليه فان ذلك لا يبلغ عجبنا من الخمسة عشر عالما من اخواننا المغاربة أكثرهم مدرسون بفاس الذين قرظوا هذه الرسالة وقرروا ما فيها من هذا الباطل الصريح فليت شعري أكتبوا ما كتبوا دون أن يقرءوا الرسالة على صغرها أم قرءوها وصدقوا نسبة ما نسب للصحيحين وجامع الترمذي فان كانت الأولى فكيف يشهدون على ما لا يعلمون يا لله للمسلمين. وان كانت الثانية وهي الأقرب عندي فلمَ لم يتثبتوا ويتبينوا قبل أن يشهدوا ويوافقوا.

الحقيقة ان اخواننا هؤلاء ما أوتوا الا من ناحية الضعف الفاشية البادية في أكثر علماء المسلمين اليوم وقبل اليوم بكثير وهي الاعراض عن كتب السنة وعدم الاطلاع عليها والوقوف على المشهور منها فضلا عن غيره وعرف هذا منهم حتى صار من ينسب شيئا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو إلى جوامع سنته لا يخشى شيئا من ناحيتهم في الرد عليه وتبيين حقيقة ما جاء به بل صاروا هم أنفسهم ـ الا من شاء ربك ـ كحاطب ليل ينقلون اذا كتبوا الغث والسمين لا يميزون بين مقبول ومردود.

والآن وقد قمنا والحمد لله بواجب التبيين للعلم بقي علينا أن نقوم بواجب النصح لأخينا مؤلف هذا الرسالة فندعوه إلى اعلان حقيقة ما بيناه والاعتراف به وإلى مسك نسخ الرسالة تحت يده واسترداد ما استطاع استرداده منها قطعا لانتشار الباطل ورواجه حتى اذا شاء أن يعيد نشرها فليعدها خالية مما انكرناه عليه.

والله يوفقنا وإياه للحق ويعيننا عليه، ويؤيدنا بالصبر على قوله وسماعه والعمل به [1].

---

(1) ش: ج 2، م 8، غرة شوال 1350 هـ فيفري 1932 م.

الثقافة الجديدة

لا تنافي الاسلام الصحيح

قمنا بالدعوة إلى ما كان عليه السلف الصالح من التمسك بالقرآن الشريف والصحيح من السنة الشريفة، وقد عرف القائمون بتلك الدعوة ما يلاقونه من مصاعب وقحم في طريقهم من وضع الذين شبوا على ما وجدوا عليه آباءهم من خلق التساهل في الزيادات والذيول التي ألصقها بالدين المغرضون أو اعداء الاسلام الالداء، والغافلون من أبناء الأسلام. وقد أقدم أولئك القائمون على كل ذلك؛ محافظة أولا على جوهر الاسلام الذي به فحسب أفلح المسلمون يوم كانوا جد حريصين على تعاليم الاسلام الصحيحة، كما أفلح من قبلهم في الصدر الأول، وثانيا رغبة في انتشال الشباب المثقف بالثقافة الجديدة من وهدة الشك في كل شيء يعزى إلى الدين بسبب ما يجده فيه من خرافات وسخافات لا يمكن للعقل أن يصدقها وان يعزوها إلى دين اشتهر باتصاله بالعقل اتصالا وثيقا؛ بحيث لا يقبل من تعاليمه ما لا يقبله العقل وما لا يدخل في دائرة الوعي السليم. وقد كان الاقدام على انتشال هذه الطبقة من الشباب من أوكد الواجبات في مثل هذا الظرف الذي طغى فيه تيار المادة على كل شيء، سيما وقد أوشك الالحاد والمروق من الدين ان يبترا تلك الطبقة التي هي كل عدتنا من المجتمع الجزائري الاسلامي، وقد شجعها على ذلك ما تقرؤه وتطلع عليه من حين إلى آخر من سخافات الطقوس المسيحية ونحوها، ومن الانتقادات المرة على تلك السخافات بأقلام حملة النهضة العلمانية، وهذا من جهة، ومن جهة أخرى قد أغراها وألجاها إلى ذلك المروق والزراية بكل ما يعزى إلى الدين ما تشاهده من أعمال اللفيف التي لا تخرج عن عبادة المخلوق وعن أوضاع تمت بصلة إلى ما في طقوس الكنيسة من سخافات وقشور، وما تراه من ناحية أخرى من

سكوت العلماء عن تلك المظاهر المخزية التي تمثل أمامهم في كل وقت، وكانهم تجاهلوا معنى ذلك السكوت أو احتموا به، مع ان المعنى الذي تعطيه مادة «السكوت» هو الرضى والارتياح.

وهذه كلها عوامل تكفي لأن تبعد هذه الطبقة المفكرة من تعاليم دينها متي رأت ما لا يتفق والعقل وما لا يؤيده العلم وطبيعة الاجتماع، وان تقصيها من المجتمع الذي تفشت فيه تلك السخافات ومن كل ما يعتز به ذلك المجتمع من ملية وقومية ووطنية، وعلى ذلك النحو تبقى بعيدة من كل شيء، متبرمة من كل شيء، ساخرة بكل شيء، متعللة في ذلك كله؛ بان دينا أفضى بمعتنقيه إلى مثل هذه الهاوية وسقطت بهم إلى هذا الدرك وسلبهم كل عوامل النهوض وكل خلق كريم لما يجب أن يقاوم وان لا يعمل به وبما فيه، وان يبتعد من معتنقيه.

وبمثل هذا كانت تلك الطبقة تتعلل، وللرغبة في انتشالها تدرع حملة الاصلاح بتلك القوة المعنوية التي جردوها من تعاليم الاسلام الصحيحة، فما عتموا ان خلقوا جوا صالحا لدعوة تلك الطبقة الهاربة المتبرمة إلى ما يتفق ومنتوجات العلم والعقل، إلى دين هو في طليعة الأديان من جهة انه دين صالح للرقي من كل ناحية ولقوانين الاجتماع البشري، إلى دين هو دين سلفها الطاهر، الذي بلغوا به من الرقي الخلقي والمادي أوجها.

وبهذه الناحية هي ما كانت تعنيها حملة الاصلاح، مع ما كانت تعنيه من نواح أخرى: يوم بلغ السيل الزبى، ويوم بان الاصداع بالحقيقة المرة من الصعوبة بمكان، ومن الأدعى إلى الفخر الآن أن نقول: بأن هذه الناحية من الاصلاح الديني قد وفق إليها حملة الاصلاح ؛ ومن أقوى الأدلة على ذلك. بل حسبنا في ذلك ان نقايس بين حالة هذه الطبقة المفكرة، وهي حالة تمرد ومروق والحاد؛ وبين حالتها الراهنة، وهي حالة تدعو إلى الاطمئنان والسرور. ويكفي في التمييز بين الحالتين واظهار البون الشاسع بينهما أن نعرض هنا بعض الحوادث التي حدثت منذ ثلاث سنين في بعض البلدان. ولعلنا لا نخطئ إذا قلنا ان الحادث وقع بالعاصمة في شهر الصيام الكريم، ثم نطبقها على الحالة الراهنة التي بدأت فيها الافكار تنتعش بروح الاسلام، وإليك تلك الحادثة أو المهزلة:

ان مدير مطبخة «الأطوال» بنهج ازلي - على ما اذكر - جاءه قبل غرة رمضان بيوم ما يتراوح بين أربعين شابا والخمسين من شباب المسلمين. وقابله كل واحد بمفرده، وكل منهم يرجو منه القيام بمهمة خاصة وهي اعداد قاعة خاصة أو حجرة خاصة يتناول فيها غداءه مدة شهر رمضان بالقيمة التي يريدها، وقد أجاب المدير كل طالب إلى مقترحه. وضرب لكل واحد وعدا خاصا يحضر فيه في اليوم الأول من رمضان لتناول الغداء في حجرة خاصة أعدها له بصفة استثنائية، وقد صرف كل واحد على هذه الصورة ومما يدل على براعة المدير في المكر والدهاء. ان الوقت الذي ضرب فيه الوعد لأحدهم هو غير الوقت الذي ضرب فيه الوعد للآخر؛ وذلك لكيلا يشاهد بعضهم بعضاً خارج الحجرة الخاصة لكل واحد... وحينما حان الوقت المحدد للغداء أخذ شبابنا يتقاطرون على المطعم وكلما حضر أحد دفع به مدير المطعم إلى الحجرة الخاصة فإذا به أمام شبان آخرين يعرفهم، وهكذا حتى دخل جميعهم وتعارفوا على مأدبة الغداء وعلى انتهاك حرمة رمضان؛ اذ لم يسعهم إلاّ القاء الفضيحة على تلك الصورة بصدر رحب، بأنهم في الهوى سواء.

وإذا قايسنا بين هذا الحادث الذي يدل على خلق التمرد الذي تفشى في الشباب منذ سنين من كل شيء حتى من مثل شعيرة الصوم، وبين حالة الشباب الحاضرة وجدنا الفرق كبيرا؛ اذ بينما نرى الشبان في تلك الحالة المخزية نراهم الآن يتنافسون ويفاخر كل واحد أخاه في قيامه بشعيرة من الشعائر الاسلامية حق قيام، مثل الصلاة والصوم وما إليهما. واننا كم من أولئك الشبان المتمردين رأيناهم منذ انبثاق فجر الاصلاح وعرف ما هو الاسلام يؤدون الصلاة في أوقاتها ويقومون بشعائر الدين الاسلامي ويتبارون فيها، وما كان الداعي القوي في رجوعهم إلى ما محصه هم حملة الاصلاح وأظهروه لهم من جمال الاسلام وصلوحيته للرقي والعمران البشري وبذلك قد استعاظ عن روح الزراية بالدين بروح الاكبار للدين، وهذه ظاهرة من أجل الظواهر.

ومن الواجب مواصلة السعي في تمحيص الحقائق وبترها مما يشوبها من سخافات لكي يقبل عليها المتمردون وتتطهر بتلك الحقائق نفوسهم(1)

(1) ش: ج 2. م 8. غرة شوال 1350 فيفري 1932 م.

الأسئلة والأجوبـة

1 ـ س : هل يجوز كراء الأسواق العامة، وأخذ ثمن الدخول على أرباب المواشي والسلع؟

(سائل من الميلية)

ج : المعروف ان هذه الأسواق هي ملك للبلدية وإذا قلنا هي ملك البلدية فهي ملك للعامة التي تنوب عنها البلدية فللبلدية أن تبيع منفعتها بثمن معلوم إلى أجل معلوم فيجوز اكتراؤها منها كذلك. ويجوز للمكتري أن يكري الانتفاع بها كذلك فيجوز له أن يأخذ على كل داخل لماشيته أو سلعته أجرا في مقابلة انتفاع ذلك الداخل بالمكان الذي يحل فيه والذي هو مملوك المنفعة لصاحب السوق. ونظيره من اكترى اصطبلاً ثم يأخذ على أرباب المواشي أجرة بقاء مواشيهم في اصطبله مدة محدودة.

2 ـ س : إمام جمعة يسكن بقرية بعيدة عن قرية الجمعة بنحو خمسة وثلاثين كيلومتر، هل تصح امامته بالقرية التي يؤم بها للجمعة وهو ليس من سكانها؟

(سائل من فج مزالة)

ج : المسافر هاته المسافة لا يقصر الصلاة فإذا حل بقرية جمعة فالجمعة عليه واجبة فتصح امامته بها. والمسافر الذي لا تصح امامته للجمعة هو الذي يكون مسافرا مسافة القصر لأن الجمعة حينئذ لا تجب عليه، فامامته بها تصير صلاة أهل القرية خلفه كصلاة مفترض خلف متنفل وذلك لا يصح، ولهذا إذا نوى المسافر إقامة أربعة أيام صحاح وجبت عليه الجمعة وصحت منه الامامة[1].

— 2 —

3 ـ س : هل يجوز تولي خطة الكتابة عند القائد وأخذ الأجرة عليها، وهل يجوز كذلك ما في معناها من رتبة الدائرة والعساس أم لا يجوز؟

(سائل من القرارم)

ج : كل خطة من مثل ما ذكر في السؤال إذا لم يكن فيها ظلم ولا إعانة ظالم فجائز توليها وأخذ الأجرة في مقابلة القيام بها.

4 ـ س : إذا ضرب انسان دجاجة أو شاة بحجر أو عمود فأصابها وبقيت تتخبط من ذلك الضرب فبادر إليها الضارب أو غيره فذبحها فهل تؤكل أم لا؟

(منه أيضا)

ج : إذا أدركها غير منفوذة المقاتل فانه يذكيها ويأكلها اتفاقا. وإذا كانت منفوذة المقاتل فالذكاة لا تفيد فيها في مشهور مذهب مالك وتفيد فيها في مذهب الشافعي وجماعة من المالكية وهي فسحة ينبغي اعتمادها.

5 ـ س : هل نصاب الزيت معتبر بالحب أو بالزيت وما هو مقدار نصابه والقدر الذي يخرج من حبه أو زيته؟

(منه أيضا)

ج : النصاب معتبر بالحب وهو خمسة أوسق وفي الوسق ستون صاعا وفي الصاع أربعة أمداد والمد ملء اليدين المتوسطتين لا مقبوضتين ولا مبسوطتين وهذا

---

(1) ش: ج 1، م 6، ص 58. غرة رمضان 1348 هـ فيفري 1930 م.

تقريب فيه تسهيل على الناس في هذا الأمر العام ، ليس فيه تشديد بالنقير والقطمير والحبة والقمحة فلا تكن من المتنطعين. والاخراج يكون من زيته الا أن يكون باعه حبا فيخرج من ثمنه أو أهداه أو أكله حبا فيخرج من قيمته والقدر المخرج هو العشر الا اذا كان سقاه بآلة فنصف العشر.

6 ـ س : هل يجوز للمرأة أن تستعمل دواء يمنعها من الحمل لأنها ضعيفة بالمرض؟

(منه أيضا)

ج : أصل هذه المسألة هو العزل أي عدم انزال الرجل المني في الفرج وهذا كرهه البعض، والمشهور في المذهب جوازه بإذن المرأة الحرة لحقها في الوطء والانزال من تمام لذتها وفي العزل منع للولادة فيقاس عليه شرب الدواء لمنع الولادة فيجوز ما لا يلحق ضررا بالجسم إذا كان بإذن الزوج لأن له حقا في الولد وإذا كانت ضعيفة عن الولادة فلا تتوقف على إذنه.

7 ـ س : هل يجوز للمرأة الحامل المطلقة أن تتزوج في عدتها قبل وضع حملها اذا لم تجد ما ينفق عليها؟

(سائل من جبل عياض)

ج : ان المواعدة في العدة حرام وكذلك النفقة عليها لأنها في حكم صريح المواعدة فكيف بالتزوج فهو حرام بلا خلاف لنص الآية.

تنبيه:

وقع لنا في السؤال الثاني في الجزء الماضي خطأ، وصوابه ان من كان خارجا عن فرسخ من قرية الجمعة لا تصح إمامته الا اذا نوى إقامة أربعة أيام صحاح سواءا كان بعيدا على مسافة القصر أو دونها [1] .

---

(1) ش: ج 2، م 6، ص 128 ـ 129. غرة شوال 1348 هـ ـ مارس 1930 م.

كراء الأسواق

تكلمنا على هذه المسألة في جزء رمضان سنة 1348 ثم في جزء ذي الحجة من السنة نفسها وكنا نعلم أن المسألة نظرية تحتاج إلى أخذ ورد بين أهل العلم وكنا ننشر ما يأتينا منهم لو أتانا شيء كما هي عادتنا. واليوم بعد مضي ثلاث سنوات نشر الشيخ الحافظي مقالا في المسألة ونحن نرحب بكل بحث علمي مخلص نزيه غير اننا نقول لحضرة الشيخ ما أخرك عن ابداء رأيك في المسئلة إلى اليوم والشهاب من أقرب الصحف إليك وقد نشر لك في هذه السنوات الثلاث عدة مقالات. وقد استشعرت هذا السؤال الذي يتبادر من نفسه إلى ذهن كل أحد فقلت في مقالك هكذا: «قد كان لزاما أن يرد عليها في الحال لو ان هذا العدد من المجلة موجود تحت يدي والآن حيث عثرت عليه بادرت إلى ابطال هذا القول» سبحان الله ما هذا الجواب يا حضرة الاستاذ. ان الشهاب من يوم تأسيسه ما زال يرسل هدية إليكم إلى يومنا هذا فكيف يغيب عنكم إلى اليوم. دعنا من هذا فللناس عقول تعرف بها وتميز.

ولما كان كلامنا في المسألة قد نشر منذ مدة طويلة فاننا نعيد نشره لتعلم وجهة نظرنا ولينظر أهل العلم في المسألة وأقوال الطرفين فيها ويكتبوا ما يظهر لهم ونحن نتكفل بنشره.

وإليك نص السؤال وجوابه من جزء رمضان سنة 1348.

1 ـ س : هل يجوز كراء الأسواق العامة، وأخذ ثمن الدخول على أرباب المواشي والسلع؟.

(سائل من الميلية)

ج : المعروف ان هذه الأسواق هي ملك للبلدية وإذا قلنا هي ملك للبلدية فهي ملك للعامة التي تنوب عنها البلدية فللبلدية أن تبيع منفعتها بثمن معلوم إلى أجل معلوم فيجوز اكتراؤها منها كذلك. ويجوز للمكتري أن يكري الانتفاع بها كذلك فيجوز له أن يأخذ على كل داخل لماشيته أو سلعته أجرا في مقابلة انتفاع ذلك

الداخل بالمكان الذي يحل فيه والذي هو مملوك المنفعة لصاحب السوق، ونظيره من اكترى اصطبلاً ثم يأخذ على أرباب المواشي أجرة بقاء مواشيهم في اصطبله مدة محدودة(1).

كراء الأسواق
من الاجارة لا من المكس

المكس في اللغة هو النقص ويطلق على ما يؤخذ من بائع السلعة ظلما والمكاس هو الآخذ لذلك وجاء في شأنه من الوعيد حديث «لا يدخل الجنة صاحب مكس» رواه أبو داوود وغيره. وقد كانت الأسواق ملكا مشاعا بين الناس يقفون فيها بسلعهم فكان أخذ فرد المكس منهم ظلما لهم هذه هي حالة الأسواق في العهد القديم أما اليوم فان أوضاع الأسواق صارت على شكل آخر وذلك ان العامة الذين هم ملاك الأسواق وغيرها من الأماكن العامة يحتاجون في القيام بمصالحهم المدنية من تنظيف أقنية وانارة شوارع وتعبيد طرقات ونظام أمن وغير ذلك من المرافق التي تتولاها المجالس البلدية فكانت البلدية تتصرف في الأسواق التي هي ملك العامة في مصلحة العامة وكانت العامة المالكة لتلك الأسواق قد نوبت عنها نوابا فوضت لهم أن يتصرفوا في ممتلكاتها لأجل مصلحتها فأولئك النواب الذين هم وكلاء العامة هم أعضاء البلدية يعرض السوق للكراء بالمزاد فيكتريه زيد أو عمر فهذا المكتري قد اكترى شيئا معينا بثمن معين من نواب مالكيه وهم العامة فقد وجدت أركان عقد الاجارة كلها فكان هذا العقد لذلك صحيحا جائزا.

ثم أن هذا المكتري يقف عند باب سوقه في أيام السوق فكل من يريد الدخول لمحله ـ وهو السوق الذي يملك منفعته بالعقد السابق ـ يدفع أجرة الانتفاع بالبقعة التي يقف فيها بسلعته مدة بقاء السوق في ذلك اليوم سواء أباع تلك السلعة أم لم يبعها فهذا أيضا عقد على الانتفاع بالبقعة مدة معلومة بثمن معلوم فهو صحيح جائز.

(1) وهذا ما في جزء ذي الحجة 1348 في باب المباحثة والمناظرة

لا يقال ان المكتري لا يلاحظ منفعة البقعة وانما يلاحظ ما يأخذه عن ثمن المبيعات لاننا نرى ان البقعة هي المقصودة لا ثمن المبيعات بدليل أنه يأخذ اجرة البقعة سواء أباع أم لم يبع وسواء أباع بالقليل أم بالكثير. ولا يقال ان المكتري للسوق يأخذ عن كل ما يأتي للبلد ولو كان بعيدا عن السوق لأن كلامنا فيمن يأخذ عن الموضع الذي اكتراه بحدوده واما الأخذ في غير المكان المكتري بحدوده فهو غير داخل في كلامنا. وليس الفتوى فيه، ولا يقال ان العقد الأول فيه غرر لأن مكتري السوق قد تساعده الأحوال فيربح وقد تعكسه فيخسر لأننا نقول هذا الشأن في التجارة بيعا واكتراء ولا يضر هذا إذا كان ثمن البيع والكراء معلوما كما هو في موضوعنا ومثل هذا من اكترى فندقا فانه قد يربح وقد يخسر ولا يقال انه فرق بين كراء بقعة لتقف فيه الدابة حتى يأتيها صاحبها ويكون صاحب البقعة حارسا لها وبين كراء البقعة لتقف فيها الدابة لتباع وصاحبها هو حارسها لأننا نقول المقصود هو الانتفاع بالبقعة منفعة صحيحة سواء أكانت وضع سلع أو وقوف دابة لأي غرض كان اذ الجميع انتفاع بالبقعة ودعوى الفرق بين ثمرات الانتفاع لا وجه لها من هذا البيان يعلم اننا لا نريد تحليل المكس (عياذا بالله) وانما نريد انه غير منطبق على كراء الأسواق واكتراء الانتفاع بالوقوف فيها يوم السوق، وان العقد الأول ما بين صاحب السوق ونواب العامة والثاني بين صاحب السوق ومريد الوقوف فيه بسلعته ـ من عقود الاجارة الصحيحة الجائزة[1].

(1) ش: ج 3، م 9، غرة ذي القعدة 1351 هـ مارس 1923 م.

الصوفى السنى
بين الحكومة السنية والحكومة الطرقية

أما الصوفى السنى فهو الامام المجاهد السيد أحمد الشريف السنوسى الذى توفاه الله منذ أشهر بالمدينة المنورة فقد كان على جانب عظيم من التمسك بالكتاب والسنة والتخلق بأخلاق السلف الصالح وكانت دعوته الى الله وارشاده للعباد بهدايتهما وكانت تربيته لاتباعه مبنية على التفقه فى الدين والتزام العمل به والزهد والصبر وحفظ الكرامة ·

وأما الحكومة السنية فهى الحكومة السعودية القائمة على تنفيذ الشريعة الاسلامية بعقائدها وآدابها وأحكامها الشخصية والعمومية حتى ضرب الامن أطنابه ومد العدل سرادقه على جميع تلك المملكة العربية العظيمة بما لم تعرفه دولة على وجه الارض غير دولة الامام يحيى المضارعة لها فى السنية واقامة عمود الشريعة الاسلامية ·

وأما الحكومة الطرقية فهى حكومة مصر التى تشارك المشاركة الرسمية فى بدع المواليد وتؤيد تأييدا رسميا الاجتماعات الصوفية بما فيها من مناكر وقبح مظاهر وسوء مناظر مما تضج منه صحافتها كل يوم فضلا عن العلماء المصلحين من أمتها · ويواطئها على هذا علماؤها الرسميون بسكوتهم واقرارهم وأحيانا بدفاعهم وتأويلاتهم ·

أما كيف كان هذا الامام بينهما فهاك الخبر لتنظر وتعتبر : لما رجع الامام من الاناضول بعد ما أنكر الكماليون جميله واستثقلوا بقاءه ، ما آوته الا الحكومة السنية حكومة ابن سعود فاقام عندها فى الحجاز مكرما مبجلا ·

وأما الحكومة المصرية الطرقية فانها أبت عليه أن يدخل مصر مراعاة لوعد كانت اخذته عليها ايطاليا فى شأن الامام ولم ينته احترامها لهذا الوعد القاضى بحرمان امام عظيم من دخول أرضها عند هذا الحد الاعتيادى عند من لا يراعى

الا جهة واحدة وان أغفل جهات عديدة ، بل تجاوز تصلب حكومة مصر ويبسها الى منعه من دخول مصر في الحالة التى يرثى فيها العدو لعدوه ولو كان كعداوة ايطاليا للامام . ذلك أن الامام لما مرض مرضه الاخير واشتد به الالم رغب في التداوى بمصر فطلبت حكومة الحجاز من حكومة مصر السماح له بذلك وكانت الحكومة المصرية فى انتظار قدوم ملك ايطاليا فماطلت ولم تجب حتى مات الامام دون أن تسمح له بالدخول لاجل التداوى .

نحن لا نتكلم على هذه المسالة من ناحيتها السياسية وانما نتكلم عليها من ناحيتها الانسانية ومن ناحيتها الدينية على الخصوص . فالحكومة السعودية التى طهرت الحجاز من البدع والضلالات والخرافات ورجعت اتباع الطرق التى تسمى نفسها الطرق الصوفية الى عقولهم ودينهم لما جاء هذا الصوفى السنى أكرمت وفادته وانزلته المنزلة اللائقة به ، وحكومة مصر التى تؤيد الطرقية وبدعها وخرافاتها وتشويهها لما كان عليه الجنيد وأمثاله ، وما كان عليه أئمة الهدى كلهم تعامل هذا الصوفى السنى هذه المعاملة القاسية الخشنة الخالية من كل لطف ومراعاة وفى هذا الموقف من هاتين الحكومتين البرمان القاطع على أن الحكومة السعودية ما طاردت الطرق لانها تصوف وانما طاردتها لانها مدعية بالباطل ومتصفة بضده . وان الحكومة المصرية ما نصرت الطرق لانها تصوف وانما ناصرتها لان غالب علمائها الذين يعيشون على رواتبها وعلى رضا العامة وتعظيمها واستغلال جهلها أقروه على ذلك وحسنوه لها فاقرتهم والعامة عليه :

وهل افسد الناس الا الملوك   وأحبار سوء ورهبانها

وقبل الحكومة السعودية قد كان علماء الاسلام المصلحون يقبلون طريقة الحق وينكرون طرق الباطل وقد ذكرنا جمعا منهم من القرن الخامس الى القرن السالف فى عدد مضى وهم قدوتنا أنعم بهم من قدوة وقبل الحكومة المصرية وعلمائها قد كان من يقر ما أقرت دون بينة ولا برهان. وسيبقى كذلك على الدهر من ينصر السنة ويؤيدها ويدافع عنها . ومن ينشر البدعة وينفخ فى بوقها وينقر على طبلها . ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز (1) .

(1) السنة ، السنة الاولى ، العدد 6 ، الاثنين 20 محرم الحرام 1352 هـ — 1 ماى 1933 م .

تسهيـــل التجنـــس ...

عقد اجتماع للمتجنسين في أوائل أفريل بالعاصمة فكان من مطالبهم تسهيل التجنس على من يريده ومعنى هذا أنهم يسعون لتكثير عددهم بما يطلبون من الحكومة من وسائل الاغراء والترغيب في التجنس •

نحن أخذنا على أنفسنا أن لا نعرض لهؤلاء السادة ما داموا يعملون لمصالحهم وحقوقهم التى من اجلها تجنسوا •

اولا ـ لان حكم رفض الاحكام الشرعية او حكما قطعيا واحدا ـ وما يقتضيه من ارتداد عن الاسلام وخروج منه ـ معلوم عند الناس بالضرورة •

وثانيـا ـ لانهم اختاروا ـ مع هذا العلم ـ ما اختاروا لانفسهم فكان علينا أن ندعهم وما اختاروا ، اذ « **لا اكراه في الدين** » •

غير أننا لا نستجيز السكوت عنهم اذا رأينا منهم دعاية لتوسيع نطـاق التجنيس اذ في ذلك محاولة اضعاف الاسلام باختطاف الضعاف مـن بنيه ومجاوزة لحدود النظر لانفسهم بالاغراء لغيرهم •

فنحن بلسان الاسلام نحتج على هذا من هؤلاء السادة ، وننصح لهم بالكف عن كل دعاية في هذا المعنى والتفرغ لاستحصال جميع حقوق الجنسية الـتى اعتنقوها وارتكبوا ما ارتكبوا لاجل نيلها ، والتى ينالها كلها احـط أوروبى بمجرد التجنس وهم ما يزالون ولن يزالوا يحاولون استكمالها ••• (1) •

---

(1) الشهاب : ج 5 ، م 10 ، غرة محرم 1353 هـ ـ 16 افريل 1934 م •

بيـــان عـــن هـــلال شـــوال
من جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الى المسلمين الجزائريين

اجتمعت هيئة علمية بادارة مجلة الشهاب ليلة الاحد لانتظار ما يرد مـن الاخبار عن الهلال والاسئلة عنه مثل ما فعلت ليلة رمضان وبيناه فى المنشور السابـق ·

دق جرس التلفون من قصر الطير فتكلم السيد عبد الرحمن بن بيبى فأخبر بان الهلال رآه رجلان من قريتهم وناداهما فتكلم كل واحد منهما واخبر عن الرؤية وزكاهما السيد عبد الرحمن وسمع هذا كله رئيس الجمعية والسيـد أحمد بوشمال والشيخ عبد العلى ثم دق الجرس من بلدة جامعة فتكلم فضيلة قاضيها الشيخ لخضر بن غريب فذكر أن قاضى بلدة أولاد جلال أخبره أن الهلال رآه اثنان فى بلدته وأنه نقل له اثنان من أهل قرية سيدى خالد الرؤية عن أربعة بها فثبت الامر عنده ثم ذكر فضيلة قاضى جامعة أن الهلال قد رؤى أيضا فى سيدى عقبة وأنه نقل ذلك عن الثقة عنده ، ثم تكلم السيد الحـاج الشاوى فأخبر بمثل كل ما ذكره الشيخ القاضى وسمع ذلك كله منهما مـن سمعوا الخبر الاول وغيرهم · ولما تحملنا هذه الشهادات قمنا فذهبنـا الى فضيلة قاضى قسنطينة الشيخ محمد بن الساسى فادينا عنده الشهادة ، وكلم هو قاضى بلدة أولاد جلال فأخبره بمثل ما أخبرنا به ، فأصدر حكمه بدخول شهر شوال بالاحد وأعلن ذلك للناس · وتولت هيئة جمعية العلماء توزيع الخبر بالبرقيات والتلفونات ـ كعادتها ـ على أنحاء القطر ·

أصبح الخبر منتشرا فى القطر كله وافطرت جل البلدان ولولا بقايا من الذين فى قلوبهم مرض لعم العيد جميع البلدان • وكان من المقدر على العاصمة الجزائر أن يقع فيها الخلاف فى الفطر كما وقع فيها الخلاف فى الصوم وكان سبب ذلك أخيرا هو السبب ، أولا : ذلك المتعنت المخذول ، كان يعتل لخلافه فى الصوم بأنه لم تخاطبه هيئة رسمية وهو لا يقبل الا الرسميين فخاطبه ليلة الاحد فضيلة الشيخ محمد بن الساسى بنفسه هو ومن كانوا معه فى المحكمة ورغم هذه المخاطبة الرسمية أبى من العمل بها وأصر على رأيه الباطل الذى لا مستند له لا من وهم ولا من شبهة • وكان هذا منه الدليل القاطع عند الناس على تعصبه وعناده وما يكون عنه التعصب والعناد فى مثل هذه المسألة الدينية من طوايا وأدغال •

هكذا تقوم الجمعية بكل ما ترى فيه الخير من نشر العلم والدين وتوحيد الكلمة فى الخير فتجد أمثال هذه العراقيل من هذه الاشباح المظلمة والايدى الظالمة تعترضها فى طريق الصالح العام ، والجمعية ـ باذن الله ـ سائرة فى طريقها المحمودة الى غايتها النافعة ولو كره المبطلون والله المستعان •

هذا واننا نحمد الله على ما شاهدناه من الامة من العناية ونشكر كل من أعاننا على القيام بهذه الطاعة ونرجو من اخواننا المسلمين أن يبذلوا عنايتهم فى كل الشهور وأن يبادر كل من يرى الهلال الى اخبار محكمته وأن يعلن رئيس المحكمة ذلك للناس والله المسئول أن يوفقنا للخير ويعيننا عليه ويجعلنا من أهله (1) •

عن مكتب رئاسة الجمعية

الرئيس : **عبد الحميد بن باديس**

---

(11) الشهاب : ج 12 ، م10 ، غرة ذى القعدة 1353 هـ ـ فيفرى 1935 م

إلى علماء الزيتونة

إن مسؤولية العلماء عند الله فيما أصاب المسلمين في دينهم لعظيمة، وان حسابهم على ذلك لشديد طويل، ذلك بما كتموا من دين الله، وبما خافوا في نصرة الحق سواه، وبما حافظوا على منزلتهم عند العامة وسادة العامَّة ، ولم يحافظوا على درجاتهم عنده، وبما شحوا ببذل القليل من دنياهم في ما يرضيه، وبما بذلوا وأسرفوا في الكثير من دينهم فيما يغضبه، اللهم الا نفرا منهم بينوا وما كتموا، ونصحوا لله ولرسوله ولكتابه ولعامة المسلمين وخاصتهم فقامت بهم حجة الله، وتداولت بهم أجيال المسلمين ارث النبوة، واتصل بهم سند الحق وانفضحت بهم شبهة الباطل، أولئك هم الطائفة التي لن تزال ظاهرة على الحق لا يضر بها من خذلها حتى تقوم الساعة.

وإنَّا راجعنا تاريخ المسلمين في سعادتهم وشقائهم وارتفاعهم وانحطاطهم وجدنا ذلك يرتبط ارتباطا متينا بقيام العلماء بواجبهم أو قعودهم عما فرضه الله وأخذ به الميثاق عليهم. ولهذا فنحن ندعو العلماء كلهم إلى أن يذكروا هذا الميثاق وان لا ينبذوه وراء ظهورهم، وأن يبادر كل ساكت وقاعد إلى التوبة والاصلاح والبيان. فقد علموا قول الله تعالى: «وإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ» «إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الكِتَابِ أُولَئِكَ

يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُون ، إلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبيَّنُوا فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمِ». ونحن نحمد الله فقد تجاوبت أصوات العلماء بالاصلاح الاسلامي من كل ناحية، وقد كان من أعظم ذلك ارتفاع صوت الأزهر كما نشرنا، في الجزء الماضي من مجلة (الشهاب) وقد كنا نشرنا في جزء ربيع الثاني من العام الماضي الفتوى التي أصدرها عشرون عالما من علماء طرابلس الغرب في وجوب الغاء ما يستعمله أصحاب الطرق من المشي على الفحم المصهور وابتلاع العقارب والأفاعي والحشرات السامة وطعن أجسادهم وثقبها بالآلات الحادة. وقدموا في ذلك مطلبا لحكومة البلاد وعملت على تنفيذه، ثم اطلعنا على عريضة مؤرخة بربيع الأول من العام الماضي قدمها نحو الثلاثين عالما من علماء المغرب الأقصى من مدرسين بجامع القرويين وغيرهم إلى جلالة مولانا السلطان (سيدي محمد) أيده الله يشتكون إليه ما كان من مخالفة ما تقدم من أمره بمنع بدع كل الطوائف المبتدعة كطائفة العيسوية وغيرهم، ويرغبون من جلالته اصدار أوامره بزجر المجرمين المخالفين فصوت العلماء بالاصلاح الاسلامي والحمد لله قد ارتفع من مصر وطرابلس والجزائر والمغرب الأقصي وما بقي ساكنا إلا جامع الزيتونة، فلا تسمع له همسا.

لقد ارتفعت الشكوى في الصحف التونسية هذه المدة الأخيرة من بلدان عديدة من القطر التونسي الشقيق بالبدع والمناكر التي يأتيها الطرقيون به. والفضائح التي ارتكبها بعضهم وسيق من أجلها إلى العدلية كما يساق المجرمون، ووجهت سؤالات صريحة إلى العلماء في حكم الاسلام في ذلك كله. وعلماء جامع الزيتونة وشيوخ الفتوى فيه وشيخا الاسلام منهم ـ واجمون ساكتون كأن الأمر لا يعنيهم وكأن آيات الله لم تطرق آذانهم، فأين انتم أيها الشيوخ، وأين إيمانكم؟ لقد سئلتم عن رفض الشريعة الاسلامية بسبب التجنس ذلك الرفض المخرج عن الاسلام فسكتم، وقال الناس انكم خفتم على مناصبكم وها أنتم اولاء تسألون اليوم عن البدع والمنكرات الفاشية في المسلمين باسم الدين، تنكر البدع التي أماتت ضمائرهم وخدرت عقولهم، وجمدت أفكارهم وأفسدت أخلاقهم وأضاعت أموالهم، وسلبتهم حقيقة دينهم، وتركتهم بلاء على أنفسهم. وفتنة لغيرهم، فهل أنتم اليوم أيضا ساكتون، وبالتخويف على مناصبكم معتذرون؟

اننا ندعوكم بكلمة الله إلى الصدع بالحق وانقاذ المسلمين، فان أجبتم فذلك الظن بكم، والله معكم ولن يتركم أعمالكم، وان أبيتم فعليكم إثم الهالكين وحسب المسلمين رب العالمين[1].

عبد الحميد بن باديس

رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

«المتخرج من جامع الزيتونة» عمره الله

(1) البصائر: السنة 1 العدد الاول ـ الجمعة 26 ذي الحجة 1354 هـ ـ 20 مارس 1936 م.

شيخ الاسلام بتونس

يقاوم السنة، ويؤيد البدعة، ويغري السلطة بالمسلمين!!

نطق (شيخ الاسلام) ـ والحمد لله ـ بعد سكوت مألوف منذ السنين الطوال، وان كان أتى بما لا يرضي الله ورسوله، والحق ودليله، فقد نطق على كل حال، ولقد كان نطقه متوقعاً لدينا. فقد كان المقال المنشور بالعدد الحادي عشر من (البصائر) الموجه إلى علماء الزيتونة عامة وشيخي الاسلام به خاصة، قنبلة وقعت وسط أولئك النائمين والمتناومين أزعجتهم في مراقدهم ونبهت من كان غافلا عنهم من الناس، حتى لقد تسابق الناس إلى ذلك العدد يطلبونه بأضعاف ثمنه كما أخبرني تلامذتي الذين رجعوا من تونس لتعطيل القراءة بجامع الزيتونة بسبب البلاغ المشهور وما لحق تلامذة الجامع من سجن وتغريب.

اننا نشكر لشيخ الاسلام المالكي هبوطه إلى الميدان، وان كان هبط إليه هبوط المغيظ المحنق الذي أنساه الغيظ والحنق ما يناسب مقامه من التحري والاتزان، فتعثر في أذيال العجب والتعظم عثرات أهوت به مرات في مهاوي الخطأ والتناقض حتى تردى في هوة إذاية أنصار السنة باللسان، ومحاولة إذايتهم بيد العدوان.

شيخ الاسلام يقاوم السنة ـ ويؤيد البدعة ـ ! ويغري (السلطة) بالمسلمين!! هذا ـ والله عظيم وان كان القارئ يود أن يعرف من هو هذا الذي تحلى بهذا اللقب وأتى بهذه الشنع التي لا يأتي بها من ينتمي انتماء صادقاً للاسلام من عامة المسلمين

فكيف بشيخ الاسلام؟ نعم كل أحد يتعجب نهاية العجب أن يصدر هذا من شيخ الاسلام. ويزيد كاتب هذه السطور عجبا آخر فوق عجب كل أحد ان شيخه وأستاذه وصديقه الشيخ الطاهر بن عاشور هو الذي يأتي بهذا الباطل ويرتكب هذا الذنب.

انني امرؤ جبلت على حب شيوخي وأساتذتي وعلى احترامهم إلى حد بعيد، وخصوصاً بعضهم، وأستاذي هذا من ذلك الخصوص، ولكن ماذا أصنع اذا ابتليت بهم في ميدان الدفاع عن الحق ونصرته؟ لا يسعني وأنا مسلم أدين بقوله تعالى: «**قُلْ إنْ كانَ آبَاؤكُمْ وأبْنَاؤكُمْ وإخْوَانُكُمْ وأزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا، أحَبَّ إلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأتِيَ اللهُ بِأمْرِهِ. وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِين**»، إلا مقاومتهم ورد عاديتهم عن الحق وأهله.

دعوني ـ يا قرائي الأفاضل ـ أحدثكم عن شيء من حقيقة هذا الرجل كما عرفته وعن علاقتي به وأثره في حياتي فان هذا وفاء لحق تلك الصحبة والاستاذية يهوّن عليَّ ما أجابهه به بعد.

عرفت هذا الأستاذ في جامع الزيتونة، وهو ثاني الرجلين اللذين يشار إليهما بالرسوخ في العلم والتحقيق في النظر والسمو والاتساع في التفكير أولها العلامة الاستاذ شيخنا (محمد النخلي) القيرواني رحمه الله، وثانيهما العلامة الاستاذ شيخنا (الطاهر بن عاشور) وكانا كما يشار إليهما بالصفات التي ذكرنا يشار إليهما بالضلال والبدعة وما هو أكثر من ذلك لأنهما كانا يحبذان آراء الأستاذ (محمد عبده) في الإصلاح ويناضلان عنها ويبثانها فيمن يقرأعليهما وكان هذا مما استطاع به الوسط الزيتوني أن يصرفني عنهما، وما تخلصت من تلك البيئة الجامدة واتصلت بهما حتى حصلت على شهادة العالمية ووجدت لنفسي حرية الاختيار. فاتصلت بهما عامين كاملين كان لهما في حياتي العلمية أعظم الأثر على أن الاستاذ ابن عاشور اتصلت به قبل نيل الشهادة بسنة فكان ذلك تمهيداً لاتصالي الوثيق بالأستاذ النخلي. وان أنس فلا أنسى دروساً قرأتها من ديوان الحماسة على الأستاذ ابن عاشور، وكانت من أول

ما قرأت عليه فقد حببتني في الأدب والتفقه في كلام العرب وبث فيّ روحاً جديداً في فهم المنظوم والمنثور وأحيت مني الشعور بعز العروبة والاعتزاز بها كما اعتز بالاسلام.

مات الأستاذ النخلي على ما عاش عليه، وبقي الأستاذ ابن عاشور حتى دخل سلك القضاء فخبت تلك الشعلة وتبدلت تلك الروح فحدثني من حضر دروسه في التفسير انه ـ وهو من أعرف انكاره على الطرق اللفظية وأساليبها ـ قد أصبح لا يخرج عن المألوف في الجامع من المناقشات اللفظية على طريقة عبد الحكيم في محاكاته وطرائق أمثاله وبقي حتى تقلد خطة شيخ الإسلام، ووقف هو وزميله الحنفي في مسألة التجنيس المعروفة منذ بضع سنوات، ذلك الموقف حتى أصبح اسمه لا يذكر عند الأمة التونسية إلا بما يذكر به مثله. وها هو اليوم يتقدم بمقال نشره بجريدة (الزهرة) في عدد يوم الاثنين الرابع عشر من هذا الشهر المحرم يقاوم فيه السنة ويؤيد فيه البدعة ويغري السلطة بالمسلمين.

فهل ابن عاشور هذا الملقب بشيخ الاسلام، هو ابن عاشور أستاذي الذي أعرف ؟ لا ! ذلك رجل آخر مضي قضى عليه القضاء وأقبرته المشيخة، وقد أديت له حقه بما ذكرته به. وهذا مخلوق آخر ليس موقفه اليوم أول مواقفه ولا أحسبه يكون آخرها. وانني لا أود أن يكون آخرها. فإن المسلمين اليوم بأشد الحاجة إلى معرفة ما ينطوي عليه مثله ممن ينتحلون ألقاباً مخترعة في الإسلام. ولا يفضحهم مثل مقال هذا الرجل.

وموعدنا بالرد عليه العدد الآتي إن شاء الله، والله المستعان[1].

ـ 2 ـ

سئل فضيلته عن حكم قراءة القرآن عند تشييع الجنازة وحول الميت، وحول قبره عند دفنه، فأجاب بقوله: «ان السنة في المحتضر وفي تشييع الجنازة وفي الدفن هو

---

(1) البصائر: السنة 1 العدد 16 ـ 2 صفر 1355 هـ ـ 24 افريل 1936 م.

الصمت للتفكر والاعتبار. فإذا نطق الحاضر فليكن نطقه بالدعاء للميت، بالمغفرة والرحمة فإن دعوة المؤمن لأخيه بظهر الغيب مرجوة الإجابة. وأما قراءة القرآن عن الميت حين موته وحين تشييع جنازته وحين دفنه فلم تكن معمولاً بها في زمان رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وزمان الصحابة، اذ لم ينقل ذلك في الصحيح من كتب السنة والأثر مع توفر الدواعي على نقله لو كان موجودا. الا الأثر المروي في قراءة سورة يس عند رأس الميت، عند موته على خلاف فيه، ولهـذا كـان ترك القراءة هو السنة وكان أفضل من القراءة في المواطن الثلاثة المذكورة».

هذه هي السنة وقد بينها أوضح تبيين، وعللها أحسن تعليل، ثم انظر إليه كيف أخذ يقاومها فقال: «وحينئذ فتكون قراءة القرآن في تلك المواطن إما مكروهة وإما مباحة غير سنة، فتكون مندوبة في جميعها وإما مندوبة في بعضها دون بعض».

إذا كان ترك القراءة هو السنة، فالقراءة قطعا بدعة اذ ما فعله النبي ﷺ من القربات ففعله سنة وما تركه مما يحسب قرابة مع وجود سببه فتركه هو السنة وفعله قطعاً بدعة. والقراءة في هذه المواطن الثلاثة التي حسب انها قربة قد وجد سببها في زمنه فمات الناس وشيع جنائزهم وحضر دفنهم، ولم يفعل هذا الذي حسب ـ اليوم ـ قربة ومن المستحيل ـ شرعاً ـ أن يترك قربة مع وجود سببها بين يديه ثم يهتدي إليها من يجيء من بعده ويسبق هو إلى قربة فاتت محمداً ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وأصحابه والسلف الصالح من أمته. ولا يكون الإقدام على إحداث شيء للتقرب به مع ترك النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ له مع وجود سببه الا افتئاتاً عليه وتشريعاً من بعده وادعاءً ـ ضمنياً ـ للتفوق عليه في معرفة ما يتقرب به والحرص عليه، والهداية إليه، فلن يكون فعل ما تركه ـ والحالة ما ذكر ـ من المباحات أبدا بل لا يكون الا من البدع المنكرات. فبطل قوله: «واما مباحة غير سنة».

بعد هذه المقاومة بالباطل فرع عليها مقاومة بالتناقض فقال «فتكون مندوبة في جميعها واما مندوبة في بعضها».

أفيجهل أحد أن المباح هو ما استوى فعله وتركه وان المندوب هو ما نرجح فعله على تركه. أو ان المباح من حيث ذاته غير مطلوب الفعل ولا مطلوب الترك، وان

المندوب مطلوب الفعل فكيف يتصور ان القراءة اذا كانت مباحة تكون مندوبة في الجميع أو في البعض، أم كيف يتفرع الضد عن ضده؟؟ ولما ثبت ان ترك القراءة هو السنة وان القراءة بدعة فأقل ما يقال فيها انها مكروهة، ولا خلاف بين المالكية ، ان الكراهة هي مذهب مالك وجمهوز أصحابه، وقد نقل فضيلته سماع أشهب من العتبية قال: «سئل مالك عن قراءة يس عند رأس الميت، فقال: ما سمعت بهذا وما هو من عمل الناس»، فهذا تصريح منه بأنه رده لأنه محدث ليس عليه عمل السلف من الصحابة والتابعين وأتباع التابعين.

وإذا كان هذا قوله فيما جاء فيه أثر وهو قراءة يس عند رأس الميت فغير هذا الموطن مما لا أثر فيه، أولى وأحرى بالكراهة. والتعليل بأنه ليس عليه عمل الناس يفيد أن مجرد فعل القراءة مكروه لأنه عمل مخالف لعملهم دون التفات إلى أنه اعتقد ان ذلك سنة أو لم يعتقد. اذ ما فعله الا وهو يعتقد انه قربة في تلك المواطن فيكون قصد القربة بما لم يجعله الشارع قربة، وهذا مقتض للكراهة، فقصد القربة وحده كاف في الكراهة دون حاجة إلى اعتقاد انه سنة وبهذا بطل تأويل من تأول كلام مالك بمن قصد انه سنة.

وبعد أن ثبت ان قراءة القرآن العظيم في تلك المواطن بدعة، وانها مكروهة فهل هي كراهة تنزيه أو تحريم؟ ذهب الامام الشاطبي إلى أن الكراهة حيثما عبر بها في البدعة فهي كراهة تحريم على تفاوت مراتبها في ذلك وساق على ذلك جملة من الأدلة الكافية في الباب السادس من كتابه الاعتصام، فأجمل فضيلته في الإشارة إلى مذهب الشاطبي اجمالاً أظهره به مظهر من تكلم في خصوص هذه المسألة فتوهم وتقوّل على الإمام فقال: «وليس المراد بالكراهة الحرمة كما توهمه الشاطبي في كتاب الاعتصام مستنداً إلى أن الإمام قد يعبر بالكراهة ويعني بها الحرمة لأن كلام مالك لم يقع فيه لفظ الكراهة بل هي من تعبير فقهاء مذهبه تفسيراً لمراده. لأن علماء مذهبه متفقون على أنَّ مراد مالك من كلامه في المدونة وفي السماع هو الكراهة بالمعنى المصطلح عليه في الفقه، ولأن دليل التحريم لا وجود له فحمل كلام مالك عليه تقول عليه والاقدام على التحريم ليس بالهين اذ لم تقم عليه الأدلة الصريحة».

لم ينصف فضيلته الشاطبي في الصورة التي صور بها كلامه وفيما رواه به. وكل ذلك لأجل أن يتوصل إلى تهوين ارتكاب بدعة القراءة في المواطن الثلاثة لأنها من المكروه الذي لا يعاقب على فعله ونحن نذكر فيما يلي ما هو تلخيص لبعض ما استدل به الشاطبي وزيادة عليه:

ان من ابتدع مثل هذه البدعة التي هي تقرب فيما لم يكن قربة كأنه يرى ان طاعة الله بقيت تنقص هذه الشريعة فهو يستدركها وان محمداً ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ خفيت عليه قربة هو اهتدى إليها أو لم تخف عليه ولكنه كتمها. وهذه كلها مهلكات لصاحبها فلا يكون ما أوقعه فيها من ابتداع تلك التي يحسبها قربة الا محرما. وقد قال مالك فيما سمعه من ابن الماجشون: «من ابتدع في الاسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم ان محمداً ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ خان الرسالة لأن الله يقول: «**ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ**» فما لم يكن يومئذ ديناً فلا يكون اليوم دينا»، هذا من جهة النظر المؤيد بكلام مالك. وأما من جهة الأثر فقد جاء في صحيح مسلم عن جابر ابن عبد الله أن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ كأن يقول في خطبته: «**أما بعد فان خير الحديث كتاب الله وخير الهدى هدي محمد وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة**» وفيه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: «**من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الاثم آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا**». ووجه الدليل من الحديثين انه سمّىَ في الحديث الأول البدعة شراً وضلالاً فعم ولم يخص، وأثبت الاثم لمرتكب الضلالة والدَّاعي إليها والاثم لا يكون إلا في الحرام فيكون النظر هكذا: كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة يؤثم صاحبها، فكل بدعة يؤثم صاحبها، وكل ما يؤثم عليه فهو حرام: فكل بدعة حرام.

وقد دخلت بدعة اختراع القرب في قوله: «وكل بدعة ضلالة» بمقتضى عموم اللفظ. ويدل على دخولها ما ثبت في الصحيح ان النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ رد على من قال أما أنا فأقوم الليل، ولا أنام، وعلى من قال أما أنا فلا أنكح النساء، وعلى من قال أما أنا فأصوم ولا أفطر، رد عليهم بقوله: «**من رغب عن سنتي فليس**

مني» ولم يكن ما التزموه الا فعل مندوب في أصله أو ترك مندوب ومع ذلك رد عليهم بتلك العبارة التي هي أشد شيء في الانكار فكل من اراد أن يتقرب بما لم يكن قربة فهو مردود عليه بمثل هذه العبارة الشديدة في الانكار. ويدل أيضا على دخولها ما ثبت في الصحيح عن قيس بن حازم قال: دخل رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ على امرأة من قيس يقال لها زينب فرآها لا تتكلم فقال: ما لها، فقال: حجت مصمتة، قال لها: **«تكلمي فإن هذا لا يحل، هذا من عمل الجاهلية»** فهذه أرادت أن تتقرب بما ليس قربة فجعل فعلها من عمل الجاهلية وقال: إنه لا يحل فكل مريد للتقرب بما لم يكن قربة فيقال في فعله ما قيل في فعلها. ووجه الدليل من الحديثين ان التقرب بما ليس قربة أنكر أشد الانكار وقيل فيه لا يحل، وقيل فيه من عمل الجاهلية فلا يكون بعد هذا كله الا ضلالا فيدخل ـ قطعا ـ في عموم قوله: «وكل بدعة ضلالة» فيثبت له التحريم بالنظر المتقدم (1).

ـ 3 ـ

ودخول بدعة التقرب بما ليس قربة مثل القراءة في المواطن الثلاثة، قد فهمه مالك وجاء في كلامه ما هو صريح في ذلك. فروي في الموطأ ـ حديث أن النبيَّ ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ رأى رجلاً قائماً في الشمس فقال: ما بال هذا؟ فقالوا: نذر أن لا يتكلم ولا يستظل من الشمس ولا يجلس ويصوم، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : **«مروه فليتكلم وليستظل وليجلس وليتم صومه»** قال مالك: أمره أن يتم ما كان لله طاعة (وهو الصيام) ويترك ما كان لله معصية. وروى قوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : **«من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه»**، قال مالك: معنى قوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ **«من نذر أن يعصي الله فلا يعصه»** أن ينذر الرجل أن يمشي إلى الشام أو إلى مصر أو إلى الربذة.

فقد جعل مالك القيام للشمس وترك الكلام ونذر المشي إلى الأماكن المذكورة معاصي، وفسر لفظ المعصية في الحديث بها، مع انها في نفسها أشياء

(1) البصائر: السنة 1، العدد 17، الجمعة 9 صفر 1355 هـ 1 ماي 1936 م.

مباحات، لكنه لما أجراها مجرى القربة ـ وليست قربة ـ حتى نذر التقرب بها وصارت معاصي لله وليس سبب المعصية انه نذر التقرب بها حتى انه لو فعلها متقرباً دون نذر لكانت مباحة، بل مجرد التقرب بها وليست هي قربة موجب لكونها معصية عند مالك. والدليل على ذلك ما حكاه ابن العربي عن الزبير بن بكار قال: سمعت مالكاً بن أنس، وأتاه رجل فقال: يا أبا عبد الله من أين أحرم؟ قال: من ذي الحليفة من حيث أحرم رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ. فقال اني أريد أن أحرم من المسجد من عند القبر. قال: لا تفعل فاني أخشى عليك الفتنة. فقال الرجل: وأي فتنة في هذه؟ انما هي أميال أزيدها، قال مالك: وأي فتنة أعظم من أن ترى انك سبقت إلى فضيلة قصر عنها رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ اني سمعت الله يقول: «**فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**».

فهذا الرجل لا نذر في كلامه وقد أراد الإحرام ـ وهو في نفسه عبادة ـ من موضع فاضل لا بقعة أشرف منه وهو مسجد رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وموضع قبره. وأراد أن يزيد أميالا تقرباً لله تعالى بإيقاع الإحرام بذلك الموضع الشريف وزيادة التعب بالأميال. ومع ذلك رده مالك عن ذلك وبيّن له قبح فعله بما يراه لنفسه من السبق وقرأ عليه الآية مستدلاً بها وما كان مثل هذا داخلا في الآية عنده الا وهو يراه حراما.

فهذا هو مستند الشاطبي في فهم كلام مالك والحكم بأنه يرى في كل بدعة تقرب بما ليس قربة الحرمة لا كراهة التنزيه. فلم يكن متوهما ولا متقولا ولا مقدما على التحريم بدون دليل.

وقد بان مما تقدم ان الحكم على بدعة التقرب بما ليس قربة محكوم عليها بالضلالة والحرمة وان ذلك هو مذهب امام دار الهجرة، وبعد ثبوت الحق بالدليل، سقط كل قال وقيل. ونزيد على ذلك الآن ما قاله فقهاؤنا المتأخرون في بدع الجنائز من القراءة ونحوها:

«سئل أبو سعيد بن لب كبير فقهاء غرناطة في عصره عما يفعله الناس في جنائزهم حين حملها من جهرهم بالتهليل والتصلية والتبشير والتنذير ونحو ذلك على صوت واحد أمام الجنازة. كيف حكم ذلك في الشرع؟. فأجاب: السنة في اتباع الجنائز الصمت والتفكر والاعتبار. خرَّج ابن المبارك ان النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ كان اذا اتبع جنازة أكثر الصمت وأكثر حديث نفسه. قال فكانوا يرون أنه يحدث نفسه بأمر الميت وما يرد عليه وما هو مسؤول عنه. وذكر ذلك ان مطرفا كان يلقي الرجل من اخوانه في الجنازة وعسى أن يكون غائباً فمايزيد على التسليم يعرض عنه اشتغالا بما هو فيه فهكذا كان السلف الصالح.

واتباعهم سنة ومخالفتهم بدعه: وذكر الله والصلاة على رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ عمل صالح مرغب فيه في الجملة لكن للشرع توقيت وتحديد في وظائف الأعمال، وتخصيص يختلف باختلاف الأحوال والصلاة وان كانت مناجاة الرب، وفي ذلك قرة عين العبد، تدخل في أوقات **تحت ترجمة الكراهة والمنع**. والله يحكم ما يريد». اهـ. وقال أبو سعيد في جواب آخر: ان ذكر الله والصلاة على رسوله عليه السلام من أفضل الأعمال وجميعه حسن لكن للشرع وظائف وقَّتها وأذكار عيَّنها في أوقات وقتها، فوضع وظيفة موضع أخرى بدعة، واقرار الوظائف في محلها سنة، وتبقي وظائف الأعمال في حَمل الجنائز انما هو الصمت والتفكر والاعتبار. **وتبديل هذه الوظائف بغيرها تشريع**. ومن البدع في الدين. اهـ.

وقال أبو سعيد في جواب آخر: المنقول عن السلف الصالح ـ رضي الله عنهم ـ في المشي مع الجنائز هو الصمت والتفكر في فتنة القبر وسؤاله وشدائده وأهواله. وكان أحدهم اذا قدم من سفره فيلقاه أحد اخوانه بين يدي الجنائز لم يزد على السلام اقبالا على الصمت، واشتغالا بالتفكر في أحوال القبر، والخير كله في اتباعهم وموافقتهم في فعل ما فعلوه. وترك ما تركوه، اهـ.

نقل هذا كله الوانشريسي في المعيار وهذه هي فتوى أبي سعيد بن لب في موضوعنا المنطبقة على كل ما أحدث من الأوضاع بقصد التقرب وليست قربة في هذه المواضع وان كانت حسنة في أصلها وقد رأيت انكاره لها، فترك هذا كله

فضيلة، ونقل كلاما آخر لأبي سعيد خارجاً عن الموضوع كما سنبينه عندما ننتهي إليه.
ونعود الآن إلى بقية ما قاله فقهاؤنا عليهم الرحمة والرضوان.

وسئل الامام عبد الله العبدوسي ما حكم القراءة بين يدي الجنازة، وكذلك ما يفعله الفقراء (هم الإخوان الطرقيون) أمامها. فأجاب: وكذلك يجب قطع الفقراء من الذكر أمامها على ما جرت به العادة لأنه بدعة ومباهاة. ويقال لولي الجنازة ما تعطيه للفقراء تأثم عليه. أعطه للمساكين صدقة عن وليك الميت فذلك أنفع وأبقى لكما إلى الآخرة. والجنازة على الاعتبار والتذكير والاستبصار والاقبال على أمر الآخرة. وكان السلف الصالح - رضي الله عنهم - يبكون ويحزنون حتى لا يدري الغريب بينهم ولي الميت من غيره، اهـ. نقلها من المعيار. وأنت تراه كيف أفتى بوجوب تغيير هذه البدعة المنكرة وجعل ما يعطى للقائمين بها جالباً للاثم على من أعطى. ذلك لأنه أعان على المنكر. والمعين على المنكر كفاعله.

وعقد الوانشريسي فصلاً قبيل نوازل النكاح ذكر فيه البدع فجزم ببدعية هذه المحدثات عند الجنائز فقال: ومنها الذكر الجهري أمام الجنائز فان السنة في اتباع الجنازة الصمت والتفكر والاعتبار وهو فعل السلف. واتباعهم سنة، ومخالفتهم بدعة. وقد قال مالك: لن يأتي آخر هذه الأمة بأهدى مما كان عليه أولها. اهـ. فهذه أقوال الفقهاء أهل الفتوى الجارية على أصل مذهب مالك الجاري على مقتضى تلك الأدلة التي بينا، وعليها بنينا(*).

- 4 -

لو أردنا الاقتصار في المسألة على ما أقمناه من الاستدلال عليها. ثم ما ذكرنا من أنها قول مالك ومشهور مذهبه. وما نقلنا من فتوى أهل الفتوى من المتأخرين - لكفانا ذلك في بيان الحق بدليله والتأيد بالسابقين إليه. ولكن رأينا في ما نقله فضيلته إبهاماً وإيهاماً وتحريفاً، فوجب ان نتتبعه بالبيان.

(*) البصائر: السنة 1، العدد 18، الجمعة 16 صفر 1355 هـ، 8 ماي 1936 م.

قال فضيلته: (وذهب اللخمي وابن يونس وابن رشد وابن العربي والقرطبي وابن الحاجب وابن عرفة من أئمة المالكية إلى أن القراءة مستحبة في المواطن الثلاثة، اذا اريد اهداء ثوابها إلى الميت).

هنا مسألتان احداهما هي انتفاع الميت باهداء القراءة إليه هكذا على الاطلاق، وهذه ليست محل النزاع. والأخرى هي قراءة الجماعة على الميت عند موته وعند رفعه وعند دفنه على قبره. وهذه هي محل الكلام. وكلامه يوهم بصريحه ان هؤلاء الأئمة كلهم يستحبون القراءة في المواطن الثلاثة، وقد كان عليه أن يبين مأخذه لا أن يلقي به على هذا الاهمال والاجمال. والذين ذكرهم الموافق في مسألة قراءة يس عند موته هم ابن حبيب وابن رشد وابن يونس واللخمي ولم يقل في المواطن الثلاثة كما قال فضيلته واما ابن العربي والقرطبي فجاءا في كلام للعبدوسي هكذا: (واما القراءة على القبر فنص) ابن رشد في الأجوبة، وابن العربي في أحكام القرآن له، والقرطبي في التذكرة، على انه ينتفع بالقراءة أعني الميت سواء قرأ على القبر أو قرأ في البيت وبعث الثواب له أو في بلد إلى بلد. وأما شهاب الدين القرافي في القواعد فنص على أنه لا ينتفع بذلك إلا إذا قرأ على القبر مشافهة وهو قول خارج عن المذهب». نقل هذه الفتوى من المعيار ونقلها كنون. وكلام هؤلاء الأئمة انما هو في أن القراءة يصل ثوابها دون توقف على القراءة على القبر خلافا لمن شرط ذلك وهو القرافي وليس هو فيما اتخذ سنة للتقرب من القراءة عند دفن الميت على قبره الذي هو موضوعنا. والعبدوسي الذي نقل هذا عنهم هو الذي أفتى ـ كما قدمنا ـ بما هو مذهب السلف من السكوت والاعتبار. فلم يفهم من كلام هؤلاء الأئمة ـ قطعا ـ خلاف ما أفتى به. وليس عندي مختصر ابن الحاجب ولا مختصر ابن عرفة حتى أعرف ما قالا. وأحسب أنه لو كان لهما قول مقابل لمذهب مالك لذكره شراح مختصر خليل وحواشيهم.

ثم قال فضيلته: (وذهب الشافعي وأحمد رحمهما الله ووافقهما عياض والقرافي من المالكية وبعض الحنفية إلى استحباب القراءة عند القبر خاصة) وكان عليه ـ أيضاً ـ أن يذكر مأخذه وأحسبه استند في هذا النقل المجمل المبهم على ما نقله كنون والرهوني والحطاب من كلام القرافي، وقد وقع منهم اختصار في نقله أدى إلى

اضطراب فيه، فقال الرهوني نقلا عن القرافي: «مذهب أحمد بن حنبل وأبي حنيفة ان القراءة يحصل ثوابها للميت اذا قرئ عند القبر حصل للميت أجر المستمع» فأوهم ان القراءة عند القبر شرط في مذهبهما ووقع غيره في هذا الوهم فنقل عنهما التفريق بين القراءة عند القبر وعند غيره. ونحن ننقل لك كلام القرافي من الفرق الثاني والسبعين بعد المائة لتتجلى لك حقيقة مذهبهما وموضوع كلامهما.

قال القرافي: «وقسم اختلف فيه هل فيه حجر (أي منع للعامل من نقله لغيره) أم لا. وهو الصيام والحج وقراءة القرآن فلا يحصل شيء من ذلك للميت عند مالك والشافعي رضي الله عنهما. وقال أبو حنيفة وأحمد بن حنبل يصل ثواب القراءة للميت.

فأنت ترى أن الشافعي موافق لمالك خلافا لمازعمه فضيلته، وان موضوع الكلام في وصول القراءة للميت لا في اتخاذها قربة في المواطن الثلاثة. خلافا لما أوهمه الرهوني وتوهمه غيره وخرج به فضيلته عن الموضوع.

ثم قال القرافي في الفرق المذكور: (ومن الفقهاء من يقول إذا قرئ عند القبر حصل للميت اجر المستمع. وهو لا يصح أيضاً لانعقاد الاجماع على أن الثواب، يتبع الأمر والنهي فما لا أمر فيه ولا نهي لا ثواب فيه بدليل المباحات وارباب الفترات. والموتى انقطع عنهم الأوامر والنواهي. وإذا لم يكونوا مأمورين لا يكون لهم ثواب وان كانوا مستمعين. الا ترى ان البهائم تسمع أصواتنا بالقراءة ولا ثواب لها لعدم الأمر لها بالاستماع فكذلك الموتى. والذي يتجه ان يقال ولا يقع فيه خلاف انه يحصل لهم بركة القراءة لا ثوابها كما تحصل لهم بركة الرجل الصالح يدفن عندهم أو يدفنون عنده فان البركة لا تتوقف على الأمر».

فالقرافي بعد ما أيد مذهب مالك ورد على مخالفه ثم على رأي بعض الفقهاء اختار حصول البركة بالقراءة للأموات عند قبورهم، وهو رأي ـ كما قال العبدوسي فيما تقدم ـ خارج عن المذهب، ولسنا نكتفي في رده بمجرد انه خارج عن المذهب بل نرده بأن تحصيل البركة للأموات من خير ما يتقرب به العبد لربه في نفع اخوانه الذين سبقوه إلى الدار الآخرة وما كانت لتفوت النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ

حتى نستدركها عليه فقد حضر الدفن للأموات ولقد زار أهل المقابر وما جاء عنه إلا الدعاء، وما لم يجيء عنه ويدعى انه قربة فهو البدعة وكل بدعة ضلالة إلى آخر الاستدلال المتقدم.

وأما ما نسبه للقاضي عياض فأصله في شرحه على مسلم في حديث القبرين اللذين مر بهما النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فقال: «**اما أنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، اما أحدهما فكان يمشي بالنميمة وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله، ثم دعا بعسيب رطب فشقه باثنين ثم غرس على هذا واحدا وعلى هذا واحدا. ثم قال لعله أن يخفف عنهما ما لم ييبسا**».

ونقل الأبي كلام عياض فقال: «وأخذت منه تلاوة القرآن على القبر لأنه اذا رجي التخفيف بتسبيح الشجر فالقرآن أولى» فنقول ان هذا من القياس في العبادات وهو مردود في مذهب مالك، والنبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ واصحابه رضي الله عنهم، كانوا يحفظون القرآن فلو ان قراءة القرآن للتخفيف على الأموات مشروعة لكان النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ قرأ وأمرهم بالقراءة لكنه لم يقرأ ولم يأمرهم بالقراءة واقتصر على وضع فلقتي العسيب. ومعاذ الله أن يترك الأحرى إلى غير الأحرى كما يقتضيه التمسك بالقياس وأما أمر العسيب والتخفيف به ما دام رطبا فهم كما قال الإمام المازري: «فلعله أوحى إليه أن يخفف عنهما ما داما رطبين ولا وجه يظهر غيره» وكما قال الأبي: «والأظهر أنه من سر الغيب الذي أطلعه الله عليه» ولا يخفى أن كلام هذين الإمامين مما يرد ذلك القياس، لأن القياس حيث يكون ينبني على العلة المشتركة ومبنى ما هنا على سر غيبي خاص.

* * *

عرض فضيلته في القسم الثاني من كلامه إلى حكم تغيير بدعة القراءة في المواطن الثلاثة فقال: «أقصى حكمها في النهي أن تكون من قبيل المكروه والمكروه لا يغير على فاعله».

ونحن قد بينا بالاستدلال المتقدم ان بدعة التقرب بما لم يشرع التقرب به في موطن من المواطن لا تكون الا حراما وان كراهتها عند مالك كراهة التحريم فيجب تغييرها كما يجب تغيير المحرمات.

وعلى ذلك جاءت فتوى العبدوسي المتقدمة: «وكذلك يجب قطع الفقراء من الذكر أمامها على ما جرت به العادة» ثم لا نسلم له أن المكروه كراهة التنزيه لا يغير على فاعله. فان المكروه منهي عنه ومن نهى عن شيء فقد أنكره فهو داخل في المنكر على قدر درجته في النهي عن المكروه. وقال القرافي في أواخر فروقه: «المسألة الخامسة من التأدية إلى احداهما والمضار والمفاسد مطلوب زوالها ولا تزال الا بالتغيير كل بحسب منزلته في الضرر والفساد.

والمكروه منهي عنه ونحن مأمورون بتبليغ أوامر الله ونواهيه، وقد نص أصحاب حواشي الرسالة وغيرهم انه يستحب الأمر بالمندوب والنهي عن المكروه. وقال القرافي في أواخر فروقه: «المسألة الخامسة المندوبات والمكروهات يدخلها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على سبيل الإرشاد للورع ولما هو أولى من غير تعنيف ولا توبيخ بل يكون ذلك من باب التعاون على البر والتقوى» لكن فضيلته لا يريد هذا التعاون الذي قد يدرب الناس على الإنكار فيترقوا فيه إلى ما يضر بنواح معينة فهو لهذا يزعم أن غاية هذه البدع أن تكون مكروهة وان المكروه لا يغير ثم يغري السلطة بالمغيرين!

ثم قال فضيلته ـ مستدلاً على عدم التغيير ـ: «وقد جرى عمل كثير من بلاد الإسلام على اتباع قول الذين رأوا الاستحباب فلأهل الميت الخيار أن يتبعوا السنة أو يتبعوا المستحب».

ومعاذ الله أن يكون الترك هو السنة ويكون الفعل مستحبا. إذ معنى هذا ان سنة النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وطريقته هي ترك المستحب فعاش في جميع حياته تاركاً لهذا المستحب معرضاً عنه زاهداً فيه حتى جاءت الخلوف فأقبلت عليه وتمسكت به فنقول لمن جاء يستفتينا أنت مخير ان شئت تمسكت بسنة محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وهي الترك، وان شئت تمسكت بهذا المستحب الذي أحدثته

الخلوف. لا كلا! ما كان مقابلاً للسنة إلا البدعة. وما كانت البدعة إلا ضلالة إلى آخر الاستدلال المتقدم وقد تقدمت مناقشتنا له فيمن نسب إليهم الاستحباب.

ثم أراد فضيلته أن يستدل على ان ما جرى عليه عمل الناس من الخلافات لا يغير فقال: «قال أبو سعيد بن لب كبير فقهاء غرناطة في عصره وهو القرن الثامن: ان ما جرى عليه عمل الناس وتقادم في عرفهم وعاداتهم ينبغي أن يلتمس لهم مخرج شرعي على ما أمكن من وفاق أو خلاف (أي بين العلماء) إذ لا يلزم ارتباط العمل بمذهب معين أو بمشهور من قول قائل».

ما يجري به عمل الناس ينقسم إلى قسمين قسم المعاملات وقسم العبادات. وقسم المعاملات هو الذي يتسع النظر فيه بالمصلحة والقياس والأعراف وهو الذي تجب توسعته على الناس بسعة مدارك الفقه وأقوال الأئمة والاعتبارات المتقدمة، وفي هذا القسم جاء كلام أبي سعيد هذا وغيره وفيه نقله الفقهاء وأنت تراه كيف يعبر بالعرف والعادة. أما قسم العبادات فإنه محدود لا يزاد عليه ولا ينقص منه فلا يقبل منه إلا ما ثبت عن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فلا يتقرب الا بما تقرب به وعلى الوجه الذي كان تقربه به ومن نقص فقد أخل ومن زاد فقد ابتدع وشرع وذلك هو الظلام والضلال. ومن هذا القسم التقرب بالقراءة في المواطن الثلاثة بعد ما ثبت ان سنة النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ تركها وفيها جاء كلام ابن سعيد الذي نقلناه عنه فيما تقدم. فمن العجيب ـ ولا عجب مع الغرض ـ ان يقلب فضيلته الحال فيهمل كلام أبي سعيد الذي هو في موضوعنا ويأتي بكلام له في موضوع آخر وينزل قوله في قسم المعاملات على ماهومزقسم العبادات.

ثم فرع على ما أبطلناه من رأيه فقال: «وعليه فكل من يتصدى لمنع أقارب الأموات من تشييع جنائزهم بالقراءة فقد أنكر عليهم بغير علم واجترأ عليهم بالتدخل في خاصة أمورهم بدون سبب يحق له ذلك» وإذا ثبت ان ذلك بدعة وضلالة قد أنكرها أهل العلم فمن منع منها منع بعلم. ولو ترك كل مرتكب بدعة ضالة لأن منعه تدخل في خاصة أموره لعم الفساد وغرقت السفينة كما في الحديث المشهور.

ثم بين فضيلته ما هو شأن العالم في الإنكار فقال: «وانما شأن العالم في مثل هذا أن يرغبهم في التأسي بالسنة وبيان أنها الحالة الفضلى بقول لين».

وإذا بان ان هذه بدعة وهي ضلالة فإنها تغير بدرجات التغيير الثلاث فمن استطاع تغييرها باليد فلا يجوز له الاقتصار على اللسان، ثم انا والله لقد وددنا لو ظفرنا بهذا الذي قلت منك يا صاحب الفضيلة وددنا لو انك قمت مرة واحدة من عمرك ـ وأنت شيخ الاسلام ـ فرغبت الناس بالتَّأسِّي بالسنة وبينت انها الحالة الفضلى بقولك اللين، وكلامك العذب الرقيق. ولكن ـ وياللأسف ـ كانت أول قومة قمتها هي قومتك هاته التي نحن في معالجتها ودفع أضرارها وغسل أوضارها.

ثم جاء فضيلته بالداهية الدهياء: «فان هم تجاوزوا ذلك فحق على (ولاة الأمور) في البلدان أن يدفعوا عن أهل المآتم عادية من يتصدى بزعمه لتغيير المنكر دون أن يعلم، **من كل من تزبب قبل أن يتحصرم**».

أرأيت كيف يغري السلطة بالمصلحين أرأيت كيف يستكبر انكار من ينكر البدعة، ويسميه عاديا وهو هو الذي لم ينبس ببنت شفة أمام أي عادية من عوادي الزمان؟.. ليس هذا مقام رد فأرد عليك مثل ما تقدمه. ولكنه مقام ظلم وتحريش وتحقيق نكل الأمر فيه إلى العزيز الحكيم.

إلى هنا ننتهي من البحث الذي بنيناه على النظر والاستدلال لا على مجرد سرد الأقوال. وقد وعد فضيلته بأنه سيتبع فتواه ببيان تأصيل أحكامها ونحن لبيانه هذا من المنتظرين والعاقبة للمتقين(1).

(1) (البصائر) العدد 19 السنة 1، الجمعة 23 صفر 1355 هـ ـ 15 ماي 1936 م.

حول فتوى القراءة على الأموات

لماذا التذييل، بدل التدليل والتأصيل

وعد الشيخ الطاهر بن عاشور في آخر فتواه التي فرغنا من نقضها انه سيتبعها بأدلتها فقال: «هذا حاصل هذا الجواب بما تضمنه البعض من أقوال هذا المذهب أتيت به واقتصرت فيه على ذلك دون تطويل ولا تأصيل، لقصد إحاطة أصناف المستفتين بحكم هذه المسألة. وسأتبعه ببيان تأصيل أحكامه ليزداد أهل النظر فإنهم يحبون أن يلحقوا الفروع بأصولها، ويميزوا عن خليط ثفالها خالص منخولها».

ومعنى هذا انه ذكر الأقوال مجردة ولم يذكر أدلتها من الكتاب والسنة وانه سيذكر أدلة تلك الأقوال ليتميز القوي منها بقوة مدركة من الضعيف لضعف مدركه. وقد قلنا في آخر نقضنا لفتواه: «وعد فضيلته بأنه سيتبع فتواه ببيان تأصيل أحكامها، ونحن لبيانه هذا من المنتظرين».

وكنا ننتظر منه أمرين أحدهما دفاعه عن فتواه ان كان له عنها من دفاع، وثانيهما وفاؤه بما وعد. فأما الثاني فانه لم يكتب فيه حرفا إلى الآن وأنّى له أن يأتي بأدلة من الكتاب والسنة لما يعترف هو نفسه انه بخلاف السنة. واننا نتحداه ونقول له انه لن يستطيع أن يتأتي على بدعة القراءة على الأموات في المواطن الثلاثة بسنة ثابتة من قول أو عمل أو تقرير فليأت بشيء من ذلك ان كان من الصادقين.

وأما الأول فانه حاد فيه عن صريح الدفاع واكتفى فيه بمقال نشرته جريدة الزهرة تحت عنوان (تذييل للفتوى في قراءة القرآن في الجنازة) ولعله اكتفى أيضاً بما كتبه أولئك المجاهيل الذين قمشوا مسائل وأقاويل من غير فهم ولا تطبيق، وبعثروها في مقالات طويلة حالكة سداها البغض والبذاء ولحمتها الخبط والمهاترة، ثم أمضوها بامضاءات مستعارة جبنا عن منازلة من يصارحهم باسمه او لبقية ما من حياء من المجاهرة بذلك السقط والهذر.

فأما إذا كان فضيلته اكتفى بهؤلاء فانه لمزر به أن يكون هؤلاء الذين لا يستطيعون الظهور في كتابة علمية دينية انصاره، ثم كيف يكونون أنصاره وهم يستحون - ان كانوا يستحون - من التظاهر بنصرته؟ لا يا مولانا ان في الدنيا علماء وانه يعز علينا - والله - أن لا يكون من ينصرك الا بمثل ذلك الجهل الظاهر من جاهل مختف وانك ترتاح له وتكتفي به، ونحن من ناحيتنا نربأ بأنفسنا عن تضييع الوقت في مطالعة ما لا يساوي نظرة إليه فضلاً عن الاشتغال بالرد عليه ومن ذا يرضي بمخاطبة من يتستر في موضوع ديني معروف فيه الراد والمردود عليه، فما دين هؤلاء الجبناء المجاهيل وما قيمتهم وما هي النواحي التي تحركهم؟

أما قيمتهم العلمية والاخلاقية فقد عرفناها من كتابتهم واما غيرها فاننا منه مستريبون، واذا كانوا مسلمين حقيقة ومستقلين في ارادتهم فليصرحوا بأسمائهم ان كانوا من أنفسهم واثقين.

وأما اذا كان فضيلته يكتفي بذلك التذييل فها نحن نعرض لنقضه وابطال ما زاده من الباطل فيه بعد بيان ما كان دفعه إليه بدل التدليل الذي عجز عنه بعدما كان وعد به.

* * *

بينما كانت الأمة التونسية - كسائر الأمم الاسلامية - تتألم من المضار التي تلحقها من بدع المآتم التي أساسها بدعة القراءة على الأموات التي تجمع الناس فتنفق

على أكلهم وشربهم الأموال وتبذر الثروات وتثقل الكواهل بالديون ويتعدى على أموال الأيتام ويتحمل الضعيف المحال ما يتركه على أسوء حال.

بينما الأمة التونسية هكذا والمصلحون منها يعالجون حالتها إذا بشيخ الاسلام ورئيس مجلس الشورى المالكي يطلع عليها بفتوى غريبة تقرر تلك البدعة وتؤيدها وتتلمس التأويلات البعيدة لتسويغ ويلاتها، فأعظمت ذلك الأمة التونسية، واستنكرته مثلما أعظمناه نحن واستنكرناه فبادر الصحافي الكبير السياسي المحنك الاستاذ محمد الجعائبي في جريدته (الصواب) ذات الثلاثين سنة في خدمة الأمة التونسية بصدق وثبات وتضحية فكتب مقالا تحت عنوان «فتوى ضد البدع والضلالات والقراءة على الميت وفي الجنائز» ونشر فتوى[1] لشيخنا أبي الفضل المالكي شيخ الجامع الأزهر سابقا رحمه الله مؤرخة بـ 4 ربيع الثاني 1334 هـ. وكانت هذه الفتوى رداً مفحماً على فتوى الشيخ ابن عاشور وكتب الأستاذ الجعائبي تصديرا عليها قال فيه: «فكان جواب الشيخ محررا على أبدع أسلوب قد اقتصر فيه على السؤال دون أن يحاول التحريش أو الاملاء على أولياء الأمر بما يجب اتخاذه من التدابير تاركا ما لله لله وما لقيصر لقيصر» ولا يخفى ما في كلام الأستاذ شيخ الصحافة التونسية من الإنكار والاستهجان تعريضاً بفتوى الشيخ ابن عاشور، وأثر هذا أخذت الأسئلة ترد على شيخ الإسلام لا تستطيع أن تصرح بالإنكار ـ ومن يستطيع مصارحة شيخ الاسلام بالإنكار ـ ولكنها لم تستطع محوه من بين السطور ونحن ننقل من تلك الأسئلة ما يفهم منه ذلك الإنكار وما يصور الحالة المنكرة التي يتألم إخواننا التونسيون ـ مثلنا ـ منها ويريد شيخ الاسلام بفتواه الغريبة تقريرها.

سأل الشيخ مصطفى الشنوفي من حمام الأنف، ونشرت سؤاله الزهرة فقال: «ان سؤالنا الذي نطلب إماطة اللثام عن دخيلته وتحقيق ما ينتابه من أحكام هو ما يلي: بعد وضع الحالة التي عليها القراء وكذا الأمكنة والمستمعون، بل قل المتفرجون تحت أعين الباحثين.

وهاك ما كل الناس على اطلاع تام عليه حيث انه متكرر صباحا مساء كل يوم.

(1) نشرت (البصائر) هذه الفتوى في العدد 16.

يموت مسلم فيذهب وليه طائعاً أو تحت تأثير خوف العار لاستئجار جماعة تصدوا لايجار ما يحفظونه من كتاب الله تعالى، بعد المماسكة طبعا وفعلا عندما يقترب أمد المأتم تراهم زرافات بحالة لا نقول انها منفردة اذ هذا ليس من توابع ما نحن فيه الا اننا نريد أن نأخذ بيد الشيخ حفظه الله ونطلعه وما نخاله جاهلاً لكن هذا من باب التذكير فحسب.

جماعة الطرق تتلو أحزاباً بها من الخلط ما لا يخفى مما يكون في غالب الأحيان وفي كثير من الجمل موجبا للتوبة مما تضمنه من الكفر الغير المقصود مع كونه في اعتقادهم يستحق عليه أجزل المثوبات كل هذا مقصود به استمطار الرحمة على جثمان الفقيد.

جماعة القراء تتلو قرآناً يبرأ منه جميع بدور القراء، ما هو شاذ وما هو ليس بشاذ، فترى مدودا لا ندري كم مقياسها، أثلاثة ألفات أم أربعة، بل ربما نقول ولا نرى أنفسنا جازفنا في التعبير انها تبلغ في بعض الأحيان الستة والسبعة على أقل تقدير مع ما يتبع هذا من زلزلة استغفر الله، بل قلقلة في عرف القراءات وهي حسب الاشتهاء لا عند الاقتضاء مع الوقف الذي ما أنزل الله به من سلطان على ان معدل السير في الساعة تبلغ ان كان هناك مأتم ثان مزمع على الحضور فيه العشرة أحزاب في الساعة، اذاً يكتفون في الغالب بأوائل الكلم أو ترخيمها حتى يتسنى لساداتنا القراء انتهاز المأتم الثاني كيلا يفوت. كل هذا مع تفاوت في الصياح تبعاً لمركز الفقيد من حيث الوجاهة وترقب أوفر الجزاء. ولا نريد التعليق على ختم القرآن المزعوم الذى تتفرق فيه الأسفار على عشرة أنفار، بينما مرتل يجوِّد ثمنا أو ربعا على أكثر تقدير، يجوِّد كما يريد لا كما يقول الشاطبي نرى بعضهم يهمهم والآخر يكمل بقية حديثه الذي بدأه مع صاحبه خارج الدار أما القارئ فتراه يقلب صفحات السفر بسرعة يستحيل كونه حقق نظره فيها فضلاً على تمكنه من تلاوتها، أما الجلوس ففي غاية الاحتشام والاحترام لجلال القرآن.

فهل هذا هو القرآن وهل هاته تلاوته وهل هؤلاء الأشخاص الذين يجوز لهم قراءته، وهل للناس أن يستمعوهم؟

لنخرج من الدار ولنشاهد أكبر مهزلة يبرأ منها الاسلام صياح وعويل من الدار وآذان وتكبير وصلاة على النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وسورة البقرة ويس وتبارك وجمهرة وتخريج وأحزاب قادرية ومدائح عيساوية وطيبية وشاذلية وتيجانية.

خبز وزيتون ومغفرة من الله:

يريد الكل احتكار الاسماع فتراه يجهد نفسه في الصياح حتى انك لا تشاهد الا أوداجاً منتفخة وعيونا بارزة ودماء للوجوه متصاعدة.

جمعية أصوات وأنواع قراءات:

ثم تجتاز المزابل والصوابيط[1] والطرقات القذرة التي من فرط نتنها يعد اجتيازها نصراً من الله لنصل للمقبرة ولنلق نظرة مجردة على تلكم الجماعة عندما يقع أحد الميت: تقرأ سورة يس فالبعض جالس على الأرض والآخر فوق قبر والآخر متوسده مع تعدد في أنواع الجلوس ولا تنس فكل لا يطيق مفارقة نعله المحبوب أما القلب فيفكر هل يكون ممن يقاول في جنازة السيد فلان الذي توفي صبيحة هذا اليوم واللسان يتلو والعين ترهق شيخ القراء، كم تناول من الأجر من ذوي الميت وهل أخفى شيئاً لنفسه.

هاته صورة مصغرة مما هو واقع وعمت به البلوى والذي يشاركنا في مشاهدة أدواره جمع التونسيين.

فهل تجوز قراءة القرآن في الأماكن القذرة على قارعة الطريق وعدم الاحتشام في تلاوة القرآن والخشوع والله بر في آياته.

والخلاصة اننا نتقدم بغاية الاحترام لفضيلة شيخ الاسلام المالكي والحنفي كل ما على مايقتضيه أصل مذهبه الزكي ونلتمس من علماء الشريعة السمحة أن يفتوا

(1) كلمة عامية تونسية معناها: الجزء الذي عليه سقف من زنقة مفردة: «صباط».

بحكم الله المنطبق على زماننا الذي اختلط فيه الحلال بالحرام وأن تكون فتياهم تعالج المسألة كما هي واقعة لا كما هي في النظر المجرد ولا نخالهم الا فاعلين».

وكتب الشيخ محمد بن ابراهيم التوزري يقول: «انني أرفع إلى حضرتكم السامية هذه الأسئلة راجياً التكرم بإيضاح الجواب عن كل مسألة على حدتها ونص الأسئلة: ما قولكم دام مجدكم، هل سنة النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ تنسخ بعد وفاته باختلاف الزمان (أم لا) وهل فعل وقول العلماء يصح أن يكون دليلاً على جواز فعل ما كان مخالفاً للسنة أو فعل الصحابة والسلف الصالح ـ رضي الله تعالى عنهم ـ (أم لا) وهل العرف الحادث من الناس يصح جعله دليلاً على جواز رفع الصوت خلف الجنازة (أم لا)؟

وهل رفع الصوت خلف الجنازة مظنة التشويش على المتفكر السائر مع الجنازة (أم لا) وهل اذا ادعى المتفكر التشويش برفع الصوت خلف الجنازة يصدق (أم لا) ؟ وهل يأثم من يشوش غيره برفع الصوت خلف الجنازة (أم لا)؟ أفيدوا مأجورين ولكم مني جزيل الشكر ومن الله الثواب.

وكتب الشيخ التهامي عزيز الباتي القرقني يقول:

«وحيث ثبت أن السنة في المحتضر وفي تشييع الجنازة وفي الدفن هو الصمت ظهر ان قراءة القرآن في المواقع الثلاثة خلاف السنة، وخلاف السنة انما هو البدعة. وقد حكم بالكراهة مطلقاً في ذلك أبو محمد عبد الله بن أبي جمرة في شرحه لمختصر البخاري حيث قال: مذهب مالك كراهة القرآن في هاته المواقع [1] لأننا مكلفون بالتفكير والاعتبار ومكلفون بالتدبر في القرآن فآل الأمر إلى إسقاط أحد العملين اهـ.

وما اشبه عصر ابن لب وابن سراج والمواق بهذا العصر وأهله وها أنا سائل جنابكم يا صاحب السماحة والفضيلة بقطع النظر عن الكراهة أو الجواز:

هل تلك الصيغة يقرأ بها مشيعو الجنائز قول الله تعالى كنطقهم بلفظة غفور بدون واو ورحيم بدون ياء وعذاب بدون ألف ويجعلون لا النافية لام ابتداء ونون المتكلم ومعه غيره نون جمع المؤنث ويقطعون كلمات الله محافظة على الصيغة وعلى

(1) في الأصل: الواقع.

أصواتهم أيُبَاحُ لهم القراءة بهاته الصفة سواء كانوا مع الجنازة أو في مواقع أخرى أم يحرم عليهم.

وهل تلك الأجزة التي يأخذها مشيعو الجنازة من أولياء الميت على القراءة جائز أم لا؟ وهل تعد صدقة أم لا؟ وهل تدخل في مؤن التجهيز ويقضي بها ان شح بعض الورثة أم لا؟ فالرجاء منكم أن تجيبوا جواباً شافياً أبقاكم الله ملجأ للسائلين ومفيدا للطالبين (انتهى).

ولا يخفى ما في هذه الأسئلة من الرد على الفتوى والانكار عليها والتنبيه على خروجها عن الموضوع وعدم مطابقتها لصورة الواقع وتعريضها بأن المفتي تعمد الاغضاء عما يعلمه كل أحد ويشاهده من المضار والمفاسد بسبب القراءة على الجنائز وذهب بفتواه يتأول ويتحمل لما هو من عالم الخيال.

ولما أحرجته هذه الاسئلة أجاب عنها بذلك التذييل ولما كان هذا التذييل قد اشتمل على الباطل والخطأ مثل الفعوى فاننا سنعرض لبيان ما فيه من ذلك في العدد القادم ان شاء الله[1].

- 2 -

كان أصل السؤال عن القراءة عند تشييع الجنازة وحول الميت وعند القبر. وكان جوابه عنه هكذا: «إن السنة في المحتضر وفي تشييع الجنازة وفي الدفن هو الصمت والتفكر والاعتبار. فإذا نطق الحاضر فليكن نطقه بالدعاء للميت والرحمة فان دعوة المؤمن لأخيه بظهر الغيب مرجوة الإجابة. **وأما قراءة القرآن عن الميت حين موته وحين تشييع جنازته وحين دفنه فلم تكن معمولاً بها في زمن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وزمن الصحابة**. اذ لم ينقل ذلك في الصحيح من كتب السنة والأثر **مع توفر الدواعي على نقله لوكان موجودا**. الا الأثر المروي في قراءة سورة يس عند رأس الميت عند موته على خلاف فيه. ولهذا كان ترك القراءة هو السنة وكان أفضل من القراءة في المواطن الثلاثة المذكورة». ثم أخذ بعد هذا الجواب الواضح

---

(1) البصائر: العدد 24، السنة 1، الجمعة 29 ربيع الأول 1355 هـ - 19 جوان 1936 م.

البين يقاوم ما فيه من صريح السنة مما فرغنا من رده عليه. وأما في تذييل الفتوى فانه قال هكذا: «أعلم ان موضوع الفتوى الصادرة منا هو ان قول مالك ان السنة في تشييع الجنازة السكوت. والقراءة في الجنازة مكروهة عنده وانها عند فريق من العلماء مستحبة غير مكروهة لقصد انتفاع الميت بثوابها». وهذا كلام قاصر على خصوص القراءة عند التشييع فلنقصر كلامنا اليوم معه فيه. وقد زعم ان القراءة عند التشييع عند فريق من العلماء مستحبة. ونقول انه لم يقل باستحبابها واحد من الأئمة ـ رضي الله عنهم ـ ولا من شيوخ مذاهبهم ولا ذكرها متن من المتون التي يدرس بها فقههم في الأمصار. فهو مطالب بأن يثبت هذا الفريق ولو بواحد من هؤلاء ولن يستطيع ـ ولا محالة ـ اثبات المعدوم، وفيما نقلناه في كلامنا السابق ما يدل على الاتفاق على بدعتها، ونزيد هنا قول الإمام ابن شامة الشافعي المتوفى سنة 665 هـ في كتابه «الباعث على انكار البدع والحوادث» قال: «وفيما يفعله الناس اليوم في الجنائز بدع كثيرة ومخالفة لما ثبت في السنة من ترك الاسراع بها والقرب منها والانصات فيها ومن قراءتهم القرآن بالألحان».

ثم قال فضيلته: «فمدرك مالك هو التيمن بقصد التأسي بالفعل الواقع في زمن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وزمن أصحابه فالمراد بالسنة عنده الطريقة التي كان عليها رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ».

نعم السنة هي الطريقة التي كان عليها ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فيما يفعل ويترك، ونحن مأمورون باتباعه في هذه الطريقة، بقوله تعالى: «**قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ**» والتأسي به فيما فعل وفيما ترك يمن ومخالفته شؤم، ولنا به أسوة حسنة فالقراءة عند التشييع تركها فتركها من سنته أي من طريقته فهو سنة وفعلها ليس من طريقته فهو بدعة. والخير في الاتباع، والشر في الابتداع.

وخير أمور الناس ما كان سنة   وشر الأمور المحدثات البدائع

هذا هو البيان الواضح لمدرك الإمام ـ رحمه الله ـ لا كما توهمه عبارة فضيلته من تهوين أمر الاتباع بأنه قصد التيمن والتبرك وان الترك لا يدخل في لفظ السنة لأنها هي الطريقة.

ثم قال: «ولما كان مالك لا يرى وصول ثواب القراءة للميت لم يوجد في نظره ما يعارض مقصد التأسي فلذلك قال بكراهة القراءة فيها».

مذهب مالك ان ما تركه النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ من الطاعات في موطن مع وجود المقتضي لفعله بحسب الظاهر فانه يترك دون التفات إلى ذلك الذي يظهر انه مقتضى اذ يترك النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ تبين أنه ليس بمقتضي في الشرع ففعل تلك الطاعة عليه اعتبار لما ألغاه الشارع واعتداد بما طرحه. وفي هذا معاندة له وافتئات عليه، ولهذا منع الذي أراد أن يحرم من المسجد النبوي وقرأ عليه قوله تعالى: «**فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**» وقد تقدم تفصيل هذا في سابق كلامنا ، فلو ان مالكا كان يقول بوصول ثواب القراءة لما قال بها في التشييع لأن السنة فيه هي تركها، والدعاء المتفق على نفعه لا يقول به مالك في الركوع لأن السنة فيه هي تركه، وهكذا ما هنا.

ثم قال: «وأما الذين خالفوه فمدركهم ان السكوت ترك فلا يدل على استحباب السكوت ولا على كراهة ضده».

قد علمت مما تقدم ان هؤلاء الذين يزعم انهم مخالفون لمالك في سنة ترك القراءة في التشييع لا وجود لهم في الأمة ولا في شيوخ مذاهبهم ومع ذلك فقد أخذ فضيلته يقرر في مدركهم فزعم ان السكوت ترك وأن الترك لا يدل على استحباب السكوت ولا على كراهة ضده، ومقتضى هذا الاستدلال من السنة النبوية يكون بالفعل دون الترك وهذا باطل والحق انه كما يستدل بفعله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يستدل بتركه. والتقرب إلى الله بترك ما تركه كالتقرب إليه بفعل ما فعله. ومن فعل ما تركه كمن ترك ما فعله وكما لا يتقرب إلى الله تعالى بترك ما فعله كذلك لا يتقرب إليه بفعل ما تركه، وهاك من كلام الأئمة ما يثبت لك هذا الأصل ويعرفك بدليله:

قال ابن السمعاني: «اذا ترك الرسول ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ شيئاً وجب علينا متابعته فيه الا ترى أنه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لما قدم إليه الضب فأمسك عنه وترك أكله، أمسك عنه الصحابة وتركوه إلى أن قال لهم: انه ليس بأرض قومي فأجدني أعافه. وأذن لهم في أكله» نقله الشوكاني في (ارشاد الفحول) ، وفي أوائل

الجزء الرابع من (الموافقات) للأمام الشاطبي بحث واف في الاستدلال بتركه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وذكر أنواعه، وقال القسطلاني في كتابه (المواهب اللدنية): «وتركه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ سنة كما ان فعله سنة فليس لنا أن نسوي بين فعله وتركه فنأتي من القول في الوضع الذي تركه بنظير ما أتي به في الموضع الذي فعله» وقال ابن حجر الهيمني: «ألا ترى ان الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ والتابعين لهم بإحسان أنكروا الأذان لغير الصلوات الخمس كالعيدين وان لم يكن فيه نهي، وكرهوا استلام الركنين الشاميين، والصلاة عقب السعي بين الصفا والمروة قياساً على الطواف. **وكذا تركه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ مع قيام المقتضى فيكون تركه سنة وفعله بدعة مذمومة»**. والنقول على هذا الأصل ـ وهو الاستدلال بتركه ـ كثيرة والأدلة فيه ثابتة واضحة وقد اعتنى ببسطه الأستاذ (محمد احمد العدوي) حفظه الله في كتابه (أصول في البدع والسنن) بسطاً كافياً لمن هداه الله[1].

ـ 3 ـ

الاستدلال بترك النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أصل عظيم في الدين. والعمل النبوي دائر بين الفعل والترك، ولهذا تكلم علماء الأصول على تركه كما تكلموا على فعله. وقد ذكرنا جملة من كلامهم فيما قدمنا، غير أن تقرير هذا الأصل الذي يهدم بدعاً كثيرة من فعل ما تركه النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ مما يتأكد مزيد تثبيته وبيانه. إذ بالغفلة عنه ارتكبت بدع وزيدت زيادات ليست مما زيدت عليه في شيء. وحسبك ان مثل هذا العالم يقرر في ذيل فتواه ان «السكوت ترك فلا يدل على استحباب السكوت ولا على كراهة ضده» فالترك إذاً ليس دليلاً شرعياً، ولهذا أردنا أن نعود إلى بيان هذا الأصل ونقل كلام أئمة الأصول والنظر فيه.

قال الإمام الشاطبي في آخر الجزء الثاني من كتاب الموافقات: «والجهة الرابعة مما يعرف به مقصد الشارع السكوت عن شرع التسبب أو شرعية العمل مع قيام المعنى المقتضى له. وبيان ذلك أن سكوت الشارع عن الحكم على ضربين أحدهما أن

(1) البصائر: السنة 1 العدد 25. الجمعة 6 ربيع الثاني 1355 هـ ـ 26 جوان 1936 م.

يسكت عنه لأنه لا داعية له تقتضيه ولا موجب يقرر لأجله كالنوازل التي حدثت بعد رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فانها لما تكن موجودة ثم سكت عنها مع وجودها، وانما حدثت بعد ذاك فاحتاج أهل الشريعة إلى النظر فيها واجرائها على ما تقرر في كلياتها. وما أحدثه السلف الصالح راجع إلى هذا القسم، كجمع المصحف وتدوين العلم وتضمين الصناع وما أشبه ذلك مما لم يجر له ذكر في زمن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ولم تكن من نوازل زمانه ولا عرض للعمل بها موجب يقتضيها فهذا القسم جارية فروعه على أصوله المقررة شرعا بلا إشكال. فالقصد الشرعي فيها معروف من الجهات المذكورة قبل. والثاني أن يسكت عنه وموجبه المقتضى له قائم، فلم يقرر فيه حكم عند نزول النازلة زائد على ما كان في ذلك الزمان، **فهذا الضرب السكوت فيه كالنص على أن قصد الشارع ان لا يزاد فيه ولا ينقص لأنه لما كان هذا المعني الموجب لشرع الحكم العملي موجوداً ثم لم يشرع الحكم ولا نبه عليه كان ذلك صريحا في أن الزائد على ما كان هناك بدعة زائدة ومخالفة لما قصد الشارع** اذ فهم من قصده الوقوف عند ما حد هنالك لا الزيادة عليه ولا النقصان منه ومثال هذا سجود الشكر في مذهب مالك، وهو الذي قرر هذا المعنى في العتبية من سماع أشهب وابن نافع، ثم نقل كلام مالك وبينه، وتطبيق هذا الأصل على مسألتنا أن تقول: (ان المقتضى للقراءة ـ وهو حصول البركة للميت ووصول الثواب إليه ـ قائم ومع قيامه فقد ترك النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ القراءة ففهم من هذا الترك مع قيام المقتضي ان قصد الشارع هو الوقوف عندما بين من السكوت والاعتبار، وان زيادة القراءة في ذلك الموطن بدعة زائدة ومخالفة لما قصد الشارع وان كانت عبادة من حيث ذاتها، كما قال مالك في سجود الشكر عند الأمر تُحِبُه «لا يفعل ليس هذا مما مضى من أمر الناس» وان كان السجود في نفسه عبادة، ثم قال أبو اسحق الشاطبي في آخر الفصل المذكور «وعلى هذا النحو جرى بعضهم في تحريم نكاح المحلل وانها بدعة منكرة من حيث وجد في زمانه عليه السلام المعني المقتضي للتخفيف والترخيص للزوجين بإجازة التحليل ليرجعها كما كان أول مرة، لما لم يشرع ذلك مع حرص امرأة رفاعة على رجوعها إليه دل على أن التحليل ليس بمشروع لها ولا لغيرها. وهو أصل صحيح اذا اعتبر وصح به الفرق بين ما هو

من البدع وما ليس منها. ودل على أن وجود المعنى المقتضي مع عدم التشريع دليل على قصد الشارع إلى عدم الزيادة ما كان موجوداً قبل **فإذا زاد الزائد ظهر أنه مخالف لقصد الشارع فبطل**.

وقد قرر هذا الأصل الإمام ابن القيم في آخر الجزء الثامن من كتاب أعلام الموقعين عندما تكلم على ما ورد من السنن الثابتة من دون معارض. وطبق هذا الأصل على مسألتنا شيخنا الشيخ بخيت الحنفي مفتي الديار المصرية رحمه الله في كتابه (أحسن الكلام) فقال: «واما رفع صوت المشيعين للجنازة بنحو قرآن أو ذكر أو قصيدة بردة أو يمانية فهو مكروه لا سيا على الوجه الذي يفعل في هذا الزمان ولم يكن شيء منه موجوداً في زمن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ولا في زمن الصحابة والتابعين وغيرهم من السلف الصالح. بل هو مما تركه النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ مع قيام المقتضى لفعله فيكون تركه سنة، وفعله بدعة مذمومة شرعاً كما هو الحكم في كل ما تركه النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ مع قيام المقتضى لفعله» وقال أيضاً: «وأما ما يفعل في زماننا أمام الجنائز من الأغاني ورفع الصوت بالبردة واليمانية على الوجه الذي يفعل في هذا الزمان والمشي بالمباخر فلا يقول بجوازه أحد».

فهذا الأصل العظيم الذي قرره مالك ـ رحمه الله ـ وهو أن ما تركه النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ مع قيام المقتضى فالدين تركه ـ وبينه أبو اسحاق الشاطبي ـ قد رأيت تقريره والاستدلال له والتفريع عليه من جماعة غير مالكية كابن السمعاني والقسطلاني الشافعيين وابن القيم الحنبلي والشيخ بخيت الحنفي مع تطبيق هذا الأخير له على عين مسألتنا. فلم ينفرد به مالك من أئمة الاجتهاد والفتوى ولا ابو اسحاق الشاطبي من أئمة الأصول والنظر نقول هذا لأن المتأولين للبدع والمنكرات ـ مثل فضيلته ـ أصبحوا وكأنهم يتبرمون بقول مالك وشدنه فيها ويحاولون التملص إلى أقوال ولو لم تكن منزلة قوله في الاستدلال والنظر حتى زعم فضيلته ان لمالك مخالفين في القراءة عند التشييع وجاء لهم بمدرك حاول أن يهدم به هذا الأصل العظيم. أما أبو اسحاق الشاطبي فقد صار يوصم عند بعض أنصار البدعة والمتأولين لها بالشذوذ وما ذنبه عندهم إلا نصرته للسنة بكتابه الفريد. في بابه كتاب (الاعتصام) وبفصول من كتابه الفريد الآخر كتاب (الموافقات).

ولقد كنا أيام الطلب بجامع الزيتونة ـ عمره الله ـ نسمع من شيوخنا كلهم الثناء العاطر على هذا الكتاب وصاحبه وكانت له عندهم منزلة عظيمة. وأحسن الدروس في المناظرات الامتحانية هو الذي رصعه صاحبه بكلام الشاطبي وأحسن فهمه وتنزيله،فليت شعري ماذا يقول المتأولون للبدع والمنكرات ـ مثل فضيلته ـ فيه اليوم وقد أصبح حجة للمصلحين.

وقد بلغني ان كتاب (الموافقات) قد قرر تدريسه بالجامع ـ عمره الله ـ وان الذي يدرسه للشيوخ هو الشيخ عبد العزيز جعيط أحد المفتيين المالكيين والمترشح ـ فيما يظهر ـ لمشيخة الإسلام بعد عمر طويل ـ ان شاء الله ـ لشيخ الإسلام الحالي، ولعله مر في درسه على هذا الفصل الذي نقلناه من الموافقات في تقرير الأصل المتقدم أو قاربه. فماذا قال أو يقول فيه؟ ان هذا الأصل وهو ان ما تركه النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ مع قيام المقتضى فالدين تركه والزيادة عليه بدعة مذمومة مخالفة لمقصد الشارع ـ هو حجة المصلحين في رد البدع الغالين والمتزيدين، فماذا قلت يا فضيلة الشيخ عبد العزيز أو ماذا تقول. بين! بين! فانك تعرف وعيد الكاتمين. والا فعليك ـ لا قدر الله ـ اثم الهالكين والمعاندين[1].

ـ 4 ـ

قال فضيلته: «وقد عارضه، أي الترك النبوي» قصد آخر حسن وهو التبرك بقراءة القرآن ووصول ثواب ذلك للميت ، فهم يرون في السكوت في الجنازة فضيلة بركة التأسي وفي القراءة فضيلة وهي وصل الثواب للميت.

هذه هي حجة كل مبتدع ومحدث في الدين ما ليس منه ومتعبد بغير ما شرع الله لعباده بواسطة رسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ. يفعل ما تركه النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بدعوى أن في فعله خيراً وفضيلة وزيادة مفيدة، ويعارض التشريع الإلهي بالترك النبوي مع قيام المقتضى برأيه وهواه، واستدراكه ودعواه. ومن مقتضى منعه ـ قطعاً ـ ان ذلك الخير وتلك الفضيلة والزيادة المفيدة قد فاتت النبي ـ صلى

(1) البصائر: السنة 1. العدد 27. الجمعة 20 ربيع الثاني 1355 هـ ـ 10 جوليت 1936 م.

الله عليه وآله وسلم ـ في السنين الطويلة التي عاشها تاركاً لها فلم يفعلها ولم يبلغها وهو المأمور بالتبليغ المعصوم من الكتمان حتى تفطن لها هذا المبتدع فجاء بها وفاز بتحصيلها وكانت من الفضائل التي رجح ميزانه بها وخلا منها ميزان محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ«كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إنْ يَقُولُونَ إلاَّ كَذِبًا».

ولو جرى الأمر على هذا الأصل الباطل والقول الضال لأذن للعيدين والتراويح والكسوف والاستسقاء، وقيل إن عدمها في العهد النبوي ترك وهو لا يدل على استحباب عدم الأذان ولا على كراهة ضده وقد عارضه قصد آخر حسن وهو ما في الأذان من حصول الثواب للمؤذن والحاكي؟ ففي عدم الأذان فضيلة بركة التأسي وفي الأذان فضيلة حصول الثواب للمؤذن والحاكي. وهكذا يمكن أن تزاد عبادات كثيرة في غير مواضعها تركها النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ مع قيام المقتضى لها ويعارض تركه عليه السلام لها بما فيها من الفضائل الذي غفل عنه هو عليه السلام واهتدى إليه المبتدعون، وكفى بقول يؤدي إلى هذا ضلالا وشراً وفسادا.

نعم في قراءة القرآن العظيم لقارئه وسامعه كل البركة ووصول الثواب المهدى، قال به جمع الأئمة عليهم الرحمة، غير ان النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وهو الرحيم بأمته الحريص على دلالتهم على الخير وما فيه الأجر والثواب لم يقرأ القرآن العظيم في هذا الموطن فدلنا على أن الترك هو الخير، وان هذا الموطن ليس محلاً للقراءة بل هو محل لعبادة أخرى هي عبادة التفكر والاعتبار. فالقراءة فيه بدعوى تلك المعارضة مخالفة ومشاقة له، وما هو أكبر من ذلك من دعوى الاهتداء إلى ما لم يهتد إليه عليه السلام.

ثم قال فضيلته: «واعتضدوا بقراءة سورة يس».

لو كان لمن يقول بقراءة القرآن العظيم عند التشييع دليل من أثر أو صحيح نظر لأمكن أن يقال: «واعتضدوا بحديث يس» ، لكن قد علمنا مما تقدم أنه لا دليل لهم إلا مشاقة الترك النبوي بتخيل الأفضلية ودعوى الاهتداء إلى ما لم يهتد إليه النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ مما تقدم لنا ابطاله فلا يمكن حينئذ أن يقال فيهم «اعتضدوا» ويبقى النظر في حديث قراءة يس نفسه فانتكلم على سنده ومتنه ليتبين أنه خارج عن موضوعنا.

عن معقل بن يسار قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ـ **اقرأوا يس على موتاكم**» قال الحافظ في التلخيص (153) بنقل الأستاذ محمد حامد الفقي: رواه أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم من حديث سليمان التيمي عن أبي عثمان ـ وليس بالنهدي ـ عن أبيه عن معقل بن يسار ولم يقل النسائي وابن ماجه عن أبيه. وأعله ابن القطار بالاضطراب وبالوقف وبالجهالة لحال أبي عثمان وأبيه.

ونقل الإمام أبو بكر بن العربي المالكي عن الدارقطني انه قال: هذا حديث ضعيف الاسناد مجهول المتن ولا يصح في الباب حديث اهـ، وقد صححه الحاكم وابن حبان وهما معروفان بالتساهل في التصحيح وسكت عنه أبو داود وسكوته يقتضي عدم تضعيفه ولكنه لا يقتضي بلوغه درجة الصحيح وإذا ضم إليه ما ورد في معناه ـ ولم يبلغ منها شيء إلى درجة الحجة ـ ارتقى إلى رتبة الحسن لغيره. هذا كلمة موجزة في سنده بينت لنا رتبته. وأما متنه فان المراد بقوله عليه الصلاة والسلام: «على موتاكم» من حضرتهم الموت. قال ابن حبان في صحيحه ـ بنقل ابن حجر وغيره: أراد به من حضرته المنية لا أن الميت يقرأ عليه ـ قال وكذلك قوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: «لقنوا موتاكم لا إله إلا الله» اهـ، ومما يدل على أن المراد من حضرته المنية ما رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده، قال حدثنا أبو المغيرة ثنا صفوان قال كانت المشيخة يقولون إذا قرئت ـ يعني يس ـ لميت خفف عنه بها. وفي مسند الفردوس ـ بنقل ابن حجر ـ عن أبي الدرداء وأبي ذر قالا: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ «**ما من ميت يموت فيقرأ عنده يس إلا هوّن الله عليه**»، قال الصنعاني شارح (بلوغ المرام): وهذان يؤيدان ما قاله ابن حبان من أن المراد به المحتضر اهـ. وحديث أحمد المتقدم رواه جمع من شراح الحديث مختصرا كما رأيت وأصله في المسند هكذا: «حدثنا أبو المغيرة ثنا صفوان بن عمرو عن المشيخة انهم حضروا غضيف بن الحرث حين اشتد سوقه فقال: هل أحد منكم يقرأ يس؟ قال فقرأها صالح بن شريح السكوني فلما بلغ أربعين آية منها قبض، قال: فكان المشيخة يقولون: «اذا قرئت عند الميت خفف عنه بها» . قال الحافظ ابن حجر في (الاصابة):

صريح غاية الصراحة، بأن قراءة يس انما هي على المحتضر ففيه (لما اشتد سوقه) والسوق قال أئمة اللغة: هو النزع. وكان المحتضر نفسه هو الذي قال: «هل فيكم أحد يقرأ يس» وقد فهم الأئمة ـ رضي الله عنهم ـ انه في المحتضر، فأخرجه ابن ماجه تحت قوله: «باب ما جاء فيما يقال عند المريض إذا حضر» وأخرجه البغوي في (المصابيح) تحت قوله: «باب ما يقال عند من حضره الميت». ومثله التبريزي في (المشكاة)، وكذلك الإمام ابن أبي زيد فانه ذكر رخصة بعض العلماء ـ وهو ابن حبيب ـ في قراءة يس ـ في (باب ما يفعل بالمحتضر من رسالته) فقال هكذا: «وأرخص بعض العلماء في القراءة عند رأسه بسورة يس ولم يكن ذلك عند مالك أمراً معمولاً به».

فبان بهذا كله أن حديث قراءة يس ـ على ما فيه كما عبر فضيلته في أصل الفتوى ـ خارج عن موضوعنا، لأن موضوعنا في القراءة على الميت بعد موته وهو الذي يفعله الناس ويسمونه (فدوة) وعند تشييعه كما يفعل (مروقية) تونس وغيرهم، وهو الذي قصر فضيلته الكلام عليه في التذييل كما تقدم، وبعد دفنه عند قبره. وليس لنا أن نقيس هذه المواطن على قراءة يس عند المحتضر لأن القياس لا يدخل في العبادات، ولأن المعنى الذي قصد من قراءتها ـ وهو التخفيف عليه حال النزاع ـ معدوم في هذه المواطن.

ولهذا فنحن ما زلنا نطالب فضيلته بالإتيان بسنة صحيحة قولية أو فعلية تثبت مشروعية القراءة في موطن من هذه المواطن. وأنّى له ذلك؟[1].

ـ 5 ـ

حقاً لقد صارت مسألة السنة في تشييع الجنازة ـ وهي الواضحة الجلية ـ ذات ذيول ففضيلته قد جعل لفتواه تذييلاً فلا تأصيل ولا تدليل. ونحن ـ بحكم العدوى الكتابية ـ قد جعلنا لردنا عليه هذا التذييل. ولكنه لم يخل من دليل.

---

(1) البصائر: السنة 1، العدد 28، الجمعة 27 ربيع الثاني 1355 هـ ـ 17 جونيت 1936 م.

كل ما يريده فضيلته هو بقاء تلك الحالة المنكرة البشعة من تشييع الجنائز التي نشرنا فيما مضى بيان بعض الكتاب من اخواننا التونسيين عنها. وهو يعلم أن لا بقاء لها الا ببقاء تلك الفئة من (المروقية) قائمة بها. وانها لا تقوم بها الا بثمن فليفت حينئذ فضيلته ـ ولا بد ـ بتحليل ذلك الثمن وجواز أخذ الأجرة على القراءة . فلذا قال في تذييله: «وأما أخذ الأجرة على قراءة القرآن فاعلم ان أخذ الأجر على القراءة جائز باتفاق الائمة الأربعة».

باتفاق الائمة الأربعة! هذا باطل ما دعا إليه وحمل عليه الا الحرص على بقاء هذه البدعة والعياذ بالله، والحقيقة هي ان الحنفية والحنابلة ـ كما هو مصرح به في كتبهم ـ لا يجيزون أخذ الأجرة على القراءة وحجتهم على ذلك ان الأجر دفع لأجل حصول ثواب القراءة للدافع لكان القارئ ما قرأ الا لأجل ذلك الأجر فلم يكن عمله **ولا تجفوا عنه ولا تغلوا فيه ولا تأكلوا به ولا تستكثروا به»** . رواه أحمد بسند قال في مجمع الزوائد رجاله ثقاة، ورواه غيره، وأجابوا عن حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : «**أن أحق ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله**». رواه البخاري بأنه محمول على أخذ الأجر في تعليمه أو الرقية به مما يحصل مقابل الأجر لدافعه جمعاً بين الأدلة، وقال بهذا بعض المالكية أيضاً، وهو قول قوي ـ كما ترى ـ نظراً وأثراً ، فأين هو الاجماع الذي يدعيه فضيلته؟.

إلى هنا وجب أن ننتهي من الحديث مع فضيلته. وبقيت لنا كلمة مع جريدة (الزهرة) التي تساءلت عن آداب الإسلام سنقولها لها ـ ان شاء الله ـ اذا أبنا من سفرنا مع وفد الأمة الجزائرية إلى باريس، فإلى اللقاء(1).

(1) البصائر: السنة 1. العدد 29، الجمعة 5 جمادى الأولى 1355 هـ ـ 24 جوليت 1936 م.

سؤال

سادتي العلماء الأعلام، حمال الشريعة، ما قولكم حفظكم الله وأعلى مناركم في عرش من سكان البادية يحتوي على مائتين وخمس وثلاثين داراً «قرى صغيرة وديارا متفرقة، وستمائة رجل متوغلين في البداوة ذوي غلظة وفظاظة يخاف الراكب أن يجوب أصقاعهم نهارا.

رأى بعض المصلحين أن ينقذهم مما هم فيه ويستل منهم أخلاقا فاسدة وعوائد ممقوتة ، ولا سبيل إلى ذلك إلا ببناء مسجد يجمعهم ومعلم حاذق يعلمهم واجبات دينهم ويربيهم تربية شرعية إصلاحية ويغرس في نفوسهم روحا وطنية وشهامة عربية وأخلاقاً دينية تعود الشيوخ وان عسى فان فنن الكهول لين وغصن الشباب لا زال رطباً مياداً تهزه نسمات الصبا ولا يحرك عواطفه ريح السموم فأرشدهم إلى بناء مسجد يصلون فيه ويتعلمون واجبات دينهم فأجاب كلهم بالسلب الا أن تصح وتقام فيه الجمعة، ورأى أن لا بد من إجابة رغبتهم والا فانهم لا يرجعون عما هم فيه ولأن الجمعة هي التي تجمعهم ، فبنوا مسجد جمعة منذ عامين وأقاموا فيه دارا ومدرساً قام فيهم بالوعظ والإرشاد والدروس العلمية النافعة فحصلت النتيجة والحمد لله، فقام بعض من يبغونها عوجا ويودون لو يبقى هذا العرش المسكين في غفلة وتيه من الجهالة ليأكل من لحمه ويشرب من دمه ويودع فيه سمومه القتالة وأمراضه الوبئة شأن من ينتسب إلى الولاية المزعومة والدعاية الفارغة وحكم ببطلان الجمعة محتجاً بأن المسجد لم يكن وسط القرية ولم ينعكس عليه دخانها.

المسجد وان لم يكن في وسط القرية حقيقة فهو فيها حكما لأن ديار العرش وقراه مسترسلة وحائطة بالمسجدمن كل جهة هذه اثر هذه وأقرب دار إليه تبعد عنه بعشر مترات.

وما هي فائدة انعكاس الدخان اذا حصل المطلوب ، أو قرب الدار اذا لم يكن نافعا.

على أن قــرب الــدار لــيس بــنــافــع
إذا لم يــكــن لــلــمــرء في الــديــن وازع

والمسجد لا ينفك مفعماً بالمصلين مملوءة بهم رحابه، والعرش ان حكمنا عليه ببطلان الجمعة تفرق شذر مذر ورجع إلى سيرته الأولى وعاثت فيه يد الدجالين بالسلب والنهب.

أفيدونا الجواب أجركم الله لينزجر الكائد ويطمئن الرائد،

«مسترشد» [برج الغدير]

الجواب

ليس في اشتراط اتصال بنيان القرية حديث وانما ترجع المسألة للنظر وقد أفتى بعض الفقهاء باشتراط الاتصال ولكن الإمام الآبي تلميذ ابن عرفة بعد ما ذكر هذه الفتوى في شرحه على صحيح مسلم قال: [والأظهر انهم كانوا من القرب بحيث يرتفق بعضهم ببعض في ضرورياتهم والدفع عن أنفسهم جمعوا لأنهم ـ وهم كذلك ـ بحكم القرية المتصلة البنيان] وما قاله الابي نقضه الحطاب وسلمه وزاده تأييدا بما نقل من جزم صاحب الطراز بعدم اشتراط الاتصال واستدلاله بأن بعض بيوت القرية قد يخرب فيحصل الانفصال ومع ذلك لا يضر ما لم يبعد ما بين البيوت، ولما كان المقصود من القرية هم الترافق والتعاون فإذا حصلا فأهل تلك البيوت قرية وان انفصلت بيوتها فهي في حكم الاتصال، فالقرية الواقعة في السؤال اذا كانت بيوتها على هذا الوجه فانها تجمع ولا يضرها الانفصال(1).

(عبد الحميد بن باديس)

(1) البصائر عدد 30، 12 جمادى الأول 1355 هـ 31 جوليت 1936 م.

أسئلـــة (*)

«كنا أعلنا حسب قرار المجلس الاداري للجمعية ان من أراد السؤال عن أي مسألة تهمه فليراجع فيها الاستاذ (عبد الحميد بن باديس) وهو يتولى الجواب عن سؤاله إما بالكتابة إليه رأسا أو بنشره على صفحات هذه الجريدة، ولكن لا يزال كثير من الناس يوجهون أسئلتهم إلينا ونحن بالطبع نحيلها إلى الاستاذ ابن باديس ولذلك قد يتأخر الجواب عنها، وقد جاءنا من الاستاذ الأجوبة الآتية عن أسئلة موجهة إلينا ننشرها فيما يأتي».

سؤال عن حديث: يا بن آدم مرضت فلم تعدني.

الجواب:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

وبعد فالمراد من الحديث تأكيد حقوق العباد على العباد بأنها من حقوق الله وان الله آمر بها ومجاز عليها ووجه التأكيد هو جعل ما يكون منهم من الطلب كأنه منه وانه حاضر عند الإحسان وذلك بحضور جزائه وسرعته والله أعلم.

قاله وكتبه خادم العلم وأهله:

عبد الحميد بن باديس

(*) العنوان من وضع المشرفين على احياء هذا التراث .

وسأل سائل عن جواز لباس الرجال مثل لباس النساء، وظهورهم في زيهنّ على خشبة المسرح ، فكان الجواب من رئيس الجمعية كما يلي:

عن أبي هريرة رضي الله عنه ان النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لعن الرجلَ يلبس لبس المرأة ، والمرأة تلبس لبس الرجل، رواه أبو داوود وغيره بسند رجال الصحاح. وروى أصحاب السنن عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : لعن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ المتشبهات من النساء بالرجال والمتشبهون[1] من الرجال بالنساء. وبهذه الأحاديث النبوية علم أن تزيي الرجل بزي المرأة الواضح من السؤال حرام لأن اللعن لا يكون الا على المحرم.

عبد الحميد بن باديس

وسأل آخر هل اتصال البنيان في القرية شرط في صحة الجمعة فكان الجواب ما يأتي :

ليس في اشتراط اتصال بنيان القرية حديث انما مرجع المسألة للنظر، وقد أفتى بعض الفقهاء باشتراط الاتصال ولكن الإمام الآبي تلميذ ابن عرفة بعد ما ذكر هذه الفتوى في شرحه على صحيح مسلم قال: والأظهر انهم ان كانوا من القرب بحيث يرتفق بعضهم ببعض في ضرورياتهم والدفع عن أنفسهم جمعوا. لأنهم ـ وهم كذلك ـ بحكم القرية المتصلة البنيان. وما قاله الآبي نقله الحطاب وسلمه وزاده تأييدا بما نقله من جزم صاحب الطراز بعدم اشتراط الاتصال واستدلاله بأن بعض بيوت القرية قد يخرب فيحصل الانفصال ومع ذلك لا يضر ما لم يبعد ما بين البيوت، ولما كان المقصود من القرية هو الترافق والتعاون فاذا حصلا فأهل تلك البيوت قرية وان انفصلت بيوتها فهي في حكم الاتصال، فالقرية الواقعة في السؤال اذا كانت بيوتها على هذا الوجه فانها تجمع ولا يضرها الانفصال.

عبد الحميد بن باديس

---

(1) كذا فى الاصل ، وصوابه : والمتشبهين .

وسأل أحد الأهالي

وسأل أحد أهالي بلدة (ميشلي) عن أبناء المتجنسين بالجنسية الفرنسوية هل يجوز دفنهم في مقابر المسلمين فكان الجواب منه حسبما يلي:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

وبعد فابن (المطورني) اذا كان مكلفا ولم يعلم منه انكار ما صنع أبوه والبراءة منه فهو مثل أبيه لا يصلى عليه ولا يدفن في مقابر المسلمين ، وإن كان صغيرا فهو مسلم على فطرة الاسلام يدفن معنا ونصلي عليه.

قاله وكتبه خادم العلم وأهله
عبد الحميد بن باديس

الجزائر 25 جمادي الأولى 1354 هـ(1).

---

(1) البصائر: السنة الثانية العدد 79. جمادى الثانية 1356 هـ ـ 20 أوت 1937 م.

التجنس والتوبـة منـه (1)

بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على محمد وآله

التجنيس بجنسية غير اسلامية يقتضى رفض أحكام الشريعة · ومن رفض حكما واحدا من أحكام الاسلام عد مرتدا عن الاسلام بالاجماع ، فالمتجنس مرتد بالاجمـــاع ·

والمتجنس ـ بحكم القانون الفرنسي ـ يجرى تجنسه على نسله ، فيكـون قد جنى عليهم باخراجهم من حظيرة الإسلام ، وتلك الجناية من شر الظلم وأقبحه، واثمها متجدد عليه ما بقى له نسل فى الدنيا خارجا عن شريعة الاسلام بسبب جنايتـــه ·

فاذا أراد المتجنس أن يتوب فلابد لتوبته من اقلاع ، كما هو الشرط اللازم بالاجماع ، فى كل توبة ، واقلاعه لا يكون الا برجوعه للشريعة الاسلاميـــة ورفضه لغيرها ·

ولما كان القانون الفرنسي يبقى جاريا عليه رغم ما يقول هو فى رجوعه ، فاقلاعه لا يتحقق عندنا فى ظاهر حاله ، وهو الذى تجرى عليه الاحكام بحسبه. الا اذا فارق البلاد التى يأخذه فيها ذلك القانون الى بلاد تجـــرى عليه فيها الشريعة الاسلامية ·

قد يكون صادقا فى ندمه فيما بينه وبين الله ، ولكننا نحن فى الظاهر الذى أمرنا باعتباره فى أجراء الاحكام ، لا يمكننا ان نصدقه وهو ما يزال ملابسا لما

---

(1) كثر السائلون عن التجنس ، وتوالت رسائلهم على لجنة الفتوى لجمعيـــة العلماء فكلفت بذلك رئيس الجمعية فلبى الطلب وكتب هذه الفتوى المختصرة الوافيـــة ·

ارتد من أجله من أحكام تلك الجنسية ، ولهذا لا تقبل توبته ولا تجرى عليه أحكام المسلمين ·

والذى يقع عليه القضاء بحكم يتحقق أنه حكم الشريعة الاسلامية فيسعى فى نقضه بحكم من غيرها ، هو برفضه لذلك الحكم وطلبه لغيره مرتد عـــن الاســـلام ·

وتوبة هذا باقلاعه عن طلب الحكم الآخر أو بتنفيذه لحكم الاسلام ان كان غيره قد وقع ·

ومن جعل (التيسطاما) ـ (1) وهى قسمة ماله بين من يشاء بعد موته على غير القسم الاسلامى رافضا للحكم الاسلامى ··· فهو مرتد عن الاسلام وتوبته بابطال تلك (التيسطاما) ورجوعه الى حكم الاسلام ·

ومن تزوج بامرأة من جنسية غير اسلامية فقد ورط نسله فى الخروج من حظيرة الشريعة الاسلامية ، فان كان راضيا لهم ذلك ومختارا له على بقائهم فى حظيرة الشريعة الاسلامية فهو مرتد عن الاسلام ، جان عليهم ، ظالم لهم ، وان كان غير راض لهم بذلك ولا مختارا لهم ذلك على شريعة الاسلام ، وانما غلبته شهوته على ذلك الزواج ، فهو آثم بجنايته عليهم وظلمه لهم . لا يخلصه من اثمه العظيم الا انقاذهم مما أوقعهم فيه بهجرته بهم ·

(تـوضيـــح) :

ما أكثر ما سئلنا عن هذه المسألة العظيمة وطلب منا الجواب عنها على صفحات البصائر ، ومنهم حضرة رئيس المتجنسين بتونس الاستاذ التركى ، وكاتبنـا مرتين بكتابين مطولين ، فأدينا الواجب الدينى بهذه الكتابة ونحن مع ذلـك نحترم كل ذى رأى فى رأيه وكل ذى جنس فى جنسه ، ونقدر لكل ذى قيمة قيمته . ونعلم أن فى أبناء الجزائر ممن رفضوا جنسيتها ولم يقتصروا فى خدمتها نادمين على ما فرطوا ، وما كنا لهم ناسين ·

والعلم عند الله · قاله وكتبه خادم العلم وأهله :

عبد الحميد بن باديس (2)

---

(1) كلمة أجنبية ومعناها : وصية الهالك قبل موته ·

(2) البصائر : العدد 95 ، السنة 3 ، يناير 1938 م ·

رسالة من متجنسي تونس (1)

سيدى الجهبذ النحرير العالم العامل الشيخ عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بقسنطينة السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد ، فلقد قرات بجريدة « البصائر » الغـــراء فتواكم الممتعة في مسالـة التجنيس وغيرها ولقد سرتنى كثيرا صراحتكم المعهودة وابداؤكم حكـم اللـه فيما وقع استفتاؤكم فيه وذلك شان العالم العامل بعلمه والذى لا يخشى فى الله لومة لائم ولا يكتم ما علمه الله من كل سائل يريد حكم الله فى سؤالـه خلافا لبعض علمائنا بتونس الذين آثروا الخنوع للسلطة المحلية وحب الدنيا عن الآخرة ولم يخافوا وعيد الله ورسوله لمن يكتم ما علمه الله عـن المؤمنـين ورضوا بان يلجموا بلجام من النار خيرا من أن يغضبوا سيدهم ظنا منهم أن حياتهم ورزقهم متوقفان على رضاه ·

سيـــدى ؛

أرى نفسى قد خرجت عن أداء الشكر نحوكم لما أبديتموه من الصراحة من مسألتنا التى أصبحت أعقد من ذنب الضب لما أحدثته من المشاكل الدوليـــة في نظر المستعمرين لان باعترافهم بأحقية مطلبنا فى الرجوع الى جنسيتنـــا المحبوبة اعترافا منهم بوجود الجنسية التونسية وهذا ما لا يرضونه ولـــن يعترفوا به ما دام علماؤنا التونسيون في صمم عن اجابة سؤالاتنا المتكـررة ووفودنا المستمرة فى ابداء حكم الله في مسألتنا وهم عنا لاهون ؛ وبوجودنا لا يشعرون؛ كأن لم نكن بعضا منهم كان اتبع هوى النفس فيما مضى وزاغ عن الهوى وأراد الآن الرجوع الى الحق وسواء السبيل مع أن الاسلام قد أمر فى

---

(1) كان لفتوى الامام فى التجنس والتوبة منه ، صدى واســـع فى مختلف الاوساط ، منه هذه الرسالة ·

هاته الحالة بالتحريض على التسامح بالنسبة لمن لم يكن له أصـــل ثبت فى الاسلام ومت بالنسب اليه فضلا على أننالا زلنا منه واليه ٠

هذا وأن تقاعسهم عن الاجابة ان لم أقل تصريحهم بما علمهم الله قد جر على المتوظفين منا الويل والثبور وعظائم الامور فقد نظرت الادارة ، للمتوظفين منا نظر العدو البغيض الذى وجوده بالحاضر وسعيه المتواصل للحصول على التصريح من انهيأة الشرعية بتونس ٠ احراجا لمركزها فعمدت أخيرا الى وسائل الضغط والارهاق فأبعدت رئيس جمعيتنا الفاضل الاستاذ السيد محمد الصالح التركى وعينته بمحكمة الكاف بعد أن كان مترجما بالادارة المركزية للوزارة العدلية من منذ أعوام 14 وبفعلتها هاته داست القوانين بهاته النقلة المخالفة للتراتيب ولم تعتبر ما لهذا المتوظف مـــن الخدمات السابقة لبث الثقافـــة الفرنساوية فى المكاتب السلطنية ومدارس ترشيح المعلمين بالممالك العثمانية مدة تزيد عن اربعة عشر عاما الامر الذى استوجب تقليده الصنف الاعلى مــن وسام العلوم والمعارف نعم ارتكبت الادارة هاته المخالفات بعـــدم احترامهـا للقوانين ظنا منها أن بابعاد الاستاذ محمد الصالح التركى الى الكاف اضعافـا لنشاط جمعيتنا وراحة لعلمائنا الاعلام المعبر عنهم (كذا) بمصابيح الظـلام وهم قد تركونا فى عمى عن الهداية ولم ينيروا لنا مصابيح الاسلام فى طريقنا التى ناشدناهم بتعاليمها أن يعلمونا بحكم الله فى قضيتنا ٠

وبالآخر فبلسان جمعيتنا نتقدم اليكم حاملين على كواهلنا شواهد الشكر والامتنان على تصريحكم بالحقيقة وابدائكم ما علمتم من تعاليم الاســلام وان جميع معتنقيه يقدرون جمعيتكم العاملة لهاته الصراحة فى وقت اشتدت فيـه وطأة الاستعمار فى هذا الشمال المنكوب ٠

ولابد أن الله جل جلاله يثبت لكم أقدامكم ويمدكم بروح منه والله لا يضيع أجر من أحسن عملا (1) ٠

عن جمعية المسلمين التونسيين المتجنسين بالجنسية الفرنساوية
الراغبين فى الرجوع للجنسية التونسية
(الكاف) : **ضيـا نـورى**

(1) عن (البصائر) العدد 101 ـ 5 ذى الحجة عام 1356 هـ ، الموافق ليـوم 7 جانفى 1938 م ٠

في سبيل الدعوة والارشاد:

جواب صريح

تمهيد:

ورد سؤال على الأستاذ الجليل محمد بن الحسن الحجوي وزير معارف الحكومة المغربية من الشيخ حافظ ابراهيم ربيشطي من أهل العلم ببلدة شقودرة بمملكة ألبانيا، عن أشياء منها ما يتعلق بالطريقة التجانية،فأجاب الأستاذ عن تلك المسائل كلها ونشر جوابه في مجلة «الرسالة» حيث نشر السؤال،ولقد أجاد الأستاذ في جوابه غير أنه أحاط كلامه في شأن الطريقة التجانية بشيء من الغموض حمله عليه فيما أظن مركزه ومحيطه وليس له في هذا عذر عند الله فان السؤال كان واضحا والموضوع عظيما هاما والموقف محتاجا إلى صراحة لا يخاف فيها الا الله. فرأيت من واجبي الديني أن أجيب بصراحة وأن آتي من كلام الأستاذ بما هو مؤيد لجوابي مع التعليق عليه لا أقصد من ذلك ـ علم الله ـ الا النصح لإخواني الذين ضلوا بهذه الطريقة عن الصراط المستقيم هدانا الله كلنا إليه.

تلخيص السؤال:

يدعي المنتسبون للطريقة التجانية:

1 ـ ان قراءة (صلاة الفاتح) أفضل من تلاوة القرءان ستة آلاف مرة متأولين بأن ذلك بالنسبة لمن يتأدب بآداب القرءان.

2 ـ ان (صلاة الفاتح) من كلام الله القديم ولا يترتب عليها ثوابها الا لمن اعتقد ذلك.

3 ـ وان (صلاة الفاتح) علمها النبي صلى الله عليه وآله وسلم لصاحب الطريقة ولم يعلمها لغيره.

4 ـ وان مؤسس الطريقة التجانية أفضل الأولياء.

5 ـ وان من انتسب إلى تلك الطريقة يدخل الجنة بلا حساب ولا عقاب، وتغفر ذنوبه الصغار والكبار، حتى التبعات.

فهل الاندماج فيها غير مناف للشريعة الغراء؟

الجواب:

1 ـ القرآن كلام الله و(صلاة الفاتح) من كلام المخلوق ومن اعتقد ان كلام المخلوق أفضل من كلام الخالق فقد كفر. ومن جعل ما للمخلوق مثل ما لله فقد كفر بجعله لله نداً فكيف بمن جعل ما للمخلوق أفضل مما للخالق.

هذا إذا كانت الأفضلية في الذات فاما إذا كانت الأفضلية في النفع فإن[1] الأدلة النظرية والأثرية قاضية بأفضلية القرآن على جميع الأذكار وهو مذهب الأيمة من السلف والخلف، قال سفيان الثوري شرح «سمعنا ان قراءة القرءان أفضل من الذكر» نقله القرطبي في الباب السابع من كتاب «التذكار» وقال النووي رح: «واعلم ان المذهب الصحيح المختار الذي عليه من يعتمد من العلماء ان قراءة القرءان أفضل من التسبيح والتهليل وغيرهما من الأذكار. وقد تظاهرت الأدلة على ذلك» قاله في الباب الثاني من كتاب التبيان ومخالفة مثل هذا موجب للتبديع والتضليل.

(٤) واما زعم من زعم ـ متأولا لتلك الأفضلية الباطلة ـ بأن (صلاة الفاتح) خير لعامة الناس من تلاوة القرءان لأن ثوابها محقق ولا يلحق فاعلها إثم والقرءان إذا تلاه العاصي كانت تلاوته عليه إثما لمخالفته لما يتلوه. واستدلوا على هذا بقول أنس (ض) الذي تحسبه العامة حديثا: «رب تال للقرءان والقرءان يلعنه» ـ فهو زعم باطل لأنه

(1) راجع ج 3، م 5، من الشهاب.

مخالف لما قاله أيمة السلف والخلف من أن القرءان أفضل الأذكار ولم يفرقوا في ذلك بين عامة وخاصة ولا بين مطيع وعاص، ومخالف لمقاصد الشرع من تلاوة القرءان، وذلك من وجوه:

الأول ــ ان المذنبين مرضى القلوب فان القلب هو المضغة التي إذا صلحت صلح الجسد كله. وإذا فسدت فسد الجسد كله، فكل معصية يأتي بها الانسان هي من فساد في القلب ومرض به. والله تعالى قد جعل دواء أمراض القلب تلاوة القرءان: «**يا أَيُّهَا النَّاس قَدْ جَاءتكم مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُم وشفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُور وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمؤمِنِين**» «**وَنُنَزِّلُ مِن الْقُرْءانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلمؤمِنِين**» فمقصود الشرع من المسلمين أن يتلوه ويتدبروه ويستشفوا بألفاظه ومعانيه من أمراضهم من عيوبهم وذنوبهم وذلك الزعم الباطل يصرف المذنبين ــ وأينا غير مذنب؟ ــ عن تلاوته.

الثاني ــ ان القلوب تعتريها الغفلة والقسوة والشكوك والأوهام والجهالات وقد تتراكم عليها هذه الأدران كما تتراكم الأوساخ على المرآة فتطمسها وتبطل منفعتها وقد يصيبها القليل منها أو من بعضها فلا تسلم القلوب على كل حال من إصابتها فهي محتاجة دائما وأبدا إلى صقل وتنظيف بتلاوة القرءان.وقد أرشد النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى هذا ــ فيما رواه البيهقي في «الشعب» والقرطبي في «التذكار» ــ: ان هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد. قالوا: يا رسول الله فما جلاؤها، قال تلاوة القرءان» فمقصود الشرع من المذنبين أن يتلوا القرءان لجلاء قلوبهم، وذلك الزعم الباطل يصرفهم عنه.

الثالث ــ ان الوعيد والترهيب قد ثبتا في نسيان القرءان بعد تعلمه ، وذهابه من الصدور بعد حفظه فيها. فروى أبو داوود عن سعد ــ مرفوعا ــ: «ما من امرئي يقرأ القرءان ثم ينساه الا لقي الله اجذم» وروي الشيخان عن عبد الله ــ مرفوعا ــ: «واستذكروا القرءان فانه أشد تفصيا من صدور الرجل من النعم» فمقصود الشرع دوام التلاوة لدوام الحفظ ودفع النسيان وذلك الزعم الباطل يؤدي إلى تقليلها أو تركها.

ومثل هذا الزعم في البطلان والضلال زعم ان تالي القرءان يأثم بقراءته مع مخالفته. فان المذنب يكتب عليه ذنبه مرة واحدة. ولا يكتب عليه مرة ثانية اذا

ارتكب ذنبا آخر وإنما يكتب عليه ذلك الذنب الآخر فكيف يكتب عليه ذنب اذا باشر عبادة التلأوة؟ والأصل القطعي ـ كتابا وسنة ـ ان من جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلها وهو يبطل أن تجدد له سيئاته اذا جاء بتلاوة القرءان.

وما قول أنس (ض) «رب تال للقرءان والقرءان يلعنه»، فليس معناه ان القرءان يلعنه لأجل تلاوته، كيف وتلاوته عبادة؟ وإنما معناه انه ربما تكون له مخالفة لبعض أوامر القرءان أو نواهيه من كذب أو ظلم مثلا فيكون داخلا في عموم لعنه للظالمين والكاذبين. وهذا الكلام خرج مخرج التقبيح للاصرار على مخالفة القرءان مع تلاوته بعثا للتالي على سرعة الاتعاظ بئايات القرءان وتعجيل المتاب، ولم يخرج مخرج الأمر بترك التلاوة والانصراف عنها. هذا هو الذي يتعين حمل كلام هذا الصحابي الجليل بحكم الأدلة المتقدمة. ونظيره ما ثبت في الصحيح: «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة أن يدع طعامه وشرابه» قال الشراح ـ واللفظ للقسطلاني ـ: «وليس المراد الأمر بترك صيامه إذا لم يترك الزور وانما معناه التحذير من قول الزور فهو كقوله عليه الصلاة والسلام من باع الخمر فليشقص الخنازير أي يذبحها ولم يأمره بشقصها ولكنه التحذير والتعظيم لإثم شارب الخمر. وكذلك حذر الصائم من قول الزور والعمل به ليتم له أجر صيامه» هذا فيمن يرتكب الزور وهو صائم فيكون متلبسا بالعبادة والمخالفة في وقت واحد فكيف بمن كان ذنبه في غير وقت عبادة التلاوة فالمقصود من كلام أنس تحذيره من الاضرار على المخالفة وترغيبه في المبادرة بالتوبة ليكمل له أجر تلاوته بكمال حالته.

2 ـ وليس عندنا من كلام الله إلا القرءان العظيم. هذا إجماع المسلمين حتى ان ما يلقيه جبريل عليه السلام في روع النبي صلى الله عليه وآله وسلم سماه الأئيمة بالحديث القدسي وفرقوا بينه وبين القرءان العظيم ولم يقولوا فيه كلام الله. ومن الضروري عند المسلمين ان كلام الله هو القرءان وآيات القرءان، فمن اعتقد ان (صلاة الفاتح) من كلام الله فقد خالف الإجماع في أمر ضروري من الدين وذلك موجب للتكفير.

3 ـ قد بعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم معلما كما صح عنه، وعاش معلما إلى آخر لحظة من حياته، فتوفاه الله تعالى نبيا ورسولا ونقله للرفيق الأعلى، وقد أدى

الرسالة، وبلغ الأمانة، وانقطع الوحي وانتهى التبليغ والتعليم. وترك فينا ما إن تمسكنا به لن نضل أبدا وهو كتاب الله وسنته، كما صح عنه ، هذا كله مجمع عليه عند المسلمين وقطعي في الدين فمن زعم أن محمدا مات وقد بقي شيء لم يعلمه للناس في حياته فقد أعظم على الله الفرية وقدح في تبليغ الرسالة وذلك كفر. فمن اعتقد ان (صلاة الفاتح) علمها النبي صلى الله عليه وآله وسلم لصاحب الطريقة التجانية دون غيره كان مقتضى اعتقاده هذا انه مات، ولم يبلغ وذلك كفر. فان زعم انه علمه إياها في المنام فالإجماع على أنه لا يؤخذ شيء من الدين في المنام مع ما فيه من الكتم وعدم التبليغ المتقدم.

هذا وقد ثبت في الصحيح أن الصحابة رضي الله عنهم سألوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم كيف يصلون عليه فانتظر الوحي وعلمهم الصلاة الابراهيمية وقد تواترت في الأمة تواترا معنويا ونقلها الخلف عن السلف طبقة عن طبقة وأجمع الناس على مشروعيتها في التشهد. ومن مقتضى الاعتقاد الباطل المتقدم انه ﷺ كتم عن أفضل أمته ما هو الأفضل وحرم منه قرونا من أمته وهو الأمين على الوحي وتبليغه ، الحريص على هداية الخلق وتمكينهم من كل كمال وخير ، فمن قال عليه ما يقتضي خلاف هذا فقد كذب عليه وكذب ما جاء به. ومن رجح صلاة على ما علمه هو ﷺ لأصحابه (ض)بوحي من الله واختيار منه تعالى فقد دخل في وعيد: « **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن تَكُونَ لهم الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِم وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُبِيناً**».

4 ـ لا تثبت الأفضلية الشرعية الا بدليل شرعي ومن ادعاها لشيء بدون دليل فقد تجرأ على الله وقفاَ ما ليس له به علم.وقد أجمعت الأمة على تفضيل القرون المشهود لها بالخيرية من الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام فاعتقاد أفضلية صاحب الطريقة التجانية تزكية على الله بغير علم وخرق للإجماع المذكور، موجب للتبديع والتضليل.

5 ـ عقيدة الحساب والجزاء على الأعمال قطعية الثبوت ضرورية العلم فمن اعتقد أنه يدخل الجنة بغير حساب فقد كفر.

فالمندمج في الطريقة التجانية على هذه العقائد ضال كافر. والمندمج فيها دون هذه العقائد عليه إثم من كثر سواد البدعة والضلال.

ثم هاكم من جواب الأستاذ عن فصول السؤال، ما يؤيد جوابنا مع تعليقنا عليه:

«ومن المكر الخفي والكيد للإسلام المنطوي تحت هذه المقالة تزهيد الناس في القرءان العظيم وفي تلاوته ثم الإعراض عنه إلى ما هو أخف عملا وفي الميزان أثقل في زعمهم الباطل واني لأعجب لمسلم استنار قلبه بنور القرآن يقبل هذه المقالة في الاسلام، فلا حول ولا قوة إلا بالله».

لهذا وغيره نقول ان الطريقة التجانية ليست كسائر الطرق في بدعها، والمشاهد اليوم من أضرارها، ودعنا من حديث ماضيها بما فيه، بل هي طريقة موضوعة لهدم الاسلام تحت اسم الإسلام؛ فإن كُتبها وأقوال أصحاب صاحبها مطبقة على هذه الطوام وأكثر منها، فلا تجد في كتبهم ما هو خالص منها حتى يمكن أن يكون هو الأصل وان غيره مدسوس وانك لتجد هذه الكتب محل الرضى والقبول والتقديس عند جميع أتباع الطريقة عالمهم وجاهلهم. ولو كان عالمهم عاملا بالكلمة المنسوبة إلى صاحب الطريقة، والله أعلم بصحة نسبتها: (زنوا كلامي بميزان الكتاب والسنة) ـ لا عدموا تلك الكتب أو حرموا على جماعتهم قراءتها أو حذفوا منها هذه الكفريات والأضاليل وأعلنوا البراءة منها للناس لكن شيئا من ذلك لم يقع. وانما يَطَنْطِنون بتلك الكلمة قوليا ويقرون تلك الكتب وما فيها عمليا وماذا يفيد القول مع التقرير والعمل. ولهذا رغم من كان في هذه الطريقة من أناس مشهورين بالعلم كالشيخ الرياحي فان الحالة هي الحالة وتلك الكفريات والأضاليل فاشية منتشرة في اتباع الطريقة إلى اليوم.

قال الاستاذ الحجوي... بعدما نقل أقوالهم في ضمان شيخهم ومضاعفة الأجور لهم ودخولهم الجنة بغير حساب ـ: «فكأنها (الطريقة التجانية) ورقة حماية من دولة لها سلطة عالية، تعالى من يجير ولا يجار عليه، فكأنهم نسوا القرءان.

فبهذا صارت الطريقة التجانية في نظر أهل العلم بالسنة والكتاب كأنها مسجد الضرار عند الإسلام. فالله يقول في نبيه خاتم النبيين، وهم يقولون في الشيخ التجاني هو الختم وهو لبنة التمام للأولياء فحجروا على الله ملكه وقطعوا المدد المحمدي وهم لا يبالون أو لا يشعرون، وحتي إن شعروا فالمقصد يبرر الواسطة، وإذا سمعوا ان النبي أفضل النبيين قالوا ان التجاني رجله على رقبة كل ولي لله، بهذه العبارة الجافة من كل أدب الجارحة لعواطف كل مسلم لأن الولي في عرفهم يشمل النبي اذ يقولون ان ولاية النبي أفضل من نبوته، ولا يبالون أن يكون أصحابهم أفضل من أبي بكر وعمر والعشرة المبشرين بالجنة الذين كانوا يخافون الحساب ولا يأمنون العقاب، ولم يكن عندهم بشارة بالنجاة منها. اذ لا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون».

دعا الاسلام إلى الجد ومحاسبة النفس والعمل على الخوف والرجاء في جميع نواحي الحياة الدنيا على أن يكون ذلك على السداد والاخلاص ليكون ذخراً لسعادة الأخرى فجاءت عقيدة ضمان الشيخ ودخول الجنة بلا حساب هادمة لذلك كله وقد ظهرت آثارها بالفعل كما حكاه الاستاذ الحجوي فيما يلي:

«حكى لي بعض القضاة قال: كان في محكمتي تسعون عدلا في البادية. وقد تقصيت أخبار الصالح والطالح منهم لأعلم مقدار ثقتي بهم في حقوق المسلمين، فوجدت عشرين منهم متساهلين لا يؤتمنون على الحقوق، وحين دققت النظر في السبب تبين لي أنهم جميعا تجانيون، فبقيت متحيرا حتى انكشف لي أن السبب هو اتكالهم على انه لا حساب ولا عقاب يترصدهم فانتزع الخوف من صدورهم».

هذا في العدول وهم من أهل العلم فكيف بالعامة فهذه الطريقة ما وضعت الا لهدم الاسلام ولا أجزم بأن صاحبها هو الذي وضعها هذا الوضع فقد يكون فيمن اتصل به من كاد هذا الكيد ودس هذا الدس وليس مثل هذا الكيد جديدا على الاسلام. قال الامام ابن حزم في كتاب «الأحكام» ج 3 ص 21: «فان هذه الملة الزهراء الحنيفية السمحة كيدت من وجوه جمة، وبغيت لها الغوائل من طرق شتى، ونصبت لها الحبائل من سبل خفية، وسعي عليها بالحيل الغامضة، وأشد هذه الوجوه سعي من تزيا بزيهم، وتسمى باسمهم، ودس لهم سم الاساود، في الشهد والماء

البارد، فلطف لهم من مخالفة الكتاب والسنة، فبلغ ما أراد ممن شاء الله تعالى خذلانه. وبه تعالى نستعيذ من البلاء، ونسأله العصمة بمنه، لا إله إلا هو».

كلمة إلى العلماء

ـ وفي مقدمتهم صديقي العلامة الاستاذ البشير النيفر التونسي ـ

إنني أدعو كل عالم تجاني إلى النظر في فصول السؤال والجواب فان أقروا ما أنكرناه فليعلنوا إقرارهم له، واذا أنكروا ما أنكرناه فليعلنوا إنكارهم له. يصرحوا:

1 ـ بأن (صلاة الفاتح) ليست من كلام الله.

2 ـ وانها ليست مثل الصلاة الابراهيمية.

3 ـ وان النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يعلمها لصاحب طريقتهم.

4 ـ وان لا فضل له ولا لأتباعه ألا بتقوى الله.

5 ـ وان المنتسب إلى طريقتهم لا يمتاز من المسلمين عن غير المتسب إليها.

ومن لم يصرح بهذا باء بوزره ووزر الهالكين من الجاهلين وكان عليه إثم الكاتمين من العالمين وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين[1]

عبد الحميد بن باديس

(1) ش: ج 7، م 14، رجب 1357 هـ سبتمبر 1938 م.

الفهـــــرس

القسم الاول

رجال السلف ونساؤه

القسم الثانى

تراجم اعلام

القسم الثالث

القصص الدينى

القسم الرابع

الفتاوى ومسائل فقهية